رحلات الطرشجي الحلوجي

خيري شلبي



مكتبة مدبولي
القاهرة

رحلات الطرشجي الحلوجي

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

الناشر
مكتبة مدبولي
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٧٥٦٤٢١

رحلات الطرشجي الحلوجي

تأليف
خيري شلبي

مكتبة مدبولي
القاهرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خيري شلبي

رحلات الطرشجي الحلوجي في الزمان

رواية

تحتوي على أحداث مدهشة غريبة ،
وخواطر مسلية وعجيبة ،
وأخبار مذهلة ووقائع مؤسفة رهيبة . .
تتحدث عن حياة الأوائل والأواخر ،
والأماجد والأسافل

خطها يراع العبد الفقير إلى ربه تعالى العالم
غير العلامة والحبر غير الفهامة ابن شلبي الحنفي المصري
الطرشجي الحلوجي كفانا الله شر جهله أمين . .

الفصل الأول

دعوة للإفطار على مائدة المعز لدين الله الفاطمي

تلقيت دعوة شخصية من المعز لدين الله الفاطمي لتناول طعام الإفطار على مائدته ، أو سماطه كما ورد في الدعوة . . وذلك بمناسبة أول رمضان قاهري خالص ، أو بمعنى أصح أول رمضان تشهده القاهرة . ذلك أن شيئاً أسمه القاهرة لم يكن موجوداً قبل المعز لدين الله الفاطمي . كانت هناك مصر وعاصمتها الفسطاط ، وكان للفسطاط ضواحي أقامها الحكام الوافدون الفاتحون لسكناهم كي تكون بعيدة عن زحام الدهماء والحكومات المدحورة ، ما لبثت أن صارت مدناً مثل العسكر والقطائع ، ثم ما لبثت أن ذابت في مدينة واحدة كبيرة اسمها القاهرة . وحتى القاهرة نفسها كانت في الأصل ضاحية هي الأخرى يسكنها البيت الفاطمي الحاكم ، قبل أن تتمدد وتصبح علماً على مصر . .

لم تكن هذه أول مرة أرى فيها المعز ، فقد سبق أن أرتحلت إلى المغرب بصحبة استاذ لي يدعى « ابن خلكان »، وزرنا مدينة القيروان وتعرفنا على الدولة الإسلامية التي كان المعز خليفة لها . والحقيقة لقد انبهرت بمظاهر البذخ غير الممجوج ، وأعمدة المرمر في المساجد وداخل الناس لا تخطىء العين لمسها . بعد ذلك ببضعة قرون حدث أن كنت أتجول في القاهرة الحديثة ـ قاهرة الفرنسيس والبريطان ـ فتعرفت على رجل يدعى « ستانلي ليبول » من عشاق القاهرة ومؤرخي سيرتها ، فتفرس فيّ وقال : أنا شفت البيه قبل كده . فحاولت تذكره ، فإذا به يهتف قائلاً ولكن بالخواجاتي طبعاً : بس قابلتلك مرة في المغرب في مجلس الخليفة الفاطمي المعز لدين الله . قلت يا سلام ، ثم

تعانقنا وسرنا معاً في شوارع القاهرة وحواريها القديمة نشرب الشاي الأخضر والجنزبيل والشيشة على مقاهيها ولا حديث لنا سوى المعز . خواجا أروب يعرف كل شيء ، صرح لي ـ والعهدة على الراوي ـ أن دعاة الشيعة أصابوا ثلاث خطوات من النجاح : الأولى هي سيادة القرامطة على بلاد العرب والجزيرة وسورية في القرنين التاسع والعاشر ، والثانية هي إمتداد الخلافة الفاطمية إلى شمال أفريقية ومصر ، والثالثة كانت انتشار مبادىء الإسماعيلية في بلاد فارس ولبنان . وكانت الخلافة الفاطمية التي اشتقت اسمها من فاطمة زوج علي بن أبي طالب وبنت النبي عليه الصلاة والسلام أقوى وأبرز ما تمخضت عنه حركة الشيعة ، التي وجدت في بلاد البربر تربة خصبة ، ووجد دعاتها من يصلح خليفة لعلي بن أبي طالب وزوجه فاطمة في شخص عبيد الله المهدي في القيروان حاضرة البلاد التي تسمى تونس الآن وذلك في سنة ٩١٠م. ويضيف الخواجا الأروب قائلاً أن بلاد المغرب من فاس في مراكش إلى الحدود المصرية خضعت لنفوذ المهدي بعد أن غزاها مرتين . . وكان المعز رابع الخلفاء الفاطميين من أسرة المهدي وصاحب الفضل في فتح مصر رجلاً قديراً نزيهاً ذكياً وسياسياً بارعاً خبيراً بشؤون السياسة .

ثم أن الخواجا الأروب اختفى فجأة فيما كنا نجلس على مقهى في ميدان المشهد الحسيني نأكل الفالوذج ـ أقصد المهلبية . وأغلب الظن أنه هرب من دفع الحساب ، فقررت ملاحقته وتهزئته حتى النخاع ، ليس لأنه ورطني في الحساب ولكن لأنه تركني عند نقطة هامة لم يكملها هي : كيف تم بناء القاهرة . ساهيت الولد الجرسون وزغت في الحارة الجانبية أحاول أيهام عيون خفية أنني لست هارباً من شيء بل سأشتري شيئاً وأعود . وإذا بي ـ وأنا لم أغادر مكاني إلا قليلاً ـ أجد نفسي محاطاً برهط من الجنود المغاربة بزيهم الرسمي . قالوا لي : أين تذهب أيها المخلوق الغريب ؟. قلت أما والله عجيبة وما لكم أنتم . . . ـ أنني أقول لهم ـ أمشي في حارة متفرعة من ميدان المشهد الحسيني ، وسأشتري سجائر وأعود لأدفع حساب المقهى . قالوا أي مقهى وأي حساب يا عبيط يا مخلول . . الحساب الحقيقي سوف تراه الآن جزاء اقتحامك

منطقة البناء !. نظرت أمامي فإذا بي ويا للعجب وسط أرض فضاء محاطة بسور ثابت وأسوار أخرى كثيرة تصنع مربعات ومستطيلات ومثلثات ودوائر من الحجر الصلد . أخذت أتلفت مندهشاً . قلت بالله أين أنا يا خلق !. تقدم مني مغربي عجوز تبينت فيه عـرافاً عـاقلاً ، قـال أنت يا بني لم تبـرح مكانـك . قلت من دهشتي فما هذا الجبل ؟ قال : المقطم . قلت وما هذه المدينة البعيدة قليلاً ؟. قال هي الفسطاط وضواحيها . . وأما هذه العشش الصغيرة البعيدة فهي قرية أم دنين . قلت إذا كان هذا هو المقطم فأين طريق صلاح سالم وأين طرب الإمام وأين الدراسة بل وأين المشهد الحسيني بل أين أنا ؟. ربت على كتفي برفق ثم تبسم قائلاً : تفضل معي . مضيت خلفه . اجتزنا الحـارة التي كان إطـارها لا يزال قائماً في دماغي . تخطينا فضاء ضيقاً فإذا بنا أمام أساس لمبنى . ثم مررنا بأساس آخر وثالث ورابع حتى وصلنا إلى ما يشبه المعسكر ، يمتد منحدراً من جبل المقطم حتى المنطقة التي كانت منذ قليل يحتلها الجامع الأزهر ، غير أنها كانت مجرد أساس منحوت في الأرض حول بستان مهول وثمة خيام أنيقة متناثرة يحوطها الجند والوجهاء من كل ناحية ، وبينمـا نسير مـررنا بـرجل شيـخ ممتد اللحية بيده قصبة وقلم ومحبرة ، وحزمة أوراق ، وجند آخرون ينازعونـه وينازعهم بلطف وابتســام فيمـا يـدون بين الحين والحين شيئاً في الـورق ، عـرفتـه ، أنه الشيخ تقي الدين المقريزي صاحب الخطط الشهيرة في عصورنا ، أردت أن ابين لمن يصطحبني أنني أعرف ناساً وصلوا إلى مراتب رئاسة الوزراء ، هتفت فيمـا أسير : أزيـك يا مقـريزي فهـز رأسه بلطف النجـوم اللوامع ، قلت رغم محنتي بكل صفاقة : ميلزمش خدمة ؟؟. . صاح بكل بساطـة : يلزم . سابت مفـاصلي ، خفت أن يطلب فلوسـاً أو مؤازرة ، لكنـه صاح : إن كـان لـديـك معلومات عن هذه البقعة من الأراضي فأملها عليَّ ، لقد سجلت كل قدم داستها منذ ما وعاه خيالي من السنين ومع ذلك لا بأس عندي من المراجعة . وجدتني أبتسم في بلاهة وأنصاع لجذبة العراف المغربي .

اجتزنا ممراً ترقص على جانبيه قصارى الزرع الأخضر ، وترقص ـ على جانبيه أيضاً ـ الجند المتأهبة ، وكانوا يستقبلوننا بالتحية ، حتى صرنا في باحـة

مستباحة لا يمكن التصديق بأنها من قماش الخيم بل هي من المرمر ، مفروشة أرضها بالسجاد ، ثم حود العراف المغربي فحودت وراءه وجلاً فإذا بنا ـ وجهاً لوجه ـ أمام القائد الأعلى بذات نفسه ، لم يقل أحد أنه هو ، إنما هو الذي قال دون أن يقول . انحنى العراف المغربي أمامه وأشار نحوي قائلاً :

إنه في أول رمضان سنة ٣٥٨هـ وجده الجند يتلصص في أرض القصر صحت قائلاً : قصر قصر ؟ والله والله لم يكن هناك قصر . ضحك القائد ونظر نحوي ثم تراجع في كرسيه المذهب ووضع ساقاً على ساق فكان الدنيا تلعبكت في عيني ، قال : لقد أصدرت العفو الشامل وأمرت جندي بالكف عن أي فعل عدواني نزولاً على رغبة نساء مصر اللاتي جئن يلتمن مني الرحمة فما الذي أمرتك به نفسك الإمارة بالسوء يا هذا ؟ . . وتبسم . .

قلت في نفسي : حلو . . ثم قلت في الهواء : يا سيدي القائد جوهر الصقلي كما ظننت ؟ ـ هكذا عقبت . فهز رأسه أن نعم . فركعت بين يديه وقلت بربك سامحني إن كنت أخطأت فما أنا إلا صعلوك يتجول في الأزمنة بمطلق حريته . رفعني بإشارة من اصبعه وبإشارة أخرى اجلسني على كرسي بجواره ضعت فيه تماماً ، وبنظرة صرف العراف المغربي . ثم مسح على ذقنه الصغيرة ومرر يده على وجهه الكبير الممتلىء دماً وعزماً وصلفاً ، ثم بسمل وحوقل وداعب حبات المسبحة الذهبية ، ثم كأنه انتبه إلى وجودي فنظر لي قائلاً :

ـ صائم أنت ؟

هتفت :

ـ رمضان كريم

قال :

ـ إذاً لم تكن من مسلمي مصر فلا تتحرج واطلب شراباً أو مأكلاً

قلت رافعاً نبرة الحرج إلى اقصى درجة :

ـ مسلم وموحد بالله يا سيدي القائد

ـ الحمد لله .

هكذا قال بلكنة غير فصيحة ، غير منسابة انسياب اللسان العربي . .

ثم دخل حاجبه يجرر أذيال جبته الجوخ المعتبر ، يتأبط أفرخاً من الورق المبروم ، تقدم من جوهر وفردها فإذا بها مجموعة خرائط عليها خطوط لقصور ومآذن وبوابات وإيوانات وشرفات صار جوهر الصقلي ينقل البصر بينها في نظرات مقارنة ، وكان من الواضح أنهما نسيا وجودي تماماً ، وعقد جوهر ما بين حاجبيه وقال :

ـ ثمة اختلاف بين خرائط مولاي المعز ، والخرائط التي وضعها هؤلاء البناؤون !

قال الحاجب :

ـ فروق طفيفة . . هي خرائط التنفيذ لا بد أن تكون مجزأة .

قال جوهر في رجاء رقيق ـ رجاء من يتدخل في غير مهنته :

ـ أنا ملتزم بخرائط مولاي المعز . . لقد وضع عليها تصميماً لكل نقطة وفاصلة . .

قال الحاجب :

ـ ونحن أيضاً . . كل ما هنالك أنها فروق تفرضها طبيعة المكان ، وهي طفيفة .

قال جوهر وهو يتناول القلم من يد الحاجب :

ـ على بركة الله .

ثم وقع بإمضائه على إحدى الخرائط ثم فردها وشملها بنظرة واسعة سمحت لي أنا الآخر برؤية تفاصيل الخريطة ، صمت في غبطة : أنه الجامع الأزهر، نعم هذا رسمه، فكأن جوهراً لم يسمعني، طوى الخريطة وفرد أخرى ثم وقع عليها بإمضائه وشملها هي الأخرى بنفس النظرة . رأيت عليها قصراً غاية في الفخامة والأبهة غاية في التركيب والتعقيد . صحت في غبطة أشد : لا بد أن هذا هو القصر الشرقي الكبير . وهنا طوى جوهر الخريطة ونظر للحاجب قائلاً :

ـ سوف يصبح قصر الخلافة الفاطمية . . ثم أومأ شاكراً فإنصرف

الحاجب . ليدخل حاجب آخر أقل أبهة . تلقاه جوهر في قلق :

هيه . . ماذا فعلتم ؟

قال الحاجب الأقل أبهة وهو ينحني :

ـ توصلنا إلى حل جميل لمشكلة الإبلاغ الفوري . .

قال جوهر وهو ينجعص :

ـ ماذا ؟ . .

قال الحاجب الأقل أبهة :

ـ كانت المشكلة أمام العلماء والمنجمين المرابطين فوق جبل المقطم يتشاورون فيما بينهم عن تحديد موعد الإفتتاح . .

صاح جوهر في عصبية :

ـ أسأل عن إفتتاح البناء . . متى يبدأ العمال في العمل ؟ . . هل انتهيتم من ابحاثكم ؟

انحنى الحاجب الأقل أناقة في حرج وأرسل صوته الرقيق :

ـ مولاي . . إن المنجمين والعلماء لا زالوا يتشاورون . .

ـ في ماذا ؟ . .

ـ في تحديد موعد البدء في العمل . .

ـ ومتى يتم البدء في العمل ؟ . .

ـ حين يتأكد المنجمون من حسن الطالع ؟ . .

ـ ومتى يتأكدون من حسن الطالع ؟

ـ حين يقترب برج ماذا لا أعرف من برج ماذا . . أو حين يدخل البرج الفلاني في البرج الفلاني . . مسألة فلكية كما تعرفون لا أفهم فيها . .

زام جوهر كأنه يسلم هو الآخر بعدم فهمه في الفلك ، ثم صاح من جديد :

ـ إذن فما الحل الجميل الذي توصلتم إليه ؟

قال الحاجب الأقل أبهة :

ـ كانت المشكلة أمام المنجمين هي أن أمرهم حين يصدر بالبدء في البناء يكون على العمال أن يبدأوا في الحال دون أن يفصل بين صدور الأمـر والبدء الفعلي ولو ثانية واحدة . . فكيف يتأتى لهم تحقيق ذلك ؟

صحت فوق صياح جوهر :

ـ أي نعم كيف ؟! . .

قال الحاجب الأقل أبهة :

ـ هذا ما توصلوا إلى حله ؟ . .

ـ كيف ؟ . .

ـ تعرف أنه لا مباني حولنا سوى دير العظام ولا زرع سوى بستان كافور .

قال :

ـ نعم . .

ووقفت أنا فوق الكرسي في نزق ورحت أنظر من فتحة مستديرة واصيح في انبهار :

ـ يـا سلام . . هـذا إذن هو بستـان كافـور الممتـد من هنـا حتى العتبـة الخضراء حيث يطل على خليج أمير المؤمنين الذي هو الآن شارع بور سعيد . . وإذن فام دنين هذه هي ما عرف فيما بعد ببركة الأزبكية .

وانتبهت إلى جوهر واقفاً ينظر من فتحـة بجواري والحـاجب الأقل أنـاقة يشير موضحاً :

ـ وضعنـا قوائم في مـربع يبلغ كـل ضلع من أضلاعـه ألفـاً ومـائتين من الياردات . . ثم علقنا أجراساً على الحبال الممتدة من عمود إلى آخر !! . .

رفعت أذني . . وقال جوهر :

ـ ولماذا الأجراس ؟

قال الحاجب الأقل أناقة :

ـ حينمـا يتفق العلماء المنجمـون على حسن الطالـع . . يشدون طـرف الحبل من عندهم . . فتدق الأجراس . . فيبدأ العمال العمل في الحال .

صحت أنا وجوهر :

ـ يا سلام . . يا لها من فكرة طريفة :

ثم شوح بذراعه وارتد جالساً ، فبسرعة تكورت في كرسي لاهث الأنفاس كجرذ . انتبه الحاجب الأقل أناقة إلى وجودي ، فتلفت حواليه منذعراً كأنه يبحث عن مقشة يطاردني بها . . تأهبت للقفز في وجهه لإلهائه . . لكنني تذكرت أن بجيبي دعوة على الإفطار من المعز شخصياً . . فاعتدلت منتفخ الأوداج فقال جوهر باسماً :

ـ لا عليك منه فلا بد أنه مصري طيب القلب بـ . . .

قاطعت جوهراً :

ـ ومعي دعوة من مولاي الخليفة . . سأتناول الإفطار على مائدته في قصره اليوم . .

ورحت أبحث عن البطاقة ، فهدأني جوهر بحركة من يده قائلاً :

ـ هدي من روعك . . هدي من روعك . . إن القصر الذي ستتناول فيه افطارك لم يبن بعد . . لقد جئت متقدماً أربع سنوات على الأقل . .

قلت :

ـ ولكننا الآن في شهر رمضان ! .

قال جوهر :

ـ تناول الإفطار عندنا لو أردت .

قلت : لا . . شكراً يا سيدي . . وآسف لازعاجك . . سوف أعود بعد أربع سنوات .

قال جوهر :

ـ ليكن . .

تأهبت بالإنصراف ، وإذا بالأجراس تنطلق مصلصلة فكأنها زغرودة أسطورية تنداح في الأفق لتعود من جهة أخرى مجلجلة . انتفض جوهر واقفاً كما انتفض الفرح على وجهه ، عانق الحاجب الأقل أناقة وصاح كلاهما صيحة

فرح ، هاصت الدنيا وزاطت فجأة ، وامتلأ الهواء بأصوات دق وحفر وصياح حماسي ، قال جوهر :

ـ جئت مع حسن الطالع يا هذا . . والله لا تنصرف من هنا إلا معززاً مكرماً . .

وأمر بأن أجاوره على مائدة الإفطار وأن تعد لي بعض الهدايا ، أخذت أرقص من الفرح ، وداخلني شعور بالزهو لكوني حظيت بشرف حضور اللحظة التي بدأ فيها بناء القاهرة الحبيبة . وانتبهت فإذا بناس كلهم من علية القوم فيما يبدو يتوافدون على الباحة الأمامية ويوقعون في دفتر لا بد أنه دفتر تشريفات ، أستطعت أن اتعرف فيهم على أبي المحاسن بن تفري بردي وابن خلكان وابن عبد الحكم والمقريزي والدكتور عبد الرحمن زكي والدكتور حسن إبراهيم حسن والمهندس حسن فتحي ونجيب محفوظ والدكتور حسين فوزي والدكتورة سعاد ماهر وعدد كبير من أصدقاء أعرفهم ويعرفونني غير أنهم لم يحاولوا النظر إليّ ليروني أجلس في حضرة جوهر الرومي الصقلي قائد جند المعز في اللحظة التي بدأ فيها العمل في بناء القاهرة .

لكن الدنيا سرعان ما انقلبت دفعة واحدة وغلت الوجوه تكشيرات رهيبة ، وسمعنا صراخاً وصياحاً غاضباً ، وحوافر خيل تقترب ، ودخل من يصيح في غضب :

ـ يا للشؤم . . يا للتعاسة . . كيف حدث ذلك ؟

ثم بكى بحرقة . فرحنا ننظر إليه وقد تهدلت أناقته . .

ـ أتبكي أيها العالم المنجم ؟

رفع العالم وجهه صائحاً :

ـ كارثة . . لقد بدأ البناء في أشد اللحظات نحساً ! !

انتفض جوهر واقفاً وهو يشهق :

ـ ماذا ؟ . .

قال العالم المنجم باكياً :

ـ حين بدأ البناء كان الطالع غير سعيد على الإطلاق . . غير سعيد بالمرة !!

صرخ جوهر غاضباً : كيف ؟!

قال العالم :

ـ كان كوكب المريخ ـ القاهر ـ في صعود !!

ضرب جوهر الأرض بقدمه :

ـ القاهر . . وكيف إذن أصدر لهم الأمر بالبناء ؟!

ضرب العالم الأرض بقدمه هو الآخر .

ـ لم نصدر أمراً . . لم نتحرك من مكاننا . .

ـ فمن الذي أصدر الأمر إذن ؟ . من الذي ضرب الأجراس ؟

هكذا صاح جوهر . . فرد العالم باكياً :

ـ غراب . . نعم غراب أحمق . . لم يعجبه مكان في الدنيا يقف عليه في هذه اللحظة سوى طرف أحد الأعمدة . وحين وقف أعجبته الوقفة فراح سيادته يهتز ويتراقص . . فأخذت جميع النواقيس تدق وبدأت عملية البناء ! .

لا أستطيع وصف الكدر الشديد الذي أحتل وجه جوهر . . هذا الجسد الهرقلي أنهد على الكرسي فاقد الحيوية منطفىء العينين . وأخذت أدبر للتسلسل خفية . لولا أن وفداً من العلماء العقلاء المتماسكين دخلوا يجرجرون عباءاتهم في وقار ، انحنوا أمام جوهر الذي لم يعرهم أي التفات . . تقدم كبيرهم محاولاً تخفيف وقع الكارثة :

ماذا حدث بحق الله . . ليحدث ما يحدث . . لكننا يجب أن نكون متفائلين . . كوكب القاهر في صعود . . فلنسم المدينة الجديدة باسم القاهرة .

جاء صوت جوهر من غيابة الجب :

ـ قاهرة ؟ . .

ـ نعم . أملاً في أن يتحول الفال المشؤوم إلى نتيجة مظفرة .

انطلقت جوفة الأصوات :

ـ والله صحيح . .

ـ ما أحسن التفاؤل . .

ـ بإذن الله منصورة . .

ـ إذن فلن يتوقف العمل في انتظار طالع آخر سعيد ؟

هكذا قال جوهر . .

ـ وما توقف العمل إلا نذير شؤم بدوره يا مولاي . . إذا كان الطالع غير سعيد فإن هدم ما بدأناه لن يكون فالاً سعيداً بأي حال .

هناك فقط لمعت عينا جوهر من جديد ببعض الحيوية . شوح بيده كالمغلوب على أمره . فاستدار العلماء يصيحون صيحات تهدىء ذعر الجماهير في الخارج رأيت الجموع تتوافد من جديد لتوقع في الدفتر ، وبينهم ليفربول يتلكأ في انتظار دوره . . فساهيت جوهر واندفعت أصيح :

ـ ضبطتك . . تعال . .

بقفزة واحدة صرت ضمن الجموع . . تعلقت بستانلي ليفربول وهمست في إذنه بقلتي :

ـ دفعت حساب القهوة

فنظر إليّ باسماً وبدا أنه لم يتذكر شيئاً . ثم أنه جذبني وتهنا في الزحام برهة ، أفقت بعدها فوجدت نفسي أطوف بالمشهد الحسيني بعد الفطور وحدي . وكنت أعرف أنني أتجول في نفس اللحظة ـ في أروقة قصر الخلافة : القصر الشرقي الكبير .

الفصل الثاني

وراح يحضر افتتاح القصر فحضر خرابه

نظرت في ساعتي فوجدت بيني وبين موعد المعز ألفاً وثمان وثلاثين سنة . أي حوالي عشرة قرون ونصف قرن تقريباً . قلت : بسيطة أضيع وقتاً في المشهد الحسيني متجولاً ، وأشرب شايا على مقهى الفيشاوي ، مالي أنا ولهذا المقهى الحديث الذي يسمونه الفيشاوي ؟ أنني اتكىء فحسب على أرضه لأجلس في المقهى القديم بكل حذافيره . ليس البناء مجرد بناء أبداً ، هو عصور من الصور المتراكمة التي لا تمحى ، يستطيع « ابن شلبي » أن يعيش في الصورة التي يهوى في الزمن الذي يشاء وقتما يرغب . مع ذلك يا أخي ، تسقط في بئر الزمن ، تسقط ولا بد أن تنتشلك من قاعه إلى سطحه لحظة رؤية عابرة . .

جاءني الشاي بالنعناع والشيشة ، فراحت العين تزحف على الجدار الخشبي المشغول بشبكة من الرسوم المخروطية الدقيقة ، وليس معي من أحد في المقصورة ، ليس معي سوى الزمن ، تحاول المقهى أن تبيع لي الزمن القديم متجمداً في بقايا نقوش أو مقاعد ، أزحزح نفسي وأجلس بالضبط في باب المقصورة أريد أن أطفو على سطح الزمن ، أرى السياح أنصاف عرايا بيدهم الخرائط والآلات ، وأرى « نظيرة » جالسة على الكنبة العتيقة كأنما منذ ألف عام تقرأ الفنجان لبنت صغيرة ، وأرى باعة السميط والبوهيجية والمراوح الكهربائية وأشياء من واردات أمريكا واليابان ، وأرى الشحاذين السافرين « نسبة إلى أبيهم سفر ، الذي قيل أنه كان من جنود لا أدري من ، فاستوطن وأصبح له

نسل كبير لا يؤمن بالعمل أو وجع الدماغ ، ويقال أن جدهم الأكبر كان أول من احترف الشحاذة وأتخذ منها مهنة مربحة » ـ أراهم وأرى كيف أن الآخرين ليسوا إلا شحاذين سذجاً يكلفون أنفسهم أشياء يقدمونها لك أو جهوداً يطرحونها عليك ، وأسمع ضجة وزلزلة تحدثها شرائط الكاسيت من ثلاثة محلات متجاورة متقابلة يحاول كل منها أسماع الزبون بصوت أعلى ـ شيئاً مختلفاً تماماً في نفس الآن !.

ضقت بالفيشاوي ، ضقت بكل الأماكن التي تجعلني هدفاً لجحافل الباعة و « أولاد سفر » . . مشيت بين حوانيت الصاغة والعاديات والتحف متهدل القامة أغوص بين وفود السياح المنطلقين في ابتهاج يطل من عيونهم شبق إلى المعرفة ، ويطل من أعماقي احساس بأنني أنا الآخر تحفة غير فنية وثمة بينهم من يمكن أن « ينسك » في ويشتريني . ثم أن الزحام أخذ يتكاثف ويتكاتف حتى أغرقني تماماً وصرت أرفع بالصوت كالنساء ولا من مجيب ، تدوسني الأقدام بلا رحمة . . أخذت أضرب سيقان الناس وأعضها حتى وسعت لنفسي براحاً نفذت منه إلى بقعة أقل كثافة ، تمكنت فيها من الوقوف ثم السير وسط الحشود المتدفقة المتلاصقة ، ولقد ذهلت ، إذ أنني حين وقعت بين الأقدام ، نظرت حوالي فلم أجد أحداً يلتفت إلى أحد ، فقلت هل بلغت الأمور إلى هذا الحد الفظيع ؟. ولكنني اكتشفت أن الملابس كلها مختلفة عن ملابس أيامنا ، كرنفال من السروايل والعمائم المملوكية والجلابيب المصراوية والعباءات المغربية ، دفعني الزحام إلى رحبة واسعة جداً تفصل بين قصرين عظيمين لم أر لهما مثيلاً في حياتي، قلت هذا هو ميدان بين القصرين الشهيرين وهذان هما القصران الشهيران أحدهما القصر الشرقي الكبير وهو الذي أمشي الآن بجواره ، والثاني القائم في الطرف الأخر للميدان هو القصر الغربي الصغير ، لما هذا الزحام إذن . كانت الرحبة عبارة عن سوق حافل بالدهماء والباعة من مختلف الأنواع، يقعدون بأصناف المأكولات من اللحمات المتنوعة والحلاوات المصنعة والفاكهة . . . وكان يخيل إلي أن الجو نهار فإذا بنا في الليل ، سرج وقناديل خارجة عن الحد في الكثرة ورمضان واضح للعيان أمام الباعة وعلى الوجوه

المنشرحة رغم الزحام الخانق حيث يختلط الناس بـالحمير وأصحـاب الفخامـة بالمكارين ، هذه حلقة مسورة بأجساد بشرية ومقاعـد ودكك ، اقتـربت منها ، منشد ورباب وسيرة لبطل من الأبطال لعله عنترة أو الهلالي ، هذه حلقة أخرى ، أنهـا مجموعـة من الشبان تقـدم فنوناً من اللعب ، الناس يتفـرجون ويصفقـون ويضحكون . لاحظت أن من يـراني لا يكف عن النظر إليّ بتمعن واستغـراب فعـرفت أن بـذلتي وربـاط عنقي وحقيبتي السمسـونيت هي كـل مـا يثيـر الاستغراب ، أوقفت شخصاً كان يبدو عليه الذهول مثلي وقلت له : يا أخي ـ ما بال الناس مجتمعين للمرور من ههنا كأنهم في زفة أو جنازة كبيرة ؟ . قال والله لقد سألت نفس السؤال قلت ومن أنت ؟ . . قال : محب الدين محمد بن قاضي القضاة عماد الدين أحمد الكركي وقادم لتوي من الكرك . قلت : وفي أي عام نحن الآن ؟ . قال : نحن في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . فتركته ومضيت وقد فهمت أنني أخطأت الزمن وصرت أتدبر في كيفية العودة من حيث أتيت ـ لكن الزحام يدفعني ، هذا شادر كبير مليء بالبطيخ ويشهد زحاماً هائلاً كأننا في مصر في نهاية القرن العشرين الميلادي ، ووجدت المقريزي يجلس على مقربة منه فظننته ينتظر بطيخة لعياله ، لكنه كان يجري تحقيقاً مع ولد تبينت أنه من الصياع والمتشردين قلت ماذا بهذا الولـد يا مقـريزي ؟ . قـال أنه ورفيق لـه من غلمان الخيل خرج في هذا الليل الرمضاني المقدس وسرق بضعاً وعشرين بطيخة وبضعاً وثلاثين شقفة جبن ، قلت وهـل أنت صاحب البـطيخ والجبن ؟ . قـال : أنني أتعرف منه على كيفية الفعلة فحسب لكي أكتبها . قلت والله أنك لرجل عظيم ، فنظر لي باستـرابة وقـال: ألم أرك من قبل في قبضـة جند جـوهر؟ . قلت: نعم . قال : ماذا تريد بالضبط ؟ . قلت معي دعوة للإفطار على مائدة المعز لدين الله الفاطمي أبي تميم معد. قال: بأي منـاسبة؟ قلت: بمنـاسبة أول رمضـان تشهده القاهرة . قال : ارجع من حيث أتيت لأنك الآن تسير في خط بين القصرين بعد أن زالت الخلافة الفاطمية على أيدي الأيوبيـين واستبيـح ميدان بين القصـرين كما ترى . .

يبدو أن المقريزي توسم في أنني ابن ناس طيبين ، خاصة حينما أسندت

حقيبتي السمسـونيت على ركبتي وفتحتها بفخـامـة : تـك تـك . . ثم لـوحت بالبطاقة المذهبة التي تحمل دعوة المعز لي وكـانت مكتوبـة بماء الـذهب. وكنت أفكر في أن الواحد يمكن أن يبيع ماء الذهب هذا لأي صائغ إذا فشلت الدعوة ـ وضـربني السلك أي أفلست، ولهذا اكتفيت بـالتلويح بـالبطاقـة وارتعشت يدي حين هم المقريزي بـإمساك البطاقـة ليقرأها: فحتى البـطاقة نفسهـا كانت من الفخامة بحيث يمكن أن تكون قابلة للرهن مقابل فلوس نفك بها عذرنا . ابتسم المقـريزي وقـال: أين كنت قبل هـذه اللحظة؟ قلت لـه: كنت أمشي قـادمـاً من المشهد الحسيني مخترقـاً البوابـة المواجـه له بين محـلات العاديـات نحو شـارع المعز فإذا بي أجد نفسي ها هنا . قال : حلو . . أترى هذا البـاب العظيم ؟ . قلت: نعم. قال: هو باب الديلم الذي يطل على هذه الرحبة المدعوة رحبة قصر بشتاك ، ولو مشيت في هذه الرحبة من خزانـة البنود هـذه لصرت في المشهـد الحسيني، إن المشهد الحسيني وراءك بالضبط ولكن يفصلك عنه سنوات طويلة، ومن بـاب الديلم هـذا يمكن أن تسلك إلى باب تـربـة الـزعفـران ـ مقبـرة أهـل القصر من الخلفاء واولادهم ونسائهـم ، وعلى فكرة ، باب تربة الزعفـران هذا يحل محله الفندق الخليلي اتعرفه ؟. قلت لم أر الفنـدق أو الخان ولكن اسم خان الخليليّ في عصرنا نار على علم . هز رأسه وقال وكأنه يوم : لم يبق سوى الاسم فحسب ، أيه يا مصر كم تحتفظ ذاكرتك بأسماء وأسماء ! . . المهم ـ لا زال يقول ـ فيما بين الديلم وباب ترعة الزعفران الخوخ السبع التي يتوصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر في ليالي الوقـدات فيجلس بمنظرة الجـامع الأزهـر ومعه حرمه لمشاهدة الوقيد والجمع ، ويمكن أن تسلك من باب تربة الزعفران إلى باب الزهومة . هتفت صائحاً : باب الزهومة أين هو . أشار بـأصبعه نحـو باب عظيم كبير وقال ها هو ذا ، قلت : هـذا الباب لا تـزال بوابتـه قائمـة إلى عصرنا ، ولسوف أقف أمامها ممسكاً بهـا فلعلها تصعـد بي من قاع الـزمن إلى سطحه لاعـود فـأنـزل إلى بئر الـزمن من جديـد محدداً طـريقي بالضبط . قـال المقـريزي متبسمـاً : أأنت مدعـو على الإفطار ؟ . قلت نعم . . قـال أتعلم ما معنى بـاب الزهومة ؟ قلت لا والله . قـال يعني باب المـطبخ ، فتـطلعت إليه

ـ أقصد الباب ـ في تدله ووله شديـدين . . فشدني المقـريزي بـرفق وأجلسني بجواره ثم أخرج من جيبه مطواة أنيقة جداً ومشغولة اليـد بآيـات قرآنيـة ورسوم إسلامية زاهية ـ لكنها ليست قرن غزال أي أنها ليست ممنوعة ـ ثم سحب بطيخة نقـر عليها بحـرفته ثم دب المـطواة في قلبها وجـرها ثم فعـل ذلك مـرة أخرى وسحب شرخة هائلة قدمها لي قائلاً : روق دمك . فدفنت بوزي كله في شرخة البطيخ غيـر عابىء بمـا قد تفعله في بـذلتي ورباط عنقي وبـاقـة قيمصي قـال المقريزي وهو ينحت شرخته في أدب ورصانة . أليس في زمنكم بطيخ ؟ . قلت لا والله ، إنما يوجـد شيء شبيه بـه واسمه بـطيخ أيضـاً . قال رحم الله محيي الدين بن عربي الذي قال : إذا نزل زحل برج الجوزاء عزت الأقوات بمصر وقل أغنيـاؤهم وكثر فقـراؤهم يكون المـوت فيهم . قلت ومتى يـدخـل زحـل بـرج الجوزاء ؟ . قال كل ثلاثين سنة شمسية فيقيم فيه نحواً من ثلاثين شهراً . قلت إن شيئاً مما قاله ابن عربي صحيح ولكن عدد الفقراء كلما تزايد صاحبه تزايد في عدد الأغنياء وارتفاع في ثرواتهم ؟ قال إذن فإن برج القاهر لا يزال في صعـود قلت لقد اقترب موعد المعز . قال أعلم أن وصول المعزالى قصره هذا كان في يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان سنة أثنتين وستين وثلاثمائة . قلت وأنا أدون في مفكرتي : الآن استطيع الذهاب بسهولة ، سوف أركب الأتوبيس الذي يوصل إلى هذا الزمن مباشرة .

ثم أنني ودعته وانصرفت وقد شعرت بالخجل ممـا حل ببـذلتي فأخـذت أعالجها بمنديلي ، فاكتشفت أن تراب القاهرة كله قد خرج من جبهتي ووجهي إلى المنديل ، فأخذت أطويه على الرسخ وأجعل الوجه النظيف إلى الخارج ، فما أن أتم طويه حتى ينبت العرق من جديد فأضعه فوق العرق فيتلون بالأزرق النيلة ، فداخلني شعور بـالاكتئـاب مصدره الخوف من حرس المعز واشتباههم في مظهري وربما يأخذني البوليس تحرياً وتكون . . مش ظريفة . استندت إلى باب الزهومة ورحت أملس عليه بيدي ، وكان لا يزال عفياً قوياً لم يدخل بعد في مرحلة الأثر ، وراح الكل ينظر إليّ في استرابة وأحياناً في استطراف . وقال ولد مكاري : لا بد أنه من الصليبيين . وقال بائع كرشة بعـربة : هـو من الترك يـا

عبيط ، قالت بائعة عابرة : قل من الديلم ، فزغدها شيخ عجوز ببوز عكازه ثم برطم : ترك وديلم وزويلة وفرنجة وفرس لم تعد تعرف من أين هذا ومن أين ذاك . توقفت البائعة رغم الزحام وجنحت نحو الشمال فصارت في مواجهة العجوز ومواجهتي كذلك ، يا إلّه العالمين ليس هناك أجمل من هذا ، دم تركي أو فرنسي أو رومي أو فارسي أو قوقازي أو حبشي ، أغلب الظن أنها مزيج من كل هذه الدماء ، وأغلب اليقين أنها تنحدر من إحدى الجواري القديمات ومن صلب أحد الأمراء ربما. نظرت إليَّ ببأس شديد وقالت: مسكين، خطفه أحد تجار الرقيق منذ قرون طويلة وتاه منه ، ألا زلت تائهاً يا حبة عيني ؟ لا تحزن فسرعان ما تجد لك بين هؤلاء القوم مخدعاً ورغيفاً، آه من هذه المدينة العجيبة القاسية الرقيقة في آن، لكأنهم جميعاً تجار رقيق، وكأنهم جميعاً رقيق في نفس الآن ، يظنني هذا العجوز جاهلة أو مجرد ابنة ليل ؛ أعلم يا عجوز النحس أنني ابنة نهار كذلك فضلاً عن انني قرأت الكتاب وخططت في الكراس . . كل الملوك والأباطرة كانوا في الأصل رقيقاً ومماليك وانتزعوا السلطة بسواعدهم ودسائسهم ومؤامراتهم ، يصبحون مصاصي دماء ؟ . .

عوج العجوز شفته السفلى في قرف وهز عكازه قائلاً : اغربي عن وجهي ايتها الشيطانة ، إذهبي إلى دارك في بركة الرطلي أو في أي داهية . فانعوجت هذه برشاقة وقالت : داري هي القاهرة كلها ، مثلما تنام أنت في أي مسجد من مئات المساجد المفتوحة ، أنام أنا في مئات العيون المنبهرة بجمالي ، واستكن في مئات الصدور المشفقة على أمري ، ذلك أن أمري من أمرهم وأمرهم من أمري فما أحلاك يا أمري ،. ثم أنها استدارت بتماوج الضوء على فستانها الثمين وغابت في الزحام ، فنهرني العجوز قائلاً : اسمي . . اسمي . . فلما وجدني غير عابىء به هز العكاز في وجهي ومضى يبرطم حتى اختفي ، فكأنما إذن لبقية المشهد بالإختفاء ، ولم يكن قد بقي في نظري شيء لبرهة سريعة جداً كانت رأسي خلالها تصدح باصداء أصوات عذبة تغني موشحات أندلسية غامضة . . فلما فتحت عيني من جديد وجدتني استند على بوابة باب الزهومة ، لكنه كان مجرد أثر ، وكانت خريطة الواقع الذي أعرفه تنطرح أمامي شيئاً فشيئاً

لأجد أمامي كوعة الحارة التي توصلني بعد خطوات إلى مسجد الحسين .

اجتزتها مترنحاً وقد كرهت الحقيبة من ثقلها . اصطدمت بإبراهيم منصور ممسكاً عصاه العوجاية ومعه اثنان من المثقفين الأجانب يشرح لهما شروحاً تحتاج بدورها إلى شروح . رغبت في الزوغان منه بسرعة خوف أن يطالبني ـ أمام الأجانب ـ بخمسة جنيهات قرض على اقتراضها في لحظة لم أكن في حاجة إليها قط ، ولهذا أكره أن أردها بسهولة . من حسن الحظ رأيت عبد الرحمن الشرقاوي مرتدياً القميص والبنطلون والشبشب ويمسك مسبحة صغيرة ويهرول في ورع نحو مسجد الحسين ، فجريت نحوه هرباً من الجنيهات الخمسة لكن إبراهيم جذبني بعصاه فسمرني في مكاني ، وصار يطول ويقصر ، ويشوح بمنتهى العصبية ، ويتفتف مرسلاً الكلام في جدية ، قائلاً أنه اكتشف مقهى شعبياً غاية في اللطف والجمال ، وأنه يقع ها هنا ـ وأشار إلى المجهول . قلت أين بالضبط حتى أحسب الخطوات ؟ . قال في «العطوف» . قلت لا بأس بالعطوف ، أن هذا الحي المجاور لحي الجمالية كان في الأصل مسكناً لخدم القصر ، وقد سمي الحي باسمهم نسبة إلى الخادم الأكبر « عطوف » . وقلت لإبراهيم : يمكنني دخول القصر من باب الخدم . فقال إبراهيم : إذن تكون قد عرفت طريقك الحقيقي ، ثم ترجم النكتة للأجانب فضحكا ، أما أنا فلم أضحك ربما لأن النكتة أصابتني في القلب ، لكنني انتويت أن أبخل عليه بمعلومة كنت أنوي تزويده بها ، ذلك أنه أنضم إلى عشاق سيرة القاهرة منذ بدأ يعد كتاباً عن نجيب محفوظ وأخذ يحقق الأماكن التي تربى فيها . .

ثم أننا توغلنا في حي العطوف ، وإذا إبراهيم يعرف المعلومة التي حرصت على عدم إذاعتها ، وإذا بالأجنبين يعرفان أكثر مما نعرف كلانا . كانت البيوت الحديثة تتجاور مع اليوت القديمة في تناسق بديع ، لكن البيوت القديمة كانت تبدو هي الأصل والعمائر المجاورة لها تبدو كالحلفاء والأعشاب المتسلقة على الأشجار العتيقة .

ارتد إبراهيم فجأة ونظر في حارة موصلة لحي بيت القاضي كنا قد تجاوزناها ، ثم عاد بعد برهة وقد زعم أنه « أختيل » بنجيب محفوظ يجلس على

مقهى يدخن الشيشة وحوله رهط من المعلمين تجار الفراخ والجزارين وعلية القوم ، وأن قعدته ـ لا بد ـ ستكون حافلة بأطايب النكت والدخن ، ثم أراد أن يستأذن ولو لإلقاء السلام عليه فلا يصح أن يراه ويتصنع أنه لم يره ، واختفى في الحارة يدب بعصاه كمحارب ضال . ووجدتني وحدي مع أثنين من الخواجات ينظران إليّ في استجداء الكلام فلا أحن عليهما بحرف ، أنقذني منهما « ابن عبد الظاهر » صديق مؤرخ غربي كبير سوف أعرفكم به فيما بعد ، أهلاً يا عبد الظاهر ، أهلاً يا أبو شلبي أيه أخبارك ؟ بخير والحمد لله ، رأسه وألف سيف أن يعزمني على نارجيلة مع القرفة قلت لو لم يكن سريع الحلفان ، هيا بنا ، و . . ما تتفضلوا معانا يا خواجة . . مرسي حبيبي . . ثم ملست منهما . . وقادني ابن عبد الظاهر ، فإذا بنا وسط حي من أجمل مساكن القاهرة ، فيه من الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد ما لا يدخل تحت حصر، كل سكانه سمر الوجوه تبدو عليهم العظمة والأبهة حتى السابلة فهم يعيشون في اعتزاز لطيف . قال « ابن عبد الظاهر »:

ـ أنهم عائلة عطوف وأهله وأقاربه .

قلت : ومن عطوف هذا على الحقيقة يا ابن عبد الظاهر ؟ .

قال : هو عطوف غلام الطويلة أحد خدام القصر ، بالتحديد خادم ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ابن ابن المعز لدين الله ابي تميم معد . .

ثم غمزني « ابن عبد الظاهر » فانتبهت ، فإذا بموكب حافل من التشريفاتية والحرس يتثالون على الشارع قادمين من عطفة ذات شكل خاص ومتميز . كالقطة انشبت أظافرها في جدار البيت المجاور وقذفت بنفسي إلى مشربية جميلة وقفت عليها ، فتمكنت من رؤية باشا أسود الوجه . قصير القامة « نعم لا أقل من سعادة الباشا ، يرتدي حلة بالقصب وتتناثر منها بقع الضوء المصفى ، والروائح العطرة تسبقه ، وهو يمشي في تؤدة عظيمة ورهط من الأهل والسابلة يتبعونه بالإبتسام وحتى الرأس في تفاخر . أشار لي « ابن عبد الظاهر » فنزلت إلى الشارع ومضينا خلف الباشا الأسود و « ابن عبد الظاهر » يقول : هذا هو عطوف وهو متجه الآن نحو القصر . مشينا في كعبه . جاءني زخم أزمنة

قريبة ومعاصرة ، حتى لقد أندهشت أن يصبح للواقع المعاصر شيء من عراقة في ظل هذه العراقة الصرفة ، قلت لابن عبد الظاهر ونحن ندخل من بوابة هائلة : ما اسم هذا الباب ؟. قال : هذا باب الساباط ، من الرسم أن يذبح في باب الساباط مدة أيام النحر وفي عيد الغدير عدة ذبائح تفرق على سبيل الشرف ، وفي سنة ستت عشرة وخمسمائة بلغ جملة ما نحره الخليفة الأمر بأحكام الله ، وذبحة خاصة في المنحر وباب الساباط ـ في ثلاثة أيام ـ ألف وسبعمائة وست وأربعون رأساً . . ومن باب الساباط هذا يدخل إلى من حوته القصور وإلى دار الوزارة والاصحاب والحواشي اثنتا عشرة ناقة وثماني عشرة راس بقر وخمس عشر رأس جاموس ، ومن الكباش ألف وثمانية راس ويتصدق كل يوم بسقط ما يذبح من النوق والبقر .

قلت لابن عبد الظاهر أن زخم الزمن الملتصق بي أو القادم معي يكاد يظهر في الحال ، فأنا الآن اشم رائحة مكان الخرنفش . وقال ابن عبد الظاهر أن القصر الغربي ممتد إلى هناك ثم نظر في بوصلة أخرجها من زنبيله المعلق فوق ظهره ، قلت كم الساعة الآن ؟. قال الساعة الآن مساء الأحد لإحدى عشرة خلت من سفر سنة إحدى وأربعمائة . .

لحظتها اجتزنا ممراً مبلطاً بالرخام الأصلي المعتبر وعلى جانبيه أشجار الموز والحناء وأنواع من المزروعات لا أعرف لها أسماً ، إنما كانت الجدران الرخامية القصيرة والعالية تغوص كلها في أنواع شتى من الفروع المزهرة تتخللها شبكة من أشعة الشمس والضوء الفضي ، وفي امتداد البصر أشجار وأفرع لا نهاية لها تختبيء بين ظلالها قصور متباعدة متقاربة . . قلت ما هذا يا ابن عبد الظاهر أفي الجنة نحن ؟. قال صوته من مكان بعيد : أنسيت أن بستان كافور دخل ضمن القصر الغربي الصغير ؟. قلت ولكنني كنت أهدف إلى القصر الشرقي الكبير مقر الخلافة الفاطمية حيث أنا مدعو للإفطار على مائدته . قال ابن عبد الظاهر أنه سيتعهد بتوصيلي بعد ما نزور « ست الملك » في جناحها لأمر هام ، فهذا القصر بناه العزيز بالله نزار أبو الحاكم بأمر الله لتسكن فيه ابنته « ست الملك » الشقيقة الكبرى للحاكم ، ثم اختفى صوت « ابن عبد الظاهر »

فجـأة ونظرت حـوالي فلم أجد لـه أثـراً ـ فـأرتعـدت ، وخفت من المنـاداة أن يكشفني صوتي ، وأخذت أضـرب في القصر البستـان أو البستان القصـر خبط عشواء . انبث ضحك نزق من مكان مجهول أفزعني وانتفضت ، فرأيت نفسي أمر على شرفة تطل على نـافورة تحـوي عدداً من الأشكـال الحيوانيـة كلها من الرخام تنفث المياه في حوض عظيم من المرمر الملون ، من الشرفة تطل بـاقة من الوجوه الحسان ، كأنها زهرات ورد متراصة على أغصانها الممتدة في أعماق بعيدة ، وإذا بإحداهن أمامي تعترضني باسمه في رقة . . أأنت قصـري مثلنا ؟ قلت مـا معنى قصـري ؟ قـالت : من خـدم القصـر . . قلت نعم أنـا أحـدث خصيانه ، فضحكت وضحكن من خلال الشرفة فقلت لها من انتن ؟ . . قالت : جـواري ست الملك وعددنـا ثمـانيـة آلاف جـاريـة . فشهقت ، وشهقت هي الأخرى ثم فرت مذعورة هـاتفة : الحـاكم بأمـر الله وصل . فـانبطحـت أرضاً وصرت أزحف على بطني كثعبان غشيم ، واخترت من سـور الحوض مـا يشبه لوني وداريت نفسي في ظله ورحت اراقب الحاكم ، كان خارجاً من بوابة تشبه فـوهة الكهف لكنهـا تحمل طـابع القصـر ، فحفظت شكلهـا وموقعهـا جيداً ومـا أن صـار الحـاكم في مـدخـل جناح على اليمين حتى كـان في لقـائـه « عطوف » الأسود . انحنى في تبجيل سلطاني فصرفه الحاكم بإشارة سلطانيـة من أصبعه فأوسع له الطريق ومشى خلفه ، لكن الحـاكم توقف فجـأة واستدار ناظراً إليه مفتعلاً ابتسامة كأنه يصرفه بها ، فبالغ الخادم « عطوف » في الخضوع لـلأوامر السلطانيـة ولكن في شيء من الكلاحـة واصل السيـر وراء الحـاكم ، فتوقف الحاكم للمرة الثانية وضرب بقدمه في حنق ، فارتد « عطوف » إلى الوراء وأخذ يتقهقر ، وكنت قد انتهزت هذه الفرصة وقفزت على الحائط المجاور لسير الحاكم كأنني طيف من زمن مقبل ، تابعته إذ يصعد السلم المرمري إلى جناح تشقشق فيـه العصافيـر.وتنبعث المـوسيقى الحـالمـة ، ستـائـر المخمـل تغلف الجدران بالسحر أشباح حراس تتجسد بين الستائر وبعضها على الجانبين ، فما أن وصل الحاكم إلى حجرة في المنتصف تنحنح فانبعث من باب الغرفة ضـوء مبهـر سرعـان ما تجسـد في « ست الملك » زاحفة نحـونا كـالظبي ، في نبـل

كبير . . استقبلت الحاكم بابتسامة كأنها بسمة الدنيا ، فهز الحاكم رأسه في تفخيم سلطاني ، فعرفت أنه يؤدي طقساً يومياً وأن بينه وبين ست الملك علاقة ود خاصة ، ثم أنه استدار عائداً من حيث أتى ، تفرست فيه فوجدت عينين زرقاوين حادتي البصر ، ووجهاً مستطيلاً حاد الملامح قاسي التعبير . . مشى ثم اختفى في باب سري عجزت عن تحديده ، لكنني سلكت نفس الطريق التي جئت منها فإذا بي في دهاليز القصر وجهاً لوجه مع الخادم ـ أقصد الباشا الأسود « عطوف » وكان يمشي في اتجاه البستان الكافوري حين انشقت عن مجموعة من القصرية ـ أي خدم القصر بمختلف أنواعهم ـ مسلحين بالسيوف ، فصنعوا دائرة من الأسنة المسنونة حوله فعاقوه عن السير فتقدم أحدهم واجتز رأسه فتلقفها آخر ولفها في ثوب أسود ثم تقدم اثنان وحملا جثة « عطوف » واختفيا بها تماماً ، ثم اختفى الجميع . .

أخذت الهث على الحوائط كضوء ينداح أمام درفة شباك تنغلق . وكان البستان يمتلىء بآلاف النجوم الخاصة به وحده ، على هديها وصلت إلى البوابة التي تشبه بوابة الكهف ، وحين واجهتها كان يفح منها ظلام ، ولكن حين اقتحمتها وجدتها مضاءة بعشرات الثريات واصص الزرع منتشرة على الجانبين وإذا بها طريق طويل وحافل ، متجدد الهواء ككورنيش الإسكندرية . . فعرفت أن هذا هو السرداب السري الذي يمتد تحت الأرض ليوصل بين القصرين وكان الخليفة يسلكه راجلاً أو راكباً حسب المزاج إذا ما أراد التنزه على شاطىء خليج أمير المؤمنين الذي هو في عصرنا شارع بور سعيد . .

من فرط الأمان والسحر وددت ألا ينتهي السرداب ، ولكنه كأي شيء في الدنيا لا بد وأن ينتهي . . فإذا بي في داخل القصر الشرقي الكبير بماشرة ، فما أن بزغت برأسي من فتحة البوابة حتى دوت صفافير الإنذار ودبدبت في الأرض أقدام الجنود . وكان السرداب قد أمدني بطاقة معنوية سلطانية مكنتني من الوقوف أمام الجند في عظمة متقنة ، وبإشارة من أصبعي أشرت إلى واحد يبدو وكأنه كبيرهم وأمرته أن يصرف هؤلاء الجند عن طريقي ، ثم قلت بلهجة الذي يعرف ويدعى أنه لا يعرف : « فيه أيه . . عشان أيه ده كله ؟ » يا سيدي نحن

في حالة طـوارىء » لقد استـولينا على القصـور المعزيـة كلها . . ونقـوم الآن بعملية جرد لكـل محتويـاتها من الأثـاث والثياب والأمـوال والجواهـر والنفائس والعبيد والجواري ». قلت في نفسي بضيق : « يـا ربي . . هل جئت لأحضـر افتتاح القصر فأحضر خرابه !» ثم قلت لكبيـر الجند بلهجـة جهدت أن تكـون مستنكـرة : « لكن من انتم ». قـال كبيـر الجنـد في شيء من الإستنكـار والتشكك : نحن جند مولانا السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ، الذي أمر بمصادرة القصور الزاهرة وإجلاء نسل الفاطميين عنا » . قلت فيما ازوم وأهز رأسي : « هه صلاح الدين الأيوبي . . هذه إذن هي الدولة الأيوبية ». هز قائد الجند رأسه ، فابتسمت له قائلاً : « إذن فلم أنه . . ثم أذهب بعيداً . . الدولة الأيوبية ما أقصدهـا . . أوسع لي » ـ فـأوسع لي في الحـال ولكنه استفسـر في أدب : « حضرتك مين ؟ » فقلت له مع التفـاته بسيـطة : « أنا واحـد من لجنة الجرد التي جاءت تستلم القصر « فانحنى قائد الجند حتى كاد يلامس الأرض ، ولحق بي هـامساً في تـودد كبير : « مـا أوصيش سعادتـك . . ولو خـاتم بفص للذكرى . . فهززت رأسي موافقاً وقلت له : قوي . . أنا تحت أمرك . . ربنـا يسهل :

الفصل الثالث

الموت جوعاً أمام بوابة الذهب

وجدتني في متاهة عظيمة ، حيث كنت أتصور أن القصر قصر واحد فإذا به مجموعة قصور لا نهاية لها ، وأن أصدقائي الذي تحدثوا إليّ عنها لم يبالغوا حين أطلقوا عليها اسم القصور المعزية أو القصور الزاهرة .

مررت بعسكري أيوبي واقف في استرخاء ، مـا أن رآني حتى انحنى في تبجيل وقال : « من هنا يا سعادة البيه »، فكـدت استديـر إليه قـائلاً ؟. « أيش عرفك أن أنا بيه يا ولد ؟». لكنني مضيت حيث أشار فوجدتني أشرف على باب كنت لحظتها أراه من الجنب ، فلما استدار بي الطريق وجدت بوابة لا تقل من أن تكون بوابة الشمس نفسها أو بوابة جهنم أو لا فلعلها بوابـة من سنابـل قمح منصهر ، وكان يخيل إليّ أنها على مرمى حجر فإذا بها على مرمى طائرة نفاثة ، وكنت كلما اقتربت منها قطعت أشواطاً طويلة دون أن يبدو تفصيل جديد ينبىء عن أنني تقدمت ، ولا بد أن الأرض تنسحب من تحت قـدمي ما أخـطوه أول اللحظة في آخرها . هو طريق طويل طول الزمن الأبدي ، كغيره من بقية الطرق العصرية مليء بالحفر والمطبات والأبار والمجاري ، فضلاً عن التراب والروث وما اشبه ، حتى وأنت داخـل القصور المعـزية الـزاهرة حيث الأرض مفـروشة بسجاد أخضر من حشائش ونبات نادر تستحيل هـذه الجنة المـزهرة في طـريق الزمن أو زمن الطريق طريقاً مصرياً حافلاً ـ ولا فخر ـ بكل الحفر .

غريبة هذه الحفر التي في طريق الزمن ، عثرة صغيرة جداً هبطت بالبوابة هبـوطاً ملحـوظاً كـأنما تغيب في بـطن الأفق . في نفس البرهـة خرجت رأس

ضاحكة تبينت فيها رأس صديقي « ابن عبد الظاهر » قال : حاسب يا جدع . . تأخذني في وجهك وتدب ! . قلت ما معقول من أرى بحق الله ؟ قال هو القاضي الرئيس محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر الروحي الكاتب . قلت من فرحتي : أهكذا يا راجل تتركني في القصر الغربي الصغير وتهرب ؟ . قال : لم أهرب ولكنك من عجالتك تقفز الخطوات سريعة هوجاء الست محقاً حين أقول أنك أنت الذي هربت مني ؟ الزمن يا صديقي مثل المكان مليء بالأروقة والأبواب والنوافذ والفراغات الهائلة . وفراغات الزمن أشد هولاً من فراغات المكان ، ففراغ المكان براح أحياناً ولكن فراغ الزمن خواء وجدب وخراب لأنه لا شيء فيه قد حدث . . لا بناء فيه قد بنى .

وكان قد صار يتضح شيئاً فشيئاً فلا أعرف إن كان هو يبزغ من أرض المسير أم أنها هي التي انحدرت بي نحوه ، لكن البوابة كانت لا تزال تصبغ الفضاء بلون الأصيل . أشرت إليها وقلت : أهي بوابة الشمس يا ابن عبد الظاهر أم بوابة السنابل ؟ . تبسم قائلاً ما هذه إلا من تلك ، ولكن أعلم أنك مقبل على بوابة باب الذهب أحد أبواب القصر الشرقي الكبير الذي لقب بقصر الخلافة الفاطمية . . هو الباب الرئيس للقصر تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة .

قالها وراح يحك ويتساند على عصاه ويسعل في منديل كبير أنيق ، ويعتذر قائلاً أن رائحة الدخان تخنقه ، ولما لم يكن هناك دخان إلا ما تركه التدخين على صدري ورئتي فإنني قلت : دخان ماذا يا ابن عبد الظاهر ؟ . فقال : هو دخان قادم من فترة زمنية مقامة على مبعدة قليلة كمدينة صغيرة ، منها بدأ تدخين أنواع من الأعشاب والعطارة ينتشر في الديار المصرية . وقلت له فلنبتعد قليلاً ، وجذبته إلى الوراء جذبة قليلة فإذا به يتلاشى كما يتلاشى الشبح في برهة وجيزة . وإذا ببوابة الباب الذي قيل أنها باب الذهب مجرد باب غاية في الأناقة لا تزال رتوش الصناع والنقاشين واضحة عليه ، ونظرت فإذا بقافلة من الجمال المحملة بالطواحين مقبلة من ناحية أم دنين تخترق البستان الكافوري متوجهة نحو القصر الكبير ، وإذا بقوافل أخرى من الجنود المغاربة تنتشر في

المكان وعلى مرمى البصر ، وإذا بالقائد « جوهر الرومي الصقلي » يتقدم بفيلقه ويقبل الأرض بين يدي رجل لا أعرف كيف ظهر وهل كان راكباً أم راجلاً إنما رأيته محاطاً بكوكبة من الإعلام البيضاء والمهابة العظيمة ، ورأيته يبتسم في امتنان ويحرك شفتيه بكلام لم اتبينه . اقتربت من جندين متقاربين يشبكان يديهما في بعضهما وأظهرت الود على وجهي وسألتهما : « هو فيه أيه ». فاشاحا عني بغلظة ولكنني فهمت أن هذا هو المعز لدين الله الفاطمي أبي تميم معد وأنه يدخل الديار المصرية لحظتئذٍ وهذه أول نظرة يلقيها على القصر الذي انتهى وقائده جوهر من بنائه له . قلت : بس . . هذه فرصتي . . أخيراً عثرت على اللحظة التي أبحث عنها . . ها هو ذا الخليفة قد وصل ويمكنني أن أدخل لتحيته واعرفه بنفسي وقطعاً سيشرح صدره بوجودي . وصرت أبحث عن منفذ بين الجند ولكنني كنت بالكاد أستطيع البقاء في المشهد حيث أنا من فرط الاستحكامات ، لحظتها كان المعز يقذف بصره نحو الجامع الأزهر الذي ـ بالكاد أيضاً ـ أزيلت عنه معدات البناء فصار لامعاً في قرص الشمس كالأرجوانه الكبيرة وإن كان ابن شلبي لم ير هذه الأرجوانة في حياته ولا يعرف ما هي على وجه التحقيق . .

ثم أن المعز أبي تميم معد لما ملأ نظره من الجامع الأزهر أشار إلى قافلة الجمال التي بلغت ما يقرب من خمسمائة جمل محملة بالطواحين. ففي الحال أناخت الجمال وتسلقها الولدان وفكوا الحبال عن الطواحين ثم اندفعوا يفتحونها وينشرون منها سائلاً أصيلياً ، فتحات الطواحين ـ أو الأرحية ـ تسكب ادقاقاً من هذا السائل المصفى ، صحت من جنوني : ما يكون هذا بحق الله وآل البيت ؟ حينئذ عطف على جندي مغربي فنظر في وجهي من فوق كتفه قائلاً : أيه . . ذهب . . ما تعرفش الدهب ؟. قلت : « يا خبر اسود . . يسكبون الذهب على عتبة الباب هكذا كأنه الأسمنت ؟». فتبسم الجندي المغربي مرة أخرى وغمزني غمزة تهديد أن أنصرف قبل وقوعك في قبضة الحرس ، لكنني لم انصرف ، بل أخذت أحاول الإقتراب من هذه البوابة العظيمة لعلني الحق بركب المعز الذي دخل بالفعل واختفى بالداخل . فرأست البوابة وقد اكتملت وصار لها عضادتان

من الذهب وأرضية وعتبة وسقف مكفف بالذهب . .

كان منظرها جذاباً جداً ولم يكن يظهر في المشهد كله شيء سواها . . أردت أن أملأ نظري منها وامتلىء بها فأخذت أسرع الخطو ثم أسرع ثم أهرول كأنما تجذبني بقوة ما فيها من بهجة ، وكلما خيل إليّ أنني اقتربت أكثر اتضحت فيها تفاصيل تقنعني أنها لا تزال بعيدة . ثم أنني امعنت في الإقتراب قدر الإمكان وكان ميدان بين القصرين قد بدأ يتضح ، والناس تمشي في تكاسل وتخاذل وتلصص ورجال محترمون يشمشمون في الأرض وينحنون لالتقاط أشياء يقذفون بها في أفواههم وبلوكونها في سأم وقرف ، ونساء يخفين في صدورهن اطفالاً صغاراً ، وولداً ينحت في قطعة من الطين . . فقلت ما هذا يا ربي ؟ ونظرت في ساعتي فوجدت أنني دخلت في زمن الخليفة المستنصر بالله ، فأكتأبت من هذه العثرة ولكن قوة ألمت في عقلي احتملتها . . لا مفر إذن من رؤية الشدة المستنصرية . يا إلهي ما هذا ، الظلام يعم شيئاً فشيئاً وأشباح تتسلل من كل ناحية وتنتهك حرمة القصر وتتوقف عند البوابة الذهبية متلصصة تتصيد بعضها البعض ، شبح في حالة انقضاض رهيب على فريسة يقع هو نفسه في قبضة مجهولة ، الأجساد تكر على الأرض متأوهة عارية أو فاقدة النطق ، ثمة من يحملون مبارد يقطعون بها قطعاً من عتبة البوابة ومن إحدى عضادتيها ، كلهم مسلحون باسلحة القصر فلا بد أنهم جميعاً حرسه ، ينداح الظلام قليلاً ثم يشتد قوام الضوء فإذا الأشباح في ملابس الحراس ، يقبضون على جثث القتلى ويقدمونها للتحقيق . مئذنة الجامع الأزهر تصدح بأذان الفجر ، يتلاشى صوت الأذان كالخواء المكسوف ، كصوت مستعار ، يغسق الضوء ثم ينفرج عنه الخناق ، يقبل الخليفة المستنصر بالله يحف به الحرس وتسبقه البسملة . يتوقف حزيناً عند البوابة ، ينظر إلى شخص خلفه مباشرة « قتال دار مع الحرس من أجل البوابة . . دعوا الناس يبردون ما يشاؤون . . الأفضل أن يبرد كل واحد قطعة صغيرة حتى يجد الكل قطعاً يبردونها » ينحني كبير الحرس ، يستأنف الخليفة سيره ، يختفون . . ينتشر الضوء وتتوهج الشمس في ميدان بين القصرين ، يمتلىء بالبشر يحملون بأيديهم المبارد من

مختلف الأحجام ، يندفعون نحو بوابة الـذهب ينهالـون عليها بـرداً وتقطيعـاً ، أفواج أخرى تقبل بمبارد أكثر طولاً وأشد غلظة ، يدفعون من قبلهم دفعاً عنيفاً ، يتسلقون البوابة كالبهلوانات ويصنعون من أكتاف بعضهم البعض سلالم يرتفعون فوقها إلى أعلى العضادة ، يبردون يقطعون الـذهب ، أفواج ثـالثة تنـدفع نحـو البوابة غيلان ، وإذا بالمبارد في ايديهم آلات حادة ، وإذا بها تبرد في الرجـال وتقطع في رقابهم . . يرتفع دوي الهدير الصارخ المجنون ، يختلط لون الدماء بلون الوهج الذهبي بلون الشمس ، تصير البوابة كـوجه عـروس شوهتـه خيوط الدمع الغزير وشلفطت رتوشه . زمارة الخطر ترتفع ، فيالق الحـرس تنطلق من كل حدب وصوب . . صوت باسم الخليفة بأمـر بحمل بـاقي الذهب ـ وكفـاية كده ـ إلى داخل القصر ، منظر البوابة يأخذ في الشحوب .

صوت أمعن في الإقتراب بدافع من الشفقة هذه المرة . بعد ما كانت في مـواجهتي تمامـاً صارت بجـواري ولكن مواجهتهـا كانت ميسـورة . غيـر أني فوجئت بجمع كبير جداً من أولاد الناس الذين يبدو عليهم الاحترام وأنهم عزيز قوم ذل ، يقف في انكسار وذعر وإن كانت العيون تعكس يأسـاً وتبلداً ، كانـوا كـالمقبوض عليهم في قضيـة خـطيـرة وأنهم من أربـاب السـوابق الخـطرين ، يحاصرهم الجند في احتراس ، حاذيتهم ، فرأيت في العيون دمعاً غـزيراً وفي الوجوه ألماً دفيناً ، مصمصت بشفتي محاولاً التكهن بجريمتهم النكراء . أخذت أحوم حولهم وقد تصورت أنهم ربما كانـوا وفداً من السيـاح الأجانب من قـارة بعيـدة وأنهم في انتظار عـربة الشـركة السيـاحية . همست في إذن أحـدهم : « جبت بقشيش ؟ » فنـــظر في وجهي ثم ابتسم . ذهبت لآخـر لاحــظت أنهم منقسمون إلى فريقين : النساء في جانب والرجال في جـانب آخر . ولم أجـد لـذلك معنى . تقـدمت من سيدة رائعـة الحسن تقف ملامـح وجهها في الحـد الفاصل بين النبالة والسوقية ، لكنها النبالة التي تشعرك كأنها سوقية فتكون أكثر جذباً ، قلت لهـا : « جبت بقشيش ؟ » فظلت تـلاحقني بنفس النظرة التي من فرط سوقيتها تدعوني للتطاول عليها ومن فرط نبالتها تحـذرني من أي تطاول . انتقلت لأخرى ، حاولت أن أكون جاداً ، وكانت نصف عجوز ونصف صبية ،

لكنها ما أن رأتني مقبلاً نحوها حتى فتحت حافظة نقود جلدية ثمينة ومطعمة بفصوص الماس والذهب ، وأخرجت قطعة من القروش الذهبية ، دستها في يدي ، فحركت اغرائي وقلت لها يتطجين واضح ، فستان فلاحي فضيات . . خان الخليلي بين القصرين جامع قلاوون الأزهر . . أي خدمة محسوبكم مرشد سياحي معتبر ، فلم تكف العجوز عن النظر إليّ بابتسامتها العذبة ، وباهتمام تساءلت عن معنى ما قلت . فزعمت أنني مرشد سياحي وأنني استطيع أن أفرجهم على خان الخليلي والغورية وغيرهما . قالت ما معنى خان الخليلي ؟ قلت لها فوقك مباشرة بأربعة أو خمسة طوابق من الزمن حي بأكمله اسمه خان الخليلي كان في الأصل مكاناً لفندق بناه رجل يدعى الخليلي ، وبجواره تماماً توجد الغورية فوق هذه البقعة . فهزت الولية رأسها في يأس وتنهدت . ثم أن الذهر دب فيها فجأة بينما رحت أنا اعدهم ، فإذا بهم مائة وثلاثون وخمسة وسبعون طفلاً . قلت بالله ما الذي يوقفهم هكذا ؟ فلما نما الذعر بينهم نظرت إلى بعيد فوجدت مخيماً قد أعد على عجل ، ورأيت رجلاً يرتدي زي العسكر ولكن بشرائط ونياشين لا حصر لها ، كان تخيناً وطويلاً وغليظ المنكبين ولكنه نحيل الوجه صارم الملامح كان وجهه جلد طبلة مشدود ، وكان يمشي خلفه عدد من العسكر الأقل رتبة ومن خلفهم جماعة أقل رتبة وهكذا .

همس طفل كبير وهو ينتفض في ذعر : الطواشي : فأنتقلت عدوى الذعر إلى بقية الأطفال فصاروا يرتعشون ويبكون ، وتحرك الألم على الوجوه كما فاضت الدموع في العيون . تقدمت نحو الطفل الباكي وكان يبدو عليه أنه أمير صغير وأنه لا يزال يتصور أنه أمير . قلت له : ماذا يبكيك يا شاطر ؟ . . بس ما تعيطش . . مالك فيه أيه يا حبيبي ؟ « فأشار بأصبعه الجميلة إلى أعلى قائلاً : » الطواشي . . سوف يقتلنا ؟ قلت له : « طواشي مين ؟ ». قال : « ما تعرفش الطواشي ؟». . بهاء الدين قراقوش . . ما تعرفوش ؟ « قلت وأنا أحاول إمساك ساقي من الرعشة : « تقول قراقوش ». قال : « نعم وها هوذا . . ألم تره ؟ » قلت فاغر الفم : « هوده قراقوش ؟ ». قال الصبي : دا أيه ما شفتوش قبل كده ؟ » . قلت : « شفته مرة قبل كده ». قال : « أين ؟ ». قلت : « في مسرح

الريحاني ». فنظر إلى الطفل في حيزة ، لكنني عاجلته قائلاً : « لكن انتوا مين بالظبط ؟ » قال بكل ثقة وبساطة : « إحنا أهل العاضد لدين الله . . البطواشي بينفذ أمر صلاح الدين الأيوبي ». قلت له : متخافش يا ابني متخافش دا الطواشي دي راجل طيب وابن حلال ». ثم نظرت في ساعتي فوجدتني في يوم عاشوراه سنة سبع وستين وخمسمائة .

وقلت لنفسي في غيظ : « أن قراقوش هذا قاس . . كيف يطردهم إلى مثل هذا المخيم خارج القصر كأنهم رعاع ! ». ثمَ اندفعت إلى داخل القصر أتراقص بين الشعور بالخوف والشعور بالقوة . وإذا بالطواشي قراقوش يقبل نحوي في خطو عسكري رشيق ، فلما أقترب مني ظهر على ملامحه كثير من الصلف والعجرفة وبدا كأنني لن احتمل أكثر من سحقه صغيرة من إحدى قدميه ، فرسمت على وجهي كل الصلف والعجرفة الذي تعلمته من وجوه الزعماء الأمريكان الذين أراهم في الصحف كل يوم ، « ووضعت يسراي في جيب بنطلوني وتركت الأخرى تهتز بالحقيبة السمسونيت ، وقلت كأنه النكرة وأنا العلم الذي في أعلاه نار : « أين ـ من فضلك ـ الطواشي بهاء الدين قراقوش ؟ » صراحة اعتز الرجل وكاد يقع من طوله . لعله خاف من حقيبتي السمسونيت ولعله خاف من صوتي أو ملبسي الله أعلم . لكنه قال في رقة وخضوع : « أنا يا أفندم « فنقلت الحقيبة إلى يسراي ومددت يمناي صائحاً متهللاً : « أهلاً طواشي ». « أزيك يا طواشي ». . « ياه والله زمان . . فين من أيام ما شفتك على مسرح الريحاني بيمثلوك ؟ فصارت يد الرجل تهتز في يدي ويهتز معها بدنه كله ، أطلقت سراح يده وقلت بعجرفة :

ـ لماذا تفعل هكذا بهؤلاء يا طواشي ؟

قال الطواشي :

ـ لأنهم رفسه . . كفاهم ما جنوه وما عاشوه وعانوه !

قلت له : ولماذا تعزل رجالهم من نسائهم يا طواشي ؟

قال الطواشي : لكيلا يتناسلوا . . ويكون ذلك اسرع لانقراضهم !

قلت : ما شاء الله . . تالله أنها لعبقرية . . هذه عبقرية الإبادة يا طواشي

قال الطواشي : من أين سيدي ؟

قلت : سيدك من زمن سوف يراك ولا يراك . . وسوف يحبك لأنه يكرهك ! . . وسوف يحييك لأنه يريد إبادتك !

قال : نطقت لغزاً يا هذا . . ثم استدرك مصححاً يا سيدي

قال : سوف يراك باطشاً وقوياً ومحققاً للعدل حتى ولو كان أخرق ولكنه سوف لن يراك في المكانة التي تعلم بها . . وسوف يحبك من خفة ظلك التي تبدت وتتبدى دائماً في بطشك الرهيب الساحق الماحق حتى وإن كنت به تتيح هدوءاً داخلياً لصلاح الدين ريثما ينتهي من تحرير القدس الشريف وهو يكرمك بقدر ما في صلاح الدين من شرف . . ولسوف يجعل منك مثلاً حياً في كتبه ومسرحياته وأفلامه ليقول بك لا يقتدي أحد .

الطواشي سمع هاتين الكلمتين سابت ركبه . قال لي :

ـ ما تتفضل سعادتك . .

شوحت في وجهه :

ـ ما أتفضلش . . أتفضل فين . .

ـ سعادة البيه زعلان من حاجة ؟

هكذا قال « الطواشي بهاء الدين قراقوش » فيما يحاذيني بقليل من الرد ، فما أن اقترب مني هذه المسافة البسيطة حتى رأيت «الوحش» الذي بداخله، وشممت رائحة القوة وشممت أيضاً رائحة الشراسة. لكنني تذكرت في حضرة من أنا وقلت هذا هو منطق التاريخ، وقبل أن أستغرق في الفلسفة كشر عن أنيابه واستثمر رائحة الخوف في وضرب الأرض بقدمه وصرف من تحت ظله من الجند والرتب . والتفت إليّ ليستكمل الأمر بانهاء اللحظة ، لكنه خفف جفاء ، بقوله : « أيه بس اللي زعل سعادتك مننا ؟ ». قلت له : اسمع منه بس اللي زعل سعادتك مننا ؟؟. قلت له اسمع يا طواشي : أتقدر أن تقول لي من هم الذين يحتلون القصر بعد طرد أهله منه هكذا طرد الهوام والمخلوقات الغريبة ؟ . . هه . . أتقدر أن تقول لي . . من الذين سيتحلون مكانهم ؟ » هنا

فقط ارتعش الطواشي وقال لي بكل بجاحة :

ـ أنهم المسؤولون عن النظام والأمن في المدينة . .

قلت وقد انحمقت :

ـ الذين سيسكنون القصر ما أريد رئيس الذين أمروا . .

قال بهزة رأس لطيفة :

ـ أي نعم وهم ما أقصد أنا أيضاً . . هم الذين أمروا بأن يسكنوا هم في القصر بدلاً من بقايا روث الرفضة أولاد الذي والتي . .

قلت له :

ـ اسمع يا طواشي . . أنت كذاب !

بهت الذي كفر . . عاجلته بضربة يدي التي حلمت بها .

قلت له :

ـ عدم المؤاخدة يا طواشي . . أنت طردته وتطرد ذرية الفاطميين وأولاد وأولاد العاضد من قصور أبائهم واسكنت مكانهم أبناء عمومتك .

ضحك الطواشي وصفق بكفه على كفي كأننا صديقان من ألف عام ، وحين سحبت كفي الصغيرة من كفه الكبيرة وجدتها ـ كفي المتواضعة ـ قد التصقت بها عدة أشياء أظنها ورقة مالية وقطعة جوهر . فانشدت خيوط الخجل كلها في جسمي وارتجفت عضلات وجهي وابتسامتي ، وقلت له : « عيب يا طواشي . . تظنني أقبل البرطيل ؟ » هزني من كتفي بعنف ودود وقال : « لا برطيل ولا زفت . . هي هدية بسيطة خصصت للزوار بوجه عام . . نحن ناس نعمل في الضوء . . نحن ناس أن قتلنا نقتل في الضوء . . وإن خوزقنا نخوزق في الضوء ولكن لمصلحة الديار المصرية . . هؤلاء الذين تقول عنهم سعادتك أنهم أبناء عمومتي لم اسكنهم القصر إنما احتجزتهم في الايوان الكبير فقط ريثما تنتهي من ببناء القلعة » قلت له وأنا أضع يدي في جيبي الهدية : « ليكن . . أنا لست أناقشك الحساب لكن دعني أدخل القصر » .

وسع لي بانحناءة قائلاً :

ـ اتفضل سعادتك ، بس أنا معرفش لسه مين سعادتك ؟

قلت له :

ـ أنا عضو بلجنة الجرد في القصر

ووسع لي فدخلت . رأيت الزي الأيوبي منتشراً في جميع الأرجاء والأنحاء ، يمشي متبختراً ما بين خفير ووزير وأمير والأديش . كانت الساعة قد وصلت إلى ثالث عشر من ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة ، فعرفت أن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب قد تسلم القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس . وعند دخولي حضرت تبليغ أول قائمة من المجرودات يبلغها الجارد لكاتب صلاح الدين ، وكانت كما يلي : أغلق القصر على ثمانية عشر ألف نسمة . . عشرة آلاف شريف وشريفة ، وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة وتربية ، ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده . . وكنت قد فهمت عند لقائي بالطواشي أنه قد تم القبض على الأمير داوود بن العاضد ـ ولي العهد وينعت بالحامد لله ـ والأمير أبو الأمانة جبريل وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم وسليمان بن داود وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد وإسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبي الظاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجماعة من بني أعمامه . . وعلمت كذلك أنه اعتقلهم بدار الأفضل من حارة برجاوان .

كنت أعرف أن أمامي بضع خزائن شهيرة شهرة عالمية وعلى أن أجردها، خزانة الكتب وخزانة البنود وخزائن السلاح وخزائن الدرق وخزائن السروج وخزائن الفرش وخزانة الكسوات وخزائن الأدم ـ من فضلك ما تسألنيش يعني أيه الأدم ـ وخزائن الشراب وخزانة التوابل وخزائن الخيم ودار التبعية وخزائن دار التكين ودار الفطرة ودار العلم وخزانة الجوهر والطيب . كل خزانة بناء قائم بذاته ، يمضي الخليفة إلى موضع من هذه الخزائن وفي كل خزانة دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينقلها طول السنة وله أجر في كل شهر .

جاءني مندوب يرافقني في عملية الجرد عرفت أنه برتبة قاض كبير وأنه منوط في النهاية بالصياغات القانونية لمحاضر الجرد والحكم في مسيرتها . سلم

عليّ وسلمت عليه في كثير من الجفاء ـ فهو يحس أنني عين عليه من فوق وفي المقابل أحس أنا أنه ضـائق بي ليستمر الجفـاء متبادلاً ـ ثم مضينـا إلى خزانـة الكتب . أدهشني أنها منظمة وأنها تحتوي على عدة رفوف مقطعة بحواجز وعلى كـل حاجـز باب مقفـل بمفصـلات وقفـل . . . وطلبت سـائتي الف كتـاب من المجلدات فوجدتها كاملة ، منها الفقه والنحو واللغة والحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء ومنهـا النواقص التي تمت ، كـل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة . وذهبنا إلى خزانة الطيب والجوهر ، وكان مرافقي يريد أن يتجاوزها ولكنني توقفت عندها وتسمرت في الأرض ، فإذا بشخص مهيب يجري ورائي قائلاً :

من فضلك . . صلاح الدين الأيوبي منتظرك في قاعة الذهب !

الفصل الرابع

التاريخ للبيع في مزاد علني

إذن فصلاح الدين بن يوسف بن أيوب ينتظرني في قاعة الذهب ، كيف ؟ . . إن كون صلاح ينتظرني في أي قاعة أو أي مقهى أمر طبيعي فهو رجل ليس يعاني من أي عقد نفسية ومن ثم لا يشعر بالضعة حين ألطعه على إحدى النواصي لبرهة . اسمع يا ولد ـ أقول للمندوب : قل لصلاح أنني ساجيء إليه حالاً . . اسمع . . قل به يشرب قهوة أو شاي على حسابي . . وأحذر أن يدفع الحساب . . فلما مضى المندوب خافض الرأس علامة الامتثال لقولي احسست بالإشفاق على صلاح وكدت أرتد عائداً إليه لكني مططت بوزي في اشمئناط وقلت لنفسي جلسنا طول عمرنا ولأجيال بعيدة ننتظر الزعماء في كل مكان ، فلا بأس من أن ينتظرنا الزعماء لبرهة وجيزة . ثم عدت فقلت آه لو أنهم انتظرونا من حين إلى حين لبرهة طويلة إذن لتغيرت هذه الأزمان وتغيرت تبعاً لذلك الأحوال والبلدان لكن كيف ينتظرني صلاح في قاعة الذهب ؟ أن قاعة الذهب الآن مقلوبة رأساً على عقب لسبب وحيد وهو أن سرير الملك وهو من الأيريز الخالص وفيها الايوان بستائر الذهب وفيها عتبة بصمت على أديمها عشرات الآلاف من الجباه مقبلة راكعة داخلة لمحضر الخليفة الفاطمي . لعب الفأر في عبي وقلت لا بد أن ثمة مؤامرة تتم لإبعادي عن مكان الجرد ليتم أمراً ما من وراء ظهري . .

ارتددت بسرعة وناديت : خذ يا ولد . وكان الولد المندوب لا يزال يتلكأ في سيرة نحو قاعة الذهب . فلما ناديته التفت إليّ وفي عينيه نظرة استنكار

مكبوتة ترعى في حديقتها السنة اللهيب ، اقتربت منه فإذا به « قراقوش » بذات نفسه ! قلت لا إله إلا الله من أرى بحق الله ؟ قال من بجلسته : أنا المندوب يا سيدي وقد وقفت عندما ناديتني فماذا وراء النداء هل غيرت رأيك فضلت مقابلة مولاي صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ؟. قلت لكنك « قراقوش » ومتنكر في لباس المندوب ، كخراطيم الإطفاء اندفعت ضحكته تحاول أطفاء اللهب في عينيه فكأنهما عينا شيطان اثيم ، وقال بينما يضحك . أنا يا سيدي لا قراقوش ولا ظفر في قدم قراقوش ولكن اللهم قد بشرتنا بعلو الكعب والمرتبة ، وتفحمت النار في عينيه وفح منهما خبث رطيب وقال : أظنك فضلت مقابلة مولاي . قلت : لا أنتظر يا شيطان ـ شيطان هذا كانت في سري ـ اذهب إلى مولاك وقل له أن المهمة التي كلفت بها تقتضيني البقاء فيها الآن ، ثم شوحت له بيدي وعدت . .

وكنت ساعتها أمر بخزانة الكسوات ، وهي بناء قائم بذاته تنبعث منه رائحة العطور والقماش الجديد والثمين ، تتخلله رائحة عرق طازج . وفود من البشر يروحون ويغدون حول خزانة الكسوة ويدخلون ويخرجون ، كلهم بلباس فاطمي ، فاخر : الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب ، طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ، ومن تلك التي تخلع على أكابر الأمراء أطواق وأساور وسيوف محلاة ، بل ثمة من يلبسون عقد جوهر مما كان يخلع على الوزير عوضاً عن الطوق . قلت : لا . . أنا لا زلت منتبهاً وممسكاً بالزمن في قبضتي ، فكيف تتميز هذه البقعة دون أنحاء القصر بكونها كلها فاطمي في فاطمي بينما بقية انحاء القصر ملابس أيوبية خالصة . ثم قلت لا بد أن هؤلاء من الفاطميين ، بحثت عن أحد أمناء الكسوات لأسأله فلم أجد أياً من الأمناء على الإطلاق ، إنما رأيت من يلبس ملابس الخليفة مقبلاً نحوي ، ما بين الخوف من أن يكون الخليفة بحق والشعور بالهزء ممن يلبسون غير ملبسه تقدمت نحوه وقلت بلهجة ذات معنى : « لكأنك الخليفة بعينه ». فضحك ضحكة سوقية كجعير ثور وشد يمناي وصفق عليها مثلما يفعل زميلنا في الشغل محمد بركات ! كدت أقول له : « لست الخليفة إذن »، لولا أنه صار يفرد ذراعه

ويمد رجليه دائراً حول نفسه ناظراً إلى البدلة السلطاني التي يرتديها وكمها المذهب ويضحك في بلاهة كطفل شقي في ملابس العيد . وقلت له : « أنت أيوبي والا فاطمي يا أخ ؟». فقال أنه أيوبي ، ثم عاد فقال أنه فاطمي الأصل ، ثم قال أخيراً أنه في الحقيقة لا أيوبي ولا فاطمي بل هو في الواقع لا يعرف أصله الحقيقي لأنه حين خطفه النخاس لم يكن يعي شيئاً وقد باعه واحد لواحد لواحد وها هو ذا الآن في حوزة واحد لا يدري من هو على وجه التحديد ولكن صاحبه الذي يأمره يتلقى الأمر بدوره من واحد يتلقى هو الآخر الأمر من واحد ، وقد جيء به ـ يقول ـ ليجمع ما في هذه الخزانة من كسوات ليتم جردها بالدفتر والقلم . قلت له : « وطبعاً كل واحد منكم خيط له بلدة ولا اثنين على الدواق » . فنظر لي في استنكار وحشي وقال : « لا هذه التي نرتديها كانت الخلع التي ألقى بها من النافذة ـ أقصد التي كان المفروض أن يلقى بها من النافذة بعد أن هجرها الخليفة أو أهل قصوره ! . قلت : « وفين بقي العبدة ؟ ». فأندهش . فصحت فيه قائلاً : « عاوز أشوف كل حاجة على دابر خيط ». التم على صوتي ناس كثيرون ، وجاء واحد وإن كان فاطمي الملبس هو الآخر إلا أنه قدم لي نفسه بأنه أمين الدفتر الذي يقوم الآن بأحصاء ما في الخزانة ، ثم أشار لي قائلاً : « اتفضل » . .

فمضيت أمامه كالذهل ، فاصطدمت « بابن الطوبر » المؤرخ خارجاً حياتي من بعيد فهو يكش مني دائماً كلما لقيني ، واتجاهله كلما رأيته ، ذلك أن أحداً لم يعرفنا ببعضنا فصعب على كل منا أن يقدم نفسه للآخر . اندهش لرؤيتي أرتاد مكاناً كهذا . اغتظت بل تجاهلته إلى حد الإهانة بل اشرت له بطرف اصبعي وقلت : « لو سمحت والنبي ». فجاء الرجل بكل رصانة وأدب فقلت بكل قلة أدب : « حضرتك بتشتغل في خزائن الكسوات ؟ ». فإذا به يقول : « وهل مثلي ينفع ؟ أن الخدمة في خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة في المباشرات !» . كلمت نفسي وقلت له : « أظن أحنا نعرف بعض ». فهز رأسه وقال في اقتضاب : « أي نعم . . أنت أبو شلبي على سن ورمح ». قلت له : « بشرف أبيك الطوبر هلا حدثتني عن هذه الخزانة ؟». قال : « هما خزانتان ،

الظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشي الخليفة أما أستاذ أو غيره . . وفيها من الحواصل ما يدل على إسباغ نعم الله تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس والشروب والخاص الديبقي الملونة رجالية ونسائية والديباج الملونة والسقلاطون . . وإليها يحمل ما يستعمل في دار الطراز بمدن تنيس ودمياط والإسكندرية من خاص المستعمل . . . وبها صاحب المقص وهو مقدم الخياطين ولأصحابه مكان لخياطتهم . . والتفصيل يعمل على مقدار الأوامر وما تدعو الحاجة إليه . . ثم ينقل إلى الخزانة الثانية أي خزانة الكسوة الباطنية كل ما هو خاص للباس الخليفة ». قلت له شكراً شكراً يا أبن الطوير شكراً ، ومضيت اتعثر نحو الداخل . خطوة أو خطوتين وإذا بصراخ يهب فزعاً فيسمرني في مكاني ، ثم إذا بي أمام سيدة تجاوز في خلقها الجمال مع الرزانة والجرأة مع الحياء ، وحين تمعنت فيها كانت تضع يدها على صدرها وتشهق ، وثلاثون سيدة أكثر منها جمالاً وفتنة يقبلن وينظرن إلي في دهشة بالغة . نظرت للسيدة الكبيرة وقلت : «متأسف يا مدام ». فضربت صدرها بيدها ثانية وقالت : « مدام ؟ . . أنا زين الخزان أبداً » . . قلت لها : « ومن انت يا زين الخزان أبداً ؟ ». قالت : « أنا زين الخزان وبين يدي هاتيك الجواري . . مهمتي هنا معروفة فكيف تقتحمنا وتدعى أنك لا تعرف ؟! قلت : والله وحق الله يا زين الخزان ما أعرف شيئاً البتة ». قالت : « الخليفة لا يغير ثيابه إلا عندي ، ولا يلبس إلا من هذه الخزانة ». أصابن الذهول ، صرت أنظر حوالي وعيناي من خلال النوافذ الكبيرة تعانقان بستاناً كبيراً يطل على شاطىء الخليج . قالت زين الخزان إن هذا البستان يرسم هذه الخزانة . قلت ما معنى هذا يا زين الخزان ؟ . قالت يعني خصص هذا البستان لإنتاج النسرين والياسمين ، فيحمل كل يوم منه شيء في الصيف والشتاء لا ينقطع البتة يرسم الثياب والصناديق .

صرت اتأسف لزين الخزان وأبالغ في الوقوف والتلكؤ والنظر إلى الجواري خلسة مع الإدعاء بأنني مؤدب ، وقلت لنفسي أن « ابن الطوير » ضربني هذا المقلب الخبيث ، حيث تركني أدب في الأماكن المحرمة لأتلقى شر أعمالي . وخرجت قبل أن يجيء موعد تغيير لبس الخليفة . جهدت كثيراً

حتى استطعت العودة إلى أمين الدفتر الـذي دعاني للتفضـل ، شد لي كـرسياً يصلح للفـرجة لكنني تجـاهلته بـالجلوس عليه سـريعاً . قلت لأمين الـدفتر : « إزاي يـا راجـل تلبي مـلابس مش بتـاعتـك مـع أنـك حتجـردهـا من ضمن الأمانة ؟». قال أمين الدفتر : « ربما كـان السلطان نفسه مجـرد شخص يلبس لبـاس السلطان . . وكم من سلاطين حقيقيين في غيـر لباس السلطان ؟» قلت له : « غلبتني يا ولد . . أرني دفاترك ». فابتسم في تهكم وقال : « لا دفاتر ولا يحـزنون مـولانا بهـاء الدين قـراقوش كشف حـاصل الخـزائن . . وعن خزائن الكسوات بلغت حصيلتها مائة صندوق كسوة فاخرة من مـوشى ومرصـع وعقود ثمينة . ثم قدم لي كوباً من الفضة كبير ومليء بشراب ، ذقته فـوجدتـه ليمونـاً عظيماً ، كدت أدلقه في جوفي دفعة واحدة لولا خوفي من الكسوف ، وحسناً ما فعلت لأن أمين الدفتر كان قد أحضر لفة كبيرة وضعها بجـواري ، بطرف عيني تفحصتها فإذا بها « بقجة » ملابس ، همس في اذني : « هدية بسيطة للذكـرى تحطها في متحف سعادتك الخاص ». ثم صاح : وصـل البيه يـا ولد ». قلت غاضباً وقلت : « لا . . أنا لا أقبل هدايا . . ولكن إذا كانت الهدية قيمة وثمينة فلا بأس عندي من قبولها بشرط أن أدفع ثمنها !».

قال أمين الدفتر من خلال ضحكة شاحبة : « الإنسان لا يدفع ثمن الشيء مرتين . . لقد دفع كل المسلمين في مصر ثمن هذه الرفاهيـة غاليـاً ». . فخيل إليّ أنه صادق ، ولهذا قبلت الهدية راضياً وقلت أنني سوف أمر على « صلاح » في مكتبه لأسلم عليه وأنصرف ، ومضيت وفي أثري ولد يحمل بقجـة ملابس فاخرة من أجلي .

حـرفوش مصـري يجري ورائي لا يـأنف من حمـل البقجـة على رأسـه كالسيدات ، ثم ينقلها من يد إلى يد ويحاول ملاحقتي وإرسال البسمـة تمهيداً لقول شيء أحسست أنه يريد أن يخدمني به ، فتـوقفت وأشرت إليـه ووضعت راحة يدي على كتفه في أخوة قائلاً : « عايز تقول حاجة ؟». فأشـار إلى مبنى مجاور كدت ـ من طهمتي ـ أتجاوزه ، وقال أنني يجب أن أمر على هذه الخزانة بشكـل خاص فـربما يكـرمني الله و . . « أروح اتعشى ». أحببتـه رغم لـذعـة

النصيحة وقلت : « خزانة ماذا هذه ؟». فقال أنها خزانة الجوهر والطيب والطرائف فشكرت الولد الحرفوش من الأعماق وقلت له انتظرني ها هنا برهة ، ثم دخلت ، اطربني وقع خواتي فوق الرخام وأصداء في الحجرات المتقابلة على الجانبين وسط هدوء شامل ، وكان ضوء النهار الملون ينبعث من حجرة قريبة وثمة خيال لإنسان يروح ويجيء في دبلسة ، أكاد القي السلام على وجوه حية نابضة منفعلة فما أن أقترب منها حتى أكتشف أنها وجوه من ذهب ورخام وابريز وكافور وصندل ، وأناث ورجال ووحوش في كافة الأشكال والألوان ينبعث منها عطر ارستقراطي حريف . وفي الجنب ـ فوق كرسي عباس مطرز برسوم فاطمية ـ يتربع بستان أرضه فضة مخرقة ذهباً طينه ند وأشجاره فضة مذهبة مصوغة، قلت في عقل بالي ترى ما وزنه؟ فإذا بالحرفوش المصري الواقف على مقربة مبعدة في نفس الآن يقول : زنته ثلثمائة وستة أرطال ». . قلت يا خلق الله . قال وهذه بطيخة كافور وزنها ستة عشر الف مثقال ، ثم أردف الحفروش المصري : « لا مؤخذه كده خليك ابن بلد يعني . . هه . . اتلحلح يعني . . يا كده . . ياما تاخدش حاجة . . مش أنت من غير مؤخذة مصراوي ؟ . . يعني ما لكش حاجة . . يعني تخدم وبس . . مع أنك أنت اللي بتدي . . فعشان تأخذ . . « وغمز بعينه وشفتيه » ـ لازم تبقى ولد ملحلح مفتح . . البيه والتيه والمأمون وحاضر على عيني وأنا بتاعكم . . آه . .هو ده من غير مؤاخذة اسمه الجرد الحقيقي . . إنما حتخش دخلة جرد . . يعني هات الدفاتر والكلام ده . . اللهم أنك حترجع من الرحلة خسران . . حتجيلك الدفاتر مظبوطة أربعة وثمانين قيراط . . وبس خد لك صابونة يا ابن شلبي . . أنا مستنيك وعلى مخلك وخد راحتك .

ثم خرج . تقدمت نحو الحجرة المفتوحة وانعوجت برشاقة لاواجه بابها ، فإذا بها منسرجة إلى بعيد جداً ، إلى حيث ينطبق حد ماء النيل على صفحة الستارة المخملية ، حتى لتحار فيما إذا كان هذا هو ماء النيل نفسه أم بحيرة خاصة ، أم هو تمثال للنيل من المرمر والياقوت والدر ، إن صفحة مائه المرصعة من بعيد تنعكس على كل شيء ها هنا . تماثيل وتحف تفوق الحصر في

الكثرة ، حتى الرجل الرفيع المهيب المرتـدي حلة فاطميـة مذهبـة حين تقدم نحوي في ترحيب لم أتحقق بالضبط إن كان آدمياً من لحم ودم مثلنا أم هو من بين التماثيل الذهبية المرمرية الياقوتية الـدرية الـزمرديـة ، لكنني حين وضعت يدي الصغيرة في يده الاصغر لم أشعر لها بأي نبض حقيقي حتى أنها انسلتت من يدي كقطعة بللور . . قدم لي كرسياً فرحت أتفرج عليه في أنبهار وأهز رأسي في دهشة وألوي شفتي وملامح وجهي من عجب ، وأقول يا سلام عشرين مرة ويا إلهي ألف مرة وغير معقول مليون مرة، حتى اغتـاظ الرجـل المهيب ونظر لي قـائلاً في أدب شـديـد : « قـدمت الكـرسي لـك لتجلس عليـه لا لتخلق منـه أعجوبة ». فأخذت أنظر إليه وإلى الكرسي في تردد وخـوف لكنني في النهايـة جلست على حرفه في انكماش ، في حين جلس هو أمامي منتفخ الأوداج واضعاً رجلاً على رجل ، ثم قدم لي كأساً من البللور الساذج ينضح بعرق البرتقال ما أن وضعتـه على شفتي حتى أعدتـه فارغـاً وقد تعـطر فمي وأنفي وجسدي كله بروائح بعثت في النشوة ، وكان هو بالكـاد يضع كـوبه على فمـه حين فاجـأته بطرقعة كوبي على الصينية الذهب المطروحة على حوامل من صندل وكافور ، فقدم لي كأسه مع ابتسامة مبكتة تجاهلتها وطوحت بالكوب إلى جوفي المشتعل بحرارة الزمن العتيق ، فانجعص هو قائلاً : « هيـه ». انجعصت بدوري قـائلاً « هيه ». قال وهو يمضغ شيئاً مجهولاً لم أره يضعه في فمه : « يبدو أن الطريق كان طويلاً عليك . . ولكن أنا قلت لفخر الدين أن المسألة ليست ملحة إلى هذا الحـد ». قلت دون أن أعرف أي شيء : « أي نعم هي ليست ملحـة إلى هذا الحـد ولكن . . « ثم صعت . فقال : مـا اسم الكريم ؟ » قلت : « ابن شلبي الحنبلي المصري الطرشجي الحلوجي». ضحـك في رزانـة وقـال في أدب : « كيف إذن يجتمع العلم بالجوهر والتبحر في الطرشي ؟ ». قلت : « عافاك الله أنني اعجـوبة من أعـاجيب الـزمن في رأيـك ولكنني إذا مـا وضعت رأسي في المشكل ـ فبعون الله وبـالصلاة على حضـرة النبي ـ افلقه نصفين . . أي انني أجيء بداغة . قال الرجل المهيب : « ما معنى تجيء بداغة ؟». قلت : « أي أنني أصفيه ». قال : « ما معنى تصفيه ؟». قلت : أي أجعله مفهوماً وواضحاً

للعيـان ». قال : « ولمـاذا لـم تقل هـذا من الأول ». قلت : « ولكن العربيـة أمدها الله بطول العمر وأغنـاها تجعـل من الألفاظ اقـواماً وقبـائل وإنمـاط حياة وتخلق تبعاً لذلك من الإحساس أحاسيس ومن الألم آلام ومن الثراء جياع ومن النمور فراشى». قال الرجـل المهيب وهو يضحـك في لهجة تقـدير : « المهم عندي أن تكن خبيراً بالجواهر حقاً كما أنبأني فخر الدين ». قلت : « أنـا خبير بالجواهر طبعاً رغم أنني لا أعرف من هو فخر الدين ». قال » إذن فبالضرورة لا تعرفني ». . قلت والله ما حصل لي الشرف بعد فمن الذي اتشرف بحضرته ؟. قال : أنا أبو سعيد النهاوندي كبير أبناء القصر وكنت قد طلبت من صديقي فخر الدين أن يرسل لي من طرابلس أو من المغرب أو من الفرنجة أو الأسبان خبيراً بالجواهر فلما دخلت عليّ ظننته أنت ».

انجعصت جلستي وقلت : نعم أنا هو ـ اقصد هو أنا الخبير الذي تريـده وقد ساقتني عناية السماء إليك من حيث لا تدري ولا أدري فماذا وراءك يا أين النهاوندي إن كان مالاً فرقبتي سداده وإن كان فعلاً فـ . . قاطعني الرجل المهيب قائلاً : ماذا تعني بكون رقبتك سداده ؟ ». خفت أن ينهرني على هذه الشهامة فقلت يعني سدادة زجاجة ، ووضحت قولي بأن المشكلة دائماً في نظري تشبه زجاجة السبرتو ما لم أسدها برقبتي تبخرت وصارت عدماً! . . ووضح أن الرجل اقتنع بشخصيتي أيما اقتناع وملأت أنا دماغه ، إذ اعتدل قائلاً : « ما دمت يا ابن شلبي خبيـراً بالجـواهر فـإنني يجب أن أحدثـك في الأمر ». اعتـدلت بدوري وأشعلت سيجارة خاف منها وانتفض ، وقلت له : « أي نعم يجب أن نحكي في جلية الأمر ولا تخبىء شيئاً أي شيء ». قال : « أصل الحكاية يا ابن شلبي يـا خوية أن فيه شدة جامدة شوية تمر بالديار ويعاني منها القصـر نفسه ». قلت : « وما له يا خويه يتحصل في احسن العائلات ». قال : « المهم أننا أتينا بكبار تجـار الجواهر في الديار المصرية وعرضنا عليهم بعض ما في الخزانة للبيع . . فقالوا لنا : كم قيمة هذا ؟ . . قلنا لهم: حددوا أنتم تجاراً كباراً ؟ فقالوا : إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً ومثل هذا غير موجود وليس له مثل ؟ . . فإن كان لديك المثل ابن شلبي الآن خبيراً حقاً ». قلت : « اتكل على الله ».

قال : « ماذا » ؟ قلت : « وريني اللي معاك » . قال : ليس معي شيء » قلت : « أقصد ما في حوزتك » . فنهض واقفاً وتقدمني فاقتفيت به ، تخطينا ممـراً في نفس الغرفة أوصلنا إلى دهليز كبير ممتلىء بالصناديق الخشب ، قلت ما هذا ؟ . قـال : هي على مثال كيـران الفقـاع من صـافي البللور المنقوش والمجرود . فقلت : غيره . فوقف بنا عند مقصورة مليئة بصـواني الذهب المجـرأة بالمينـا المنقوشة بسائر أنواع النقوش . قلت : « وما هذه الآلاف من الصناديق ؟ » قال هي مملوءة كلها بسكاكين مذهبة ومفضضة بنصب مختلفة من سائر الجواهر . . أمـا هذه الصنـاديق فمملوءة من أنواع الـدوي المعمـولـة من الـذهب والفضـة والصندل والعود والأبنوس الزنجي والعاج وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والذهب والفضة . . وهذه صناديق مملوءة مشارب ذهبية وفضية مخرقة بالسواد صغار وكبار . ثم فتح بابا فدخلناه فأشار إلى كتل من الربط قائلاً هذه مخلفات رشيدة ابنة المعز : ثلاثون ثوب خز مقطوع واثنا عشر ألفاً من الثياب المصمت ألواناً ، ومائة فاطر ميز مملؤة كافوراً قيصورياً . . كل ذلك قدره المرجفون بألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار . ثم خطونا إلى حجـرة أخرى قـال أنها خـزائن السيدة عبلة بنت المعز أيضاً وأنها حافلة ويكفي أن بها أربعمـائة قمـطرة وألف وثلاثمائة قطعة مينا فضة مخرقة زنة كل مينا عشرة الآف درهم ، واربعمائة سيف محلى بالذهب وثلاثون ألف شقة صقلية وزمـرد كيله أردب واحد . ثم خـطونا إلى ممر آخر طويل به حصير من الذهب وقال الرجل إن وزنها ثمانيـة عشر رطـلاً وأنها الحصير التي جليت عـليهـا بوران بنت الحسن بن سهـل على المأمـون . ورأيت بجوار الحصير ثمان وعشرين صينيـة ميتا بحـري بالـذهب بكعوب ورأيت صناديق مملوءة مرائي حديد من صيني ومن زجاج المينا لا يحصى ما فيها كثرة جميعها محلى بالذهب المشبك والفضـة ومنها المكلل الجـوهر . أمـا المظال وقبضها الفضة والذهب فرأيت منهـا الشيء الكثير . . ورأيت الشـطرنج والـزر المعمولة من سـائر الجـوهر والـذهب والفضة والعـاج والأبنوس بـرقاع الحـرير والذهب ما لا يحد من كثرة ونفاسه . ثم أننا خطونا إلى خزانة الطرائف فرأيت ستة وثلاثين ألف قطعة من محكم وبلور ، ومن تماثيل العنبـر اثنتان وعشـرون

ألف قطعة ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد .

ثم أننا توقفنا من فرط التعب فأشعلت سيجارة وعزمت على الرجل بواحدة فأمتنع باشمئناط . فأسندت كتفي على مظلة من الذهب وقلت : « عايز تبيع ده بكام ؟» . فلم يلتفت إليّ ، إنما كان منشغلاً بالنظر من نافذة مستديرة وممتدة في الحائط كالأسطوانة، فنظرت منها، فرأيت الزعر والحرافيش في الشارع البعيد يدفعون أجسادهم المنهكة ويتثاءبون في ملل ويصيح بعضهم فجأة: يا غني، والباعة الجائلين يبتعدون عن حائط القصر في حذر وهم ينادون بصوت هدّه الجوع والتعب ، وكانت أعجب نداءات باعة سمعتها في حياتي ، كان ثمة من ينادي قائلاً : « بخمسة وسبعين دينار الكلب الحي . . بخمسين الكلب الميت »! . .

التفت إلى الرجل المهيب قائلاً : « أما الكلب الحي فأمره مفهوم ، ولكن لماذا الكلب يباع وهو ميت ؟» . . فانتفض الرجل المهيب وضغط بيديه على اذنيه قائلاً : « أرجوك تسكت . . لا شأن لك بما يدور في الشارع ».

قلت : « ما يدور في الشارع جزء لا يتجزأ مما يدور هنا ». قال بغطرسة : لا . . هم دهماء ». قلت : « وانتم ملوك وأباطرة ». قال في ألم حقيقي : « وقد نتساوى في أكل الجيف ». قلت : « إذن فأعلم يا سيدي انني وقد رأيت جواهرك وتحفك الثيمنة وأعملت فيها خبرتي أقول أنها بلا قيمة على الإطلاق ». هب لي قائلاً : « كيف . . على أي مثل قمت تقيمك »؟ أشرت من النافذة إلى من يسيرون في الشارع وقلت : « هذا هو المثل ». قال : « هم معدمون وليس بداخلهم أي قيمة ». قلت : لقد ربيتموهم على عدم الاكتناز واكتنزتم . . فامتلأت خزائنكم بأطنان المعادن وأمتلات صدورهم بالقيم النفيسة ». قال مكشراً عن أنيابه :« هذا تدخل في ارزاق الخلق . . هذا الحاد ». قلت : « بعد اذنك » وظللت ادخل في طرقات تقودني إلى مقاصير تفضي إلى ممرات حتى خرجت إلى الطرقة الأصلية والرجل خلفي وكنت أسمع ضجة هائلة فوق رأسي فألتفت إلى الرجل قائلاً : « إذا ما كانت عاجبك فعالي . . فوق منك بالضبط بحوالي ألف عام أو أزيد أو أقل يوجد حي بكامله

اسمه حي الصاغة فابعث في طلب أحدهم». وخرجت فإذا بي في فراغ تحوطه المباني والحدائق في إطار واحد وفجأة توقفت اتبين أين أنا من قاعة الذهب التي قيل إن صلاح الدين الأيوبي ينتظرني فيها وأين الولد الذي كان يوصلني بالهدية ، صرت اتلفت حائراً و . . ذب . . آه . . دماغي مش تحاسب يا بني آدم . . انتبهت مذعوراً أمسك برأسي من الدوار وأمامي رجل يمسك دماغه هو الآخر . وحولي وخلفي عشرات الآلاف من البشر والدكاكين المتجاورة . دعكت عيني . فإذا بي اسير في شارع الموسكي ! . .

صرت أمشي في قرف أدفع الزحام والعرق وامارس الغيظ ، المزابل نفسها قد استوءجرت ودفعت فيها « الباكوات » وتحولت إلى معارض لمنتجات أمريكا واليابان والفرنجة ، حتى منتجات أولاد شلبي المساكين وهم أهل البلد يعرضونها أيضاً ولكن بعد أن يضعوا عليها شارة فرنجية . وكانت ثمة لافتات في بعض الواجهات تشير إلى ثمة احتفالاً سوف يقيمه لا أدري من بمناسبة مرور ـ أقصد بداية العام الربعمائة بعد الألف من تاريخ الهجرة . قلت لنفسي : « احتفال كيف . . هل يكون فيه رقص وغناء وسمراً ؟». رد واحد يبدو أنه قرأ اللافتة معي وقرأ معها أفكاري : « أهم شيء أن يكون في الحفل عشاء ولو ربع فاخر .

قلت : « تقصد ربع فرخة ؟». قال : « قد طايل ». . ثم أنه ابتسم لي بود كأنه أدلى بشهادة لصالحي ثم غاب في الزحام ، ولكنه سرعان ما أرتد عائداً نحوي فغرست فيه فخيل إليّ أنه ذلك الحرفوش الأزعر الذي كان يسير ورائي حاملاً بقجة الثياب في الزمن القديم لولا اختلاف الملبس. قال في تردد : « البيه بيدور على حاجة ؟». قلت : « نعم ». ثم عدت فقلت : « لا ». ثم أردفت قائلاً : « بتسأل ليه ؟». قال « أحب اخدم . . معاك أجنبي ؟». قلت : « ما معنى أجنبي ؟». قال : « عملة صعبة يعني . . دولار . . اديك سعر كويس ». وبلا مناسبة وضع يده في جيب سرواله وحرك رزمة من العشرات الحمراء ذوات المآذن ثم أخرجها فسواها واعادها إلى السروال .

دلقتـه جانبـاً وانصرف في اتجـاه الحمزاوي ثم إلى الغـورية ثم شـرعت اصعد سلم الكويري الذي اقامته القوات المسلحة لعبور المشاة من الغورية إلى شارع المعز وبالعكس ـ كنت متعباً ، فأخذت أصعد السلم بهدوء وألعن أولئك الذين يصرون على التسلل من خلال المتاريس وأصب جام غضبي على العساكر الذين يتناحرون معهم طويلاً وفي النهاية يسمحون لهم بالتسلل . ثم إذا بصوت غليظ وخطير يصيح بي :

ـ عندك . . خطوة واحدة حاضرب في المليان .

رفعت بصري فوجدتني أصعد سلم بـوابة عـظيمة عـالية ، ونـظرت إلى نفسي من بعيد فوجدت البوابـة كأنهـا فك تنين خـرافي وكأنني نملة تسعى بين أسنانه ، وفي مواجهتي حارس ممسك بسيف .

الفصل الخامس

الهجرة للعمل في أزمنة بعيدة

استوقفني الحارس الفارسي بطرف سيفه كأنه يهشني . . وقفت ناظراً إليه في عجرفة ، هز رأسه مستفهماً في استنكار ، مددت حقيبتي السمسونيت في دائرة ابصاره ، فسرها باتع في نظري ، وكم لها من فضائل في حياتي ، يكفي أنها كانت ترغم سائق التاكسي على الوقوف إذا ما أشرت له بها ، ويكفي أنها كانت تجعل أي بائع أو أي سمسار يعاملني باحترام إذا ما فتحتها واغلقتها بكل رشاقة دونما حاجة لذلك . إلا أن الحارس الفارسي لم يلتفت إلى حقيبتي بل عاملها بكل احتقار واستخفاف ، فاندهشت من أن تفقد الصناعة الامريكية سحرها الباتع ، وقلت في نفس أن هذه لقطة مثيرة يجب أن انبه إليها صحف المعارضة العربية لكي تكتب عنها ضمن ما « تأخذه » فسولة الصناعة الأمريكية ، وقلت للحارس الفارسي : « يعني مبسوط حضرتك . . ها أنت ذا ستتسبب في خراب بيت أمريكا » . واستطردت قائلاً بكل صلف : « وسع وسع » وهممت بتخطي حد السيد الممدود ، قال : « ماذا تريد من قاعة الذهب ؟» . قلت أن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ينتظر فيها فهي التي تريد مني ولست أنا الذي أريد منها ، فقال لي : « أيوب ماذا . . لقد انتهى صبر أيوب بموته وحفظه في دفتر النبوة » . قلت باسماً : « لالا . . ليس كل أيوب نبياً . . ليس كل الصابرين بأيوب » . فأضاف قائلاً : « ولكن كل أيوب مصري » . قلت : « إذن فأنت تعرف سر البلاد » . قال : « إلى حد ما » ـ واستشعرت بعض الخجل في صوته ، فقلت بجرأة : « ليست فضيلة الصبر وحدها ما يميز المصري . . أنه ليس الصبر على احتمال البلاء بل هو الصبر على مداومة

العلاج . . غير أن دود الجروح المتجددة على الدوام أكثر صبراً من المصري ، فهي تحتمل علاجه بصبر عبقري وتقاومه حتى لتفقده العقل ».

هز رأسه موافقاً في بلادة ، ثم عوج ذقنه وعد لها عدة مرات تأهبا للتجشؤ ، فلما تجشأ وجدتني في مهب ريح القت بي إلى بعيد ، لويت ملامحي اشمئزازاً وقرفاً مع أنني شممت رائحة خروف مشوي وكدت أراه بكامل حياته تحت كرش الحارس الفارسي ، شوحت له بيدي قائلاً : « ابتعد ايتها الدودة القذرة ». ضرب سيفه في الهواء فنترت نفسي إلى أعلى كالبهلوان ، قال : « تلقيني بالدودة يا حشرة ؟ » قلت : « لقد زعمت أنك تعرف سر بلاء المصري إذن فتعلم أنك من بين دود الجروح . . !. أن صفحة جسد التاريخ مليئة بالدمامل والخراريج المزمنة ، كل دولة تغزوه تترك فيه فرحة هائلة . . لولا مياه النيل ما تطهرت جروحات هذا الجسد ». فصار يلعنني بأقبح الألفاظ من قبيل أنني حشرة ودهماء وجاهل وعبد هارب من النخاس إلى آخر هذه الافتراءات الملوكية ، وكنت أسمعها وأجر « ناعم » قائلاً بين كل تمتمة وأخرى شأن أي مصري : « الله يسامحك يا عم . . كثر خيرك . . أنت برضة زي أخويا الصغير ». فلما وجدته يزداد تهيجاً وعنفاً عالجت خوفي قائلاً : « على كل حال ما عبتش فيك ». بصراحة هدأ وحضر خاله الطيب فأكتفى بذلك واستدار ينادي على أحد من الداخل مهملاً أياي ، فانتهزت الفرصة وصفعته بالقلم على قفاه في سرعة شديدة واندفعت أجري تاركاً أياه يتخبط في ذهوله .

صرت أجري كالأعمى و « اتكعبل » في شجيرات واصطدم بأعمدة من الذهب وأقفز حاجز من البلاتين والمرمر ، وكانت كل الأبواب التي مررت بها مغلقة فيما عدا الشبابيك والشرفات العالية ، فلما أحسست أنني ابتعدت وأن لا أحد يجري ورائي صعدت درجات صادفتها في طريقي ، أفضت بي إلى ممر طويل أرضه من خام وله صور من الذهب ممتد بأعمدة مخروطية وأفرع الورد البلدي تتسلل بينها لتستريح الورود وتتضاعف في صفحة الأفريز . وكانت خطواتي قد انتظمت وحدها في خطو ملوكي أنعشته الورود والأبهة ، وصوت وقعها يتضاعف هو الآخر في الإبهاء الكثيرة المجاورة النابعة من الممر الطويل .

جلست فوق طابية قريبة فوقع بصري على حجرة كبيرة مربعة وحافلة بالدواليب الفضية الحافلة بدورها بأوان غريبة الشكل والأحجام ، فجأة انفتح باب لم أكن أظنه باباً . وخرج منه عبد أسود يرتدي حلة بيضاء محلاة بالأشرطة والزخارف ويضع على رأسه عمامة فاطمية . ارتعدت واقفاً وهو يقترب مني ، فإذا به يتوقف على مبعدة ويصيح في « تبدأ اللعب من الآن أيها الجرذ القبيح ؟ . . هل بعثوك لتجلس هكذا ؟ . . لقد طلبنا منهم أن يرسلوا لنا صبياناً تعالج العمل في أعداد السماط لا لتجلس هكذا». قلت: «سماط ؟!» قال مشوحاً نحو الباب الذي خرج منه : « أمشي أيها العبد القبيح وضع نفسك تحت أمر صاحب السماط » . قلت : « حاضر يا سيدي » . ثم اندفعت أهرول نحو الباب ودخلته مسرعاً ، فوجدتني بين عدة أبواب متجاورة متقابلة تحرجت من اقتحام أي منها فظللت أسير في ممر جديد مفروش بالسجاد وقصارى الزرع المصنوعة من الذهب والفضة على جانبيه ، أغراني السير فقادني هذا الممر إلى باحة مهيبة طويلة وقد ارتفع فيها مستوى كل شيء ارتفاعاً هائلاً ، سجاد تغوص فيه القدم فيدفعها إلى أعلى برفق . وشباك كأنه شاشة السينما ، وسرير من الذهب الخالص ممتد أمامه ، مشيت بجوار الحائط المزخرف بالرسوم الذي لم أعرف إن كان من الخشب أم من المسلح ، لكن ستائر الديباج كانت تنثال على الحوائط في عظمة مهيبة ، والبساط مطابق للستائر ، ما بين طبري وطبرستاني مذهب معدوم المثل ، على السرير مرتبة مؤهلة للجلوس في هيئة جليلة ، وكنت قمينا بأن أظل أسير في هذه القاعة الهائلة إلى نهايتها لولا انني لمحت على مرمى البصر عدة بوابات تنسلخ من بعضها وفي نهايتها يقف الحارس الفارسي وكان لا يزال يتحسس قفاه بكفه وينفخ في غيظ، حينئذٍ ارتددت عائداً من حيث جئت، صحوت على يد تذكرني برفق فارتعدت ناظراً إليها فإذا بمجموعة من السودان البكوات ذوي الحلل الجميلة يقبلون حاملين شيئاً كبيراً تبينت أنه مائدة من الفضة ، قال الذي لكزني : « تحرك ياحيوان . . من اين يجيء بكم النخاس » . فعلق واحد منهم قائلاً : « أنهم ـ وأشار إليّ ـ مثل البخت . . قد يطلع لك ابن ملوك وقد يطلع ابن سفلة » . فضحكوا بعنف ولكن دون صوت ، وعلق ثالث :

« النحاسون أنواع . . هناك من يتخصص في خطف أولاد الأمراء والناس وله عصابات في كل مكان تعمل لحسابه . . . وهناك من يتصعلك في الحواري ليغزى الأولاد بالحلواء . . فأي نخاس باعك يا ولد ؟». قلت : « تقصد أي نخاس اشتراني ؟». قال : « عبد لمن . . ليكن . . إذن فهل باعك النخاس أم اشتراك ؟ ». قلت : « النتيجة واحدة . . والنخاس واحد . . فطالما أن هناك نخاساً يبيعني فلا بد أن يكون ثمة نخاس يشتريني ». تبادلوا نظرات هلعة ينبعث منها البؤس والفكاهة ، وقال الذي كان قد لكزني : « لولا أن الذين يجيئون ها هنا يهدون إلى الخليفة لكانت تهمتك الآن عظيمة أيها الولد القذر طويل اللسان . . هيا . . إرم هذا الصندوق الذي بيدك وساعد بشيء . . ما الذي في هذا الصندوق ؟ . . قلت : « بل هو حقيبة وفيها مسوغات وامور تخصني ». أمر فانتزعت مني الحقيبة برفق ، وأمر فدخلت في زمرة العاملين . لكن كل شيء كان ـ تقريباً ـ قد اعد : نصبت المائدة الفضية المدورة قدام باب المجلس . . أقصد السرير . . وصرت أروح وأجيء معهم من المطبخ إلى الرواق حتى وضعنا على المائدة ما يزيد على خمسمائة صحن ، كلها من الفضة أو الذهب أو الصيني ، تحوى فائح الطيب وفاتح الشهية ، خضروات ، دجاج فائق سمن معمول بالأمزجة الطيبة النافعة .

ثم أننا رحنا ننصب السماط أمام السرير إلى باب المجلس قبالته بطول القاعة ما يشبه الدكك الخشبية يصير من جمعه للأواني سماطاً عالياً في ذلك الطول ويعرض عشرة أذرع ، فرشنا فوق ذلك الأزهار ، ورصعنا السميط ـ أقصد السميذ بتعبيرهم ـ على حافتيه ، كل سميطة تزن ثلاثة أرطال من نقي الدقيق مدهون وجهها بالماء عند نضجها ليحصل لها هذا البريق وهذا الحسن في المنظر . أما داخل السماط على طوله فقد حشدناه بواحد وعشرين طبقاً في كل طبق واحد وعشرون تنياً سميناً مشوياً وفي كل من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلاثمائة وخمسون طائراً فصار كقامة الرجل الطويل ، وسورناه بشرائح الحلواء اليابسة وزيناه بالوانها الصبغة ، وسددنا خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التي في كل واحد منها سبع دجاجات وهي مترعة بالألوان الفائقة من

الحلواء المائعة والطيب غالب على ذلك كله. نظر آحدهم في تحفة فنية من الخشب الأبنوس المحلي بالذهب موضوعة على رف من المرمر وقال : لم يبق إلا القليل ويعود الخليفة من المصلى والوزير معه ». ونظرت أنا في ساعتي الخاصة فوجدتني في رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة أي في السنة الخامسة عشرة من ولاية العزيز بالله نزار على مصر ، وهو ابن المعز لدين الله معد ، وقد استشعرت من روح المرح المنتشرة في القصر أنه قد تم للعزيز فتح حمص وحماة وحلب وأن صاحب الموصل قد خطب له كما خطب له باليمن وضرب أسمه على السكة ـ أي النقود ـ والبنود .

دخل الخليفة العزيز نزار . كان أسمر أصهب الشعر أعين أشهل العين بعيد ما بين المنكبين . وكان الوزير قد سبقه إلى باب الدخول وأخذ يتلقاه وينزع عنه ثياب العيد التي في عمامتها السمة ويلبسه سواها اعدت خصيصاً لذلك ، ثم أن الخليفة تقدم ونزل على السرير أمام المدورة . وقام على رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين وأربعة من خواص الفراشين . ثم طلب الوزير فطلع إليه وجلس عن يمينه ، واستدعى الأمراء المطوقين ومن يليهم من الأمراء دونهم فجلسوا على السماط . ثم جاء الذي كان قد لكزني وأخذ يجرجرني بعنف ويقول أن سماطاً آخر يشق بين القصرين لعموم أهل القاهرة ، ثم دفعني إلى خارج القاعة من باب لم أكن تبينته فإذا بي في ميدان بين القصرين مباشرة والسماط ممدود في شكل مليح مدهون بأوراق الذهب وفيها شخوص ناتئة كأنها مسبوكة في قوالب لوحاً لوحاً ، أخذت أهرول مسرعاً لأجد لنفسي مكاناً بين زحام الجموع المتوافدة من أهل القاهرة يأكلون ويضعون في أكمامهم ما يشاؤون ، جربت حتى لهثت ووجدت مكاناً صغيراً فحشرت نفسي فيه بين البشر ، وكان ثمة صياح وصخب بدا يتضح ، دفع رجل رجلاً فوقع على طفلة فصرخت فقام الأخير ولكمه وقامت جموع تحجز بينهما وأنا من بينهم ، فلما تباعدت شتائمهما لبعضهما وعدنا لنأكل وجدتني أحاول الجلوس على ترابيزة في الشارع العمومي أمام مطعم رخيص في حي الغورية ، وكنا جميعاً نجلس في

انتظار مدفع الإفطار ، وكانت الأطباق الصغيرة تبدو أمامنا كبقايا فضلات تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع . .

اغتظت جداً وقررت اللحاق بالسماط ولو على البقايا ، فبقايا السماط لا شك أفضل من وفير خيرنا ، تحرجت من ترك الطعام والقيام مع أن هناك من ينتظر قومتي ليجلس محلي ، لكنني قمت بلعبة حيث ذهبت إلى سبت العيش وأخذت أقلب فيه برهة ثم تسللت إلى الخلاء .

حاولت الرجوع من حيث أتيت ، وجدتني أجنح يميناً إلى حارة الجودرية فخفت أن توصلني إلى زمن أبعد فضلاً عن أنها تضعني بين الجند . ارتددت إلى شارع الغورية نفسه وسرت بحيث يكون الخرنفش خلف ظهري . رأيت « نجيب محفوظ » يمشي متنكراً إلى زي بائع أوطه يدفع عربة أمامه يستبدل النداء بالضحك المتواصل بصوت عال ، ورأيت المطرب محمد قنديل يبحث عن لعب للأطفال ، ورأيت كثيراً من الفنانين التشكيليين الذين أعرفهم ولا يعرفونني أو يعرفون غيري وكانت اتخاذ الموديلات مرسومة على صدورهم وعلى وجوههم ، ورأيت عربات الكارو والدراجات والموتوسيكلات والسيارات المرسيدس التي يركبها تجار المخدرات والسمكرية والتجار المتطلعون ، والعربات النقل التي يملكها أصحاب المحلات عارضة البضائع الأجنبية كل ذلك يسير في اتجاهات متعاكسة متقابلة في نفس الآن ، وبنى شلبي يوسعون الشارع الضيق ويستجيبون لصياح الكلاكسات وشتائم الركاب فإذا ما أحدثت إحدى السيارات ربكة وعطلاً في الشارع تطوعوا كلهم لمساعدته في الخلاص من الربكة سواء بدفع سيارته أو بإرشاده للقيادة الصحيحة . . ورأيت وسطهم رجلاً طويل القامة قاسي الملامح لاحظت أنه يتجاهلني عن عمد فاقتربت منه ومددت له يدي مسلماً في ود : « أزيك يا راجل ». فقال ببرود : « أهلاً » . قلت من كسوفي : « أظنك المرتضى أبو محمد عبد السلام ؟». قال بنفس البرود : « نعم ». قلت : أبن محمد بن عبد السلام بن الطور ؟». هز رأسه أن نعم . قلت : « القهري القيسراني الكاتب المصري ؟». قال بضيق : « نعم »، قلت : « اتذكر يوم أن أوقعتني في شر أعمالي وادخلتني لدى زين الخزان ؟».

تبسم قائلاً : « وهل أنت إلا قدها ؟». قلت : « كيف يتأتى لـك أن تحضر في عصرنا وتتجول في شوارعه كأنك لا تزال تعيش بيننا ؟». قال : « مثلما تأتى لك الانتقال إلى عصورنا، ثم أنك يمكن أن تراني في كل بقعة في هذه الأرض . قلت : « لقد ضقت بالحياة ها هنا يا ابن الطوبر » تبسم قـائلاً : « يمكنني أن أبعث لك بعقد عمل في خارج العصر ». قلت : في عرضك . . ويا حبـذا لو كانت شروطه مغرية والسكن على حساب العمل وأن يحتفظ لي مركـزي الذي حققته في عصري ». قال : « ما مركزك ؟». قلت : « بـالإضافـة على عملي كمحرر في إحدى الصحف لدي معمل كبير وشهير للطرشي ولدي مصنع حلواء وأفكـر في افتتـاح مكتب ثقـافي واسـع النطـاق ». قـال : « مـا معنى مكتب ثقافي ؟». قلت : « تكون مهمته جلب الكتاب والمحررين والفنانين من كـافة البلاد وتفسيرهم أو شحنهم للعمل في بلاد أخرى نظير عمولة كبيرة اتقاضاها من الطرفين . . كذلـك جلب الموضـوعات والقصص والتحقيقـات ممن لا يحبون السفر والقيام ببيعها لأكثر من جرنان وقبض ثمنها والانتفاع به في توسـع معمل الطرشي ومصنع الحلواء فإذا ما طاردني أصحاب الموضوعات إلى حد الـزهق راضيت كل منهم بعشرة جنيهات زاعماً له أن الموضوع لم يبع ، واثقـاً من أن أحداً منهم لن يكشف كذبي لأن جميـع الصحف والمجلات والـدوريات التي اتعامل معها لا تدخل الديار » . .

قـال ابن الطوبـر : « مـع أنني لم أفهم معنى المجـلات والصحف التي تقصـدها إلا أنني أراك تصلح للعمـل في « ديوان الإنشـاء ». قلت : « في أي عصـر هو؟ لاحظ أنني أعـاني من حسـاسيـة ضـد الأجـواء الحـارة ». قـال : « اطمئن . . التكييف موجود وكل شيء على ما يرام ». قلت: تكييف بالمراوح أم بالمركزي ؟». قال : «بكل لون يعجبك ». قلت : « عال . . أكون لك من الشاكرين ». فأنزل الرجل زنبيله عن كتفه فإذا به زنبيل جميل أجمل بكثيـر من هذه التعليقات التي يكلف بها السياح أكتافهم ، وأخرج منه بطاقة وريشة ودواة محلاة ، فتحها وغمس الريشة في الدواة وكتب بالرقعة الجميلة خطاباً لـرئيس ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي أوصاه فيه بتسهيل مهمتي . وضعت البطاقـة

في حقيبتي بحرص ولفح هو زنبيله على كتفه ومضى فاستوقفته لما وجدت أننا أمام فاترينة جاد الحلواني الملاصقة لوكالة الغوري وقصر ثقافة الغوري ، طلبت من جاد طبقين من البسبوسة وقلت لابن الطوير : « هذا هو قصر ثقافة الغوري ». قال ابن الطوبر : « أهو الذي تود افتتاح مثله ؟». قلت : « لا طبعاً ». قال : « وهل هذه الحلواء من منتجاتك أم من منتجات القصر ؟». قلت : « لا من هنا ولا من ها هنا . . إنما نحن المصريين هكذا دائماً نرى في كل بناء جانبه التجاري ». لحظتئذٍ زحف علينا رهط من المارة فرقوا بيننا لمسافة زمنية طويلة بحثت بعدها عن ابن الطوبر فلم أجده لا هو ولا طبق البسبوسة ، أخذت أبحث في الحواري والمنعطفات الضيقة فاستوقفتني بوابة خربة رحت أتفرج عليها مسحوراً بدقة صنعها ، دخلت فاحتجب الضوء لبرهة وجيزة عاد بعدها مثلما يعود النور قوياً جداً بعد خفقة ضعف ، حق لقد خفت أن تحترق اللمبات في دماغي ، لكن الضوء المبهر كشف عن ساحة كبيرة تنبعث عنها عشرات الأبواب والشرفات » عشرات الداخلين والخارجين يتبادلون تحية الإسلام بالسلام والبركات . .

تقدمت خطوات في تردد . القيت السلام على حرفوش أزعر يجلس على الباب عرفت أنه لا بد أن يكون أحد السعاة . رد السلام واقفاً . قلت : « أين نحن ؟» قال الحرفوش الأزعر : « في الدواوين ». قلت : « حلو . . ديوان ماذا هذا الذي تجلس على بابه ؟». قال وهو يهز سبابته أمام فمه في توجس : « هس . . أنت أمام ديوان المجلس . . ما الذي تفعله هكذا في روحك ؟» ـ وأشار إلى ثيابي الأفرنجية . قلت : هي ثيابي الرسمية ». قال : « وهل ستدخل بها ها هنا ؟». قلت : « لم لا ؟». قال : « هذا ديوان المجلس . . بعض أصل الديواوين . . فيه كل علوم الدولة . . وفيه كتاب كثيرون لكل واحد مجلس منفصل . . وصاحب الديوان هو المتحدث في الإقطاعات ثم قرب فمه من أذني وهمس بلهجة ذات معنى ـ وله المرتبة والمسند والدواة . . والحاجب ، ويخلع عليه وينشأ له السجل ». قلت : « هذا المجلس بمثابة الجهاز المركزي في عصرنا ». قال : « لست أعرف ما تعني ولكن هنا يوجد

دفتر المجلس وصاحبه من الاستاذين المحنكين ، يتضمن كل الباطن من الأنعام في العطايا والظاهر من الرسوم المعروفة في غرة السنة والضحايا والمرتب من الكسرات للأولاد والأقارب والجهات . . الخ . قلت : « خلاص خلاص . . فهمت . . عن اذنك . . ». فوسع لي فدخلت .

اتجهت يميناً ، سألت حرفوشاً آخر : « ديوان ماذا هذا ؟ ». قال : « هذا ديوان النظر . . أجل الدواوين يتولى النظر عليها وله العزل والولاية ومن بيده عرض الأوراق في أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ، وله الاعتقال بكل مكان يتعلق بنواب الدولة وله الجلوس بالمرتبة والمسند وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ». قلت : « شكراً شكراً »، ومضيت إلى طرفة أخرى كأنني في مجمع التحرير . سألت حرفوشاً ثالثاً : « ديوان ماذا هذا ؟». قال : « ديوان التحقيق . . مقتضاه المقابلة على الدواوين ، لا يتولاه إلا كاتب خبير وله الخلع والمرتبة والحاجب . . ». فشكرته ومضيت إلى ردهة نشأت بجواري ، اعترضني حرفوش رابع سألني : « ماذا تريد ؟». قلت : « ديوان الإنشاء ». قال : « ماذا ؟». فتحت الحقيبة وأريته بطاقة ابن الطوير . . قال : لمن هي ؟». قلت : « لرئيس ديوان الإنشاء ». قال : « تقصد الشيخ الأجل ». قلت : « هل تسمونه هكذا ؟». قال : « نعم يقال له كاتب الدست الشريف . . ماذا تريد منه ؟» قلت : « لسوف التحق بالديوان موظفاً ». قال : « إن منصب الشيخ الأجل لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة . . أنه يتسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من بعده وهو الذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنها للكتاب ، والخليفة يستشيره في أكثر أموره ولا يحجب عنه شيئاً متى قصد المثول بين يديه ». قلت : « وما راتبه ؟». قال : « جاريه مائة وعشرون ديناراً في الشهر ، وهو أول أرباب الاقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات ». قلت بلهفة : « من فضلك أريد أن أقابله في الحال ». قال مشوحاً : « لا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر ولا يجتمع بكتابه أحد إلا الخواص ». قلت : « أين حاجبه لأكلمه؟». قال : « حاجبه من الأمراء والشيوخ وله فراشون وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة ». قلت : « لا بد أن

أقابله . . خذ هذه البطاقة واعطها لحاجبه لكي يوصلها له ». فلم يـأخذهـا ، فظللنا في مشاحنة حتى رأينا رجلاً مهيباً يقبل نحونا ، همس الحرفوش : « هو هوذا حاجبه الأمير ». قال الحاجب الأمير وهو يحاذينا : « ما الأمر ؟». . قدمت له الورقة ، فنظر فيها بـتمعن لبرهة ثم نادى قائلاً : « أيها الحرس . . اقبضوا على هذا الشقي وأودعوه الحبس حتى ننظر في أمره . . ». فانشقت الأرض عن الحـراس الذين أحـاطوا بي وامسكـوني بينما اختفى هـو في مكان لا أدريـه . وكانت الساعة في يدي تشير إلى سنة إحدى وخمسمائة .

الفصل السادس

الحبس في خزانة البنود غير القانونية

أحاط بي الحرس وأحدق بي الخطر واستغربت كيف بكلمة كهذه قالها رجل ببساطة ومضى كالطاووس كأن شيئاً لم يكن . يترتب عليها كل هذا التنكيل بي . . الحقيقة دخت ، فمن قراءتى لكتب وشهادات الذين سجنهم عبد الناصر أصبحت يقشعر بدني لمجرد استماعي لكلمة سجن ، ولو استطعت لألغيت التعامل مع حروف السين والجيم والنون إلا متفرقة مشتتة . بقدر رعبي من السجن نشأت في أعماقي البعيدة رغبة دفينة في تجربته على الحقيقة بشرط أن يكون ذلك لسبب غاية في الخطورة . . فكيف بي أقف الآن على مشارف باب السجن دونما سبب ! . .

فكرت أن أنزع نفسي من هذه الفترة الزمنية بدلاً من أن يفقدني أولادي في « شربة مية »، لكنني لم استطع ، وأكتفيت بأن لعنت كل ديكتاتور يضع في يمينه سجناً وسوطاً وسيفاً ، وعدت من جديد أنظر في ساعتي فوجدتني قد غفوت وقفزت بي عقارب الزمن خطوة فإذا بي في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، فعرفت أنني في السنة السابعة عشرة من ولاية الآمر بأحكام الله منصور . اسمه منصور ، وكنيته علي ، ولقبه الآمر بأحكام الله بن المستعلي بالله ابي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر بالله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله محمد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبد الله العبيدي الفاطمي ، السابع من خلفاء مصر من بني عبيد ، والعاشر منهم ممن ملك المغرب . تعرفت عليه منذ زمن

بعيد حين زارني الصديق « ابن ثغري بردي » يوماً في منزلي ومعه صبي صغير عمره خمس سنوات وقال لي أنه سلطان مصر الجديد ، فأخذت من يومها أتابعه وأتصل به وتصيبني الدهشة من فعاله الهوجاء ، كان الأفضل شاهنشاً ، بن أمير الجيوش هو مدير سلطانه فقتل الأفضل وأقام في الوزارة المأمون أبا عبد الله محمد بن مختار بن قاتك البطانحي ، فما أن بدأ البطانحي يمارس الظلم والفساد حتى قبض عليه وصادره ثم قتله وصلبه وقتل معه خمسة من إخوته ، وكنت طول عمري اتجاهله واحتقره كلما لقيته في محفل لدرجة أنني مرة كنت معزوماً على العشاء في صالون الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت وكان هو من بين المعزومين فأبديت عدم ارتياحي ثم انسحبت من الجلسة ، ومرة أخرى دعيت لإفتتاح الجامع الأقمر الذي أنشأه الخليفة الآمر فوقفت إلى بعيد غير راغب في السلام عليه ، وكانت آلات التصوير السينمائي والتليفزيونية تتخابت وتمر على وجهي من حين إلى حين لتظهر للمشاهدين عمق ازوراري ، فالحق أن لهذه الكره سبباً لعله فسقه وسفكه للدماء وكثرة مصادرته واستحسانه للفواحش ، ولعله أصابته بداء العظمة والأبهة والتعاون في أمر الغزو والجهاد حتى لقد أخذ الفرنج في أيامه عكا وطرابلس وعرفه وبانياس وصور وبيروت وصيدا فلم ينهض لقتالهم البتة حتى قصد بردويل الأفرنجي مصر ليأخذها ودخل بالفعل بلدة « الفرما » وأحرق جامعها ومساجدها ، والفرمة هذه كانت مدينة من حصون مصر القديمة واقعة في الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة أي أنها مدينة بور سعيد في الوقت الحالي .. ولقد بقي الأمر في الملك تسعاً وعشرين سنة وتسعة أشهر فلم أبعث له بالتحية ولم أخاطبه أبداً وظلت القطيعة بيننا حتى قتل وهو يعدي الجسر إلى جزيرة الروضة سنة أربع وعشرين وخمسمائة حيث كمن له قوم بالسلاح فلعبوا عليه بالسيف وأثخنوه بالجراح . . فمن كان يتصور أنني أقع الآن في قبضته ؟ . . الواقع لم يكن يرغبني السجن إنما كنت مغتاظاً من « ابن الطوير » الذي هزأ بي لثاني مرة . .

أخذ الحرس يحاولون أيقافي على ساقي دون جدوى ، وثمة من يدلك لي صدري ويحرك ذراعي ومن يتحدث في أمري حديثاً غامضاً و . . يا لهذه

الرائحة العطرة ، رائحة كولونيا لم أشمها في حياتي ، فيها كل الزهور مجتمعة ممتزجة ، بها وحدها فتحت عيني وتركت جسدي يسيل على كتفي حارسين قويين ، انتصبت الجدران مشدودة وبزغ في المكان رجال يقفون في انتباه وتخشب وثمة شخط ونظر وأبواق ، ورجل مقبل من الداخل نحونا في عظمة كأنما الأرض خلقت لقدميه فحسب ، يمشي في تؤده ووقار وغرور ويشع رهبة وانعكاسات حمراء قاتمة تسبح حواليه كدخان السيجارة . تمعنته فإذا به الرجل الذي أصدر الأمر بالقبض علي . ساهيت الحرس واندفعت نحوه صائحاً : « في عرضك يا بيه دانا راجل غلبان وأبو عيال . . وما ليش في السياسة ولا الإمامة . . ولا الكتابة ولا الحجابة . . أنا راجل لمؤاخذة طرشجي حلوجي وابن الطوبر هو اللي ضحك عليّ وبعتني بالورقة دي ». وقف الرجل مشدود القامة ناظراً إليّ في اشمئزاز وعصى الحرس تنهال على مؤخرتي وكتفي وأنا أتنطط صارخاً : « يا كفرة . . يا رفضة . . يا فسقة ». . حينئذ ارتفع حاجب الرجل في ذهول ولمعت في عينيه معان غامضة ثم صرخ :

ـ لعله من أتباع الإفرنج . . كيف دخل القصر ؟

فجاء الحرس يسبقهم « الاسفهسالار » ـ أي قائد المعسكر وهم يتعجبون من وجودي ، قال « الاسفهسالار »:

ـ لا تشغل بال معاليكم . . سوف تعرف كل شيء عنه . . ثم نظر إلى العسكر صائحاً :

ـ ضعوه في حبس المعونة ؟

فدفعوني بعنف شديد استعملوا فيه أقدامهم وأيديهم وألسنتهم في حين مضى الرجل الوزير واختفى . . فعاد « الاسفهسالار » وقال :

ـ ضعوه في خزانة البنود ؟

فانقلب الحرس يربت على كتفي برفق يكاد يعتذر عما بدر منه نحوي . فما أن خرجنا من البهو إلى الممر حتى تكفل بي عجوز طيب القلب وإن كان قاسي القبضة ، قلت له : « من هذا الوزير ؟». نظر في تودد وقال : « لو سألتني هذا السؤال وأنت ذاهب إلى حبس المعونة لركلتك ببوز حذائي . . أما أن تقوله

وأنت متوجه إلى سجن خزانة البنود فإنني لا أجد بأساً من إجابتك». وصار يتابع حركة يدي ويسيل عليها بنظرات ضارعة فأخرجت ورقة من فئة المائة مليم دفعت بها في يده فأطبق على يدي ولما سحبتها منه وجدت أن الخاتم الفضي الذي كان في اصبعي الصغير قد اختفى فلم أجرؤ على السؤال عنه ، وقال بغمزة من شاربه : « شف يا سيدي . . أما الوزير فهو المأمون البطائحي وزير الأمر . . وقد احتقرتك حين أمر بسجنك في حبس المعونة إذ أن هذا الحبس لا يدخله سوى المجرمين والمتشردين والهاربين من العدالة . . في حين احترمتك حين أمر بسجنك في خزانة البنود إذ أنها سجن الأمراء . وأرباب الدولة وغيرهم من الوجهاء ». ضحكت وقلت : « يعني أنك عرفتني من نوع سجني ». ثم أضفت : « قل لي اين سجنك أقل لك من أنت : قال العسكري العجوز : « بالمناسبة من أنت ؟». قلت له : « ابن شلبي الحنفي المصري الطرشجي الحلوجي الكاتب »، فرفع حاجبيه من الدهشة وأخذ يزوم . ثم أننا خرجنا من باب العيد إلى قصر الشوك المجاور للقصر الكبير فأشرفنا على خزانة البنود الملاصقة للقصر الكبير منذ أن بناها الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله أبو هاشم علي بن الحاكم بأمر الله . كان أمامها عسكري أبله الوجه أشار له العسكري المرافق لي فقام وفتح الباب وقال لي : تفضل . . فطفرت الدموع من عيني وأنا أدلف إلى جبل الظلام الكثيف .

أخذت أتخبط في الظلام لبرهة طويلة ، ميزت قدمي لمس الأرض خلالها ، ثم ما لبثت الأرض أن احتشدت بحشرات الأشياء المتراكمة المتجاورة ، تذكرت أن بيدي قداحة لإشعال السجاير أخرجتها وأشعلتها فرأيت معرضاً جميلاً لما يسمونه بالبنود أي الرايات والأعلام وما إلى ذلك، ما يربو على ألفي ورقة ، وما يزيد عن الآلاف من الفضة والذهب ، ورماح لا حصر لها ، وشارات ، وثياب تشريفات ودروع وزرد ، وسروج ولجم وحوالي مائة الف سيف مجوهرة ، كل ذلك في فتارين أو دواليب زجاجية أو أفاريز بارزة في الحوائط . أنطفأت شعلة القداحة ولكن الضوء بقي ، ولأمر ما خفت من بقاء القداحة في يدي ، فأعدتها إلى جيبي وجسدي يقشعر مما يمكن أن يحدثه أي

اشتعال خاصة وأنه على بعد خطوات مني توجد أعدال كتان وأمتعة كثيرة ، وفجأة انتفض الذعر بداخلي إذ رأيت بعض الفراشين مقبلين من ناحية باب آخر يمسكون بمشعدانات موقدة يحاولون تثبيتها في بعض الأماكن في حين دخل آخرون يقودهم رجل يبدو عليه الصلاح . فكرت في الإختباء في أي شيء ولكنني داريت خوفي بالسياج الأهوج كخفير الدرك . قلت : « من هناك ». فرد عليّ فراش هادىء قائلاً : « بسم الله الرحمن الرحيم » أيظهر العفاريت حتى بين البنود ؟». قلت : « ما عفريت إلا بني آدم . . فمالي أراكم تقتحمون خزانة البنود ؟». فقال الذي رد عليّ : « من الكريم ؟». قلت لا شأن لك بي وقل من أنتم وإلا ضربت في المليان ». فضحكوا جميعاً وقال الفراش نفسه بينما يشير إلى ذلك الذي يبدو عليه الصلاح : « أنه . . سعد الدولة ، المعروف بسلام عليك ». قلت : « أهلاً . . تشرفنا يا سيد سلام عليك ». قال الفراش « لا بد أنك تعرفه ». قلت : « محصليش الشرف ». قال : « سعد الدولة الشهير بسلام عليك » مولاي الخليفة المستنصر بالله قد وهبني كل ما في هذه الخزانة من جميع المتاع والآلات . فنظرت في ساعتي فوجدتني في صفر سنة إحدى وأربعمائة . فعدت أنظر إليهم وهم يشرعون في جمع الأشياء وتنسيقها وحملها ، وكنت أشعر أنني رأيت سعد الوله هذا من قبل في لقاء لي مع المقريزي ولكن المقريزي لم يقل لي من هو على وجه التحديد فحقدت عليهما معاً ، تقدم مني وسلم عليَّ قائلاً: « أحب أن اتشرف باسم الكريم ». فوقعت في حيص بيص ـ أي في ورطة والله أعلم ـ لكن الظرف تكفل بانقاذي من الرد ، إذ في لمح البصر سقط الشمعدان من يد أحد الفراشين وارتفع الصراخ في الحال ، ذلك أن قربات من النفط كانت موجودة بكثرة في الخزانة ، وراحت ألسنة اللهب تتقافز في نشاط مرعب وتلتحم بالجدران والمعروضات والدواليب وتتوحد بها في وهج كأنه جهنم ، وامتدت عشرات الأيدي فالتقت « سعد الدولة سلام عليك »، أما أنا فقد كنت من كثرة الحروب التي عاصرتها قد تكونت عندي مناعة ضد النيران فتسلقت قضيباً من الذهب وانزويت به في ركن بعيد وسيول الماء تتدفق عليّ وعلى المكان من كل جنب وصوب والهياج لا مثيل

له ، عشرات الألوف من قربات وزراقات النفط تتفجر فتحيي النار من جديد وأن هي إلا دقائق معدودة حتى كان كل شيء قد تحول إلى هشيم ، واندفعت وفود العسكر ورجال القصر والفعلة يرفعون أكوام الهشيم والهديم ليخرجوا من تحتها بقايا سيوف وبقايا ذهب وجوهر ، وبلغ عدد السيوف المجوهرة وحدها التي انقذت حوالي خمسة عشر ألف سيف سوى غيرها ، ومر يوم ويومان وربما شهور وأنا واقف في مطرحي أشهد المصير المؤلم الذي آلت إليه البنود، رأيت خلالها الفعلة يدخلون ، وينظفون الخزانة ويتركونها خالية مظلمة ، أشعلت سيجارة وسرحت معها في أمر المؤلفين والروائيين الذين قرأت لهم من أهل الغرب والشرق على السواء ، وكنت أحاول أصطياد معنى يجيء ويختفي مؤداه أن التاريخ المصري يتحدى مواهب أبنائه فكيف ينبغ بينهم نحات يطاول قامة الأزميل الذي تحت تمثال رمسيس وعشرات الآلاف من التماثيل العظيمة . وكيف ينبغ بينهم روائي يطاول خياله قامة هذا التاريخ أنه واقع تجاوز كل قدرات الخيال على التحليق والابتكار والتركيب ، من حسن حظ الذين برعوا كروائيين أنهم لم يقرأوا هذا التاريخ ولو قرأوه لاختشوا من محاولاتهم الساذجة ، فجأة انفتح الباب في صرير مزعج ، والقى في الأرض بجثة رجل صار يتخبط في الظلام ويسب ويلعن في هلفطة وفقهته ، صرخ لما توهجت نار السيجارة بين أصبعي ولكنني صرخت فيه بالا يخف ، وأمرته بالإقتراب ـ شأن أي بلطجي مسجون ـ فاقترب ، ثم انحط جالساً بجواري في خوف وهو يقول : « أجد معك ورقة ومحبرة وقلماً ؟». قلت : « نعم ها هي ذي » وأعطيته ورقة وقلماً . قال : « أجد معك مصباحاً ؟». قلت : « نعم ها هو ذا »، وأخرجت القداحة فأشعلتها فقال : « عن اذنك ». وصار يكتب ويشطب ويستحسن القلم ، فقلت : « ايه اللي بتهببه ده ؟»، قال : « أكتب رسالة للكامل بن شاور ». ثم راح يكتب مع الإنشاد : « أيا صاحبي سجن الخزانة خلياً نسيم الصبا يرسل إلى كبدي نفحاً . . وقولا لضوء المسيح هل انت عائد إلى نظري أم لا أرى بعدها صبحاً ؟ ولا تيأسا من رحمة الله أن أرى سريعاً بفضل الكامل العفو والصفحا ». قلت : « عال عال . . ومن أنت بحق الله يا هذا ؟». فنظر في وجهي مستنكراً وقال :

« إذا لم تكن تعرفني حقاً فأنا القاضي المهذب ابن الزبير وقد اعتقلت ها هنا » . ثم راح يواصل الكتابة حتى سخنت القداحة في يدي فأنطفأت ووقعت ورحت أتحسس الأرض بحثاً عنها فما وجدتها ولا وجدت القاضي المهذب وصرت أنادي ببدن مقشعر فلا يرد عليّ سوى صوتي نفسه يرتد عائداً من الجدران والأركان البعيدة .

انفتح في جدار الظلام عامود من الضوء الساذج مقبل من بعيد جداً كشعاع كشاف ، وسرعان ما تبين لي أن باب الخزانة الذي في مواجهتي تماماً على مبعد فدان مثلاً قد فتح ، وجاء يركب الشعاع صوت جهوري يقول : « أين المدعو بالطرشجي » . فلم يرد أحد سوى الصوت نفسه فعاد يقول : « أين المدعو بالطورشجي الحلوجي »، فرد الصوت على نفسه مرة أخرى ، فعاد يقول : « أين عميل بردويل الافرنجي ؟». فصحت قائلاً : « لا أحد هنا ». فقال : « وأنت . . لماذا لم ترد إلا حين واجهناك بالتهمة ؟». قلت : « معك حق . . إنكم دائماً هكذا معشر المحققين تضعوننا في موقف ذي حساسية تحاسبوننا على ما أصابنا من حساسيته . . ماذا تريد من ابن شلبي ؟». قال : « أكتب ما قلته الآن بالحرف وسلمه لي ». صحت من ذعر : « أكتب ؟ . . لا يا عم . هي الكتابة في السجن من أيامكم ؟ . . أما ما باعرفش أكتب ». لدهشتي سمعته يضحك . ويقول « اعني أن تكتب مظلمة . . اليست لديك مظلمة ؟ . . اكتبها إذن ونحن نقدمها لديوان المظالم ». قلت من فرحتي : « ليكن . . سوف أفعل ». ثم انسحب شعاع الضوء واضمحل ولكن ضوءه في دماغي لم يكن قد اضمحل بعد ، إذ تبينت أن أمامي مسافة هائلة للحركة كنت قد نسبتها ، بفعل الظلام ، فأخذت أمشي ولكن على حذر ، فلما الفت عيناي الظلام رأيت خلال الخلاء ملاء من الضوء يتزايد ، ويتفسر في رجال يلبسون بذلات من القصب يحملون سريراً وأمتعة رتبوها في الأرض فاندهشت من وجود هذا الفرش الفاخر في هذا السجن ، فما أن انتهوا حتى اختفوا كالجن ، ودخل آخرون في زي العسكر من ذوي الرتب يقبضون على رجل ذي أبهة كما يبدو ، ويقودونه برفق ويشيرون له على السرير والامتعة ويهزون رؤوسهم فيما يشبه الإعتذار وهو يتأمل

السرير في خيبة أمل ويبتسم في أسف وأخيراً هزَّ رأسه في تسليم فصرفهم وجلس على سريره خافض الرأس في إحساس شديد بالمهانة . وبعد برهة دخل حارس برتبة أيضاً انحنى أمامه الدجل وأشار إلى صبي خلفه فتقدم بكرسي عباسي فوقه صينية من الفضة مطروح فوقها ملاءة نظيفة تتجسد خلالها الأطباق فشكره الرجل فانصرف . وبعد برهة تقدمت أنا نحوه وانحنيت في تبجيل مثلهم ثم مددت يدي نحو القدر والكوب دون أحم ولا دستور فافرغت في الكوب شيئاً مما في القدر وشربته فإذا به شراب لم أعرف أسمه ولكنني وجدت الكوب لن يسعفني في ارتشاف الحلاوة فهمست برفع القدر نفسه إلى فمي لكنني عدت فوضعته وهززت رأسي شاكراً ، ثم أخذت ابصبص للصينية وكان الرجل يتابعني في ذهول نصفه رعب ونصفه غيظ فلما نظرته أشار لي بكفه في دعوة فرفعت الملاءة ونظرت فوجدت عليها صنوف الأطعمة والأشربة ففردتها من جديد وقلت : « خليها تنفع يمكن تطول المدة ». نظر الرجل إليّ وقال : « من العفريت ؟». قلت : « ما عفريت إلا بني آدم». قال : « من الشيطان ؟». قلت : « لا شيطان إلا من يقود الناس إلى التهلكة » قال : « فمن الجن ؟» قلت : « جن يلهفك ». قال : « تفضل بالجلوس ». فجلست بجواره ، فعطف عليّ بنظرة حانية وقال : « تظلمني متصوراً أنني من المتسلطين . . ولو عرفتني لاحترمتني ولو عرفت مأساتي اعذرتني ». قلت : « من سيدي ؟»، قال : « أنا الحسن بن علي الأنبهاري . . وزير الخليفة المستنصر ». قلت : « ومن وضعك في الحبس با وزير الخليفة ؟» قال : « الوزير الجديد : « أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي ». صحت قائلاً : « هذه سنة الحياة فلا حول ولا قوة إلا بالله ـ إن مجرد أبعادك عن الوزارة في حد ذاته سجن فلم الحبس بين الجدران في خزانة البنود ؟». قال : « هذه حكاية طويلة اتحب أن تعرفها ؟» قلت : « بكل تأكيد ». . فتربع الانبهاري . . وشرع يحكي :

ـ منذ أيام الخليفة الحاكم بأمر الله نبغ أخوان يهوديان يتصرف أحدهما في التجارة والآخر في الصرف وبيع ما يحمله التجار من العراق . . هما أبو سعد إبراهيم وأبو نصر هارون ابنا سهل التستري . . طار صيتهما في جلب ما يعجز

الآخرون عن جلبه . . فلما جاء الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ـ ابن الحاكم ـ استخدم أبا سعد إبراهيم بن سهل التستري في ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة ، وتقدم عنده فباع له جارية سوداء فتحظى بها الظاهر وانجب منها ولده المستنصر . . فحفظت لأبي سعد ذلك الجميل . . فلما أتت الخلافة إلى المستنصر ـ ولدها ـ قدمت أبا سعد وتخصصت به في خدمتها . . فقلت له : وما دورك أنت يا ابن الإنبهاري ؟

قال : عندما مات الوزير أحمد بن علي الجوجراي طلبت الوزارة وأعطبت لي . . فقصدني « أبو نصر ـ أخو أبي سعد ـ فتركت أحد غلماني يرد عليه ويصرفه . . فحقد علي وسعى إلى أخيه أبي سعد الذي سعى بدوره إلى أم المستنصر مولاته فتحدثت مع ابنها الخليفة المستنصر في امري فعزلني من الوزارة . . فسعى أبو سعد عند أم المستنصر ونجح في تعيين « أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي » بدلاً مني في الوزارة ، وتولى أبو سعد الإشراف عليه وصار الفلاحي وزيراً بالإسم أما الفعل فلأبي سعد .

قلت : إلى هنا والأمر طبيعي . . يحدث في كل عصر . . فما الذي جاء بك إلى الحبس ؟ . .

قال : جعلني ابن الفلاحي شغلته . . صار يغري بي ويصنع على ديوناً . . ويذكر عني ما يوجب الغضب عليّ . . وقد نجح . . فها هم ذا يقبضون عليّ .

قلت : بأي تهمة ؟

قال : استخراج من الدواوين أموالاً كثيرة مما كنت أتولاه قديماً والزمني بحملها . . وقد جاء منذ دقائق من همس في اذني بأنهم استصفوا أموالي .

ثم تنهد ونكس رأسه ثم رفعها وأراد أن يواسي نفسه فقال : « هل أنت مسجون هنا من زمن ؟ ». قلت له : « أنا مسجون في هذه الأرض منذ آلاف السنين ». قال رافعاً حاجبيه من الدهشة : « بأي تهمة ؟ ». قلت : « أسأل نفسك » فازدادت دهشته وقال : « كيف . . مالي أنا بسجنك ؟ ». قلت :

« أقصد تسأل أمثالك مما يعتلون أريكة السلطنة أو يتشعلقون بها، ولم أكد اتم حديثي حتى دخلت هيئة مكونة من ثلاثة رجال وسياف ، ووقفت أمـامنا وتقـدم كبيرهم من الأنباري فعلمت أنني لست في الصورة بالنسبة له ، وقال له : « يـا انباري . . لقد جئت لأنفذ عليك حكماً . . لقد ثبت أنـك متلاعب في أمـوال الدولة ومدلس عليها وخائن لمبادئها . . فأرجو أن تقبل عذري فيما سـأفعل ». ثم انحنى في تبجيل ونظر للسياف الذي جرد سيفه من غمده وهوى به على رقبة ابن الأنباري فطيرها وغمر وجوهنـا بالـدم الساخن . ثم لفـوا جثته في ثـوب ، وكانت الحفرة قد اعدت حيثما طارت الرأس ، ودفنوا ابن الأنبـاري ورأسه في الحفرة وأهالوا عليها التـراب وانصرفـوا كأن شيئـاً لم يكن . فبقيت مسمراً في مكـاني لا أريم وكانت سـاعتي تشير إلى يـوم الاثنين الخامس من محـرم سنـة اربعين واربعمائة .

مـر شعاع الضـوء الساذج من أمـامي فعرفت أن البـاب قد فتـح . وجاء الصوت يركب موج الضوء حتى أذني قائلاً : ابشر يا طـرشجي يا حلوجي . . لقد وصلت مظلمتك إلى ديوان المظالم . . ولسوف ينعقد الديوان عما قريب إن شاء الله فلا تقلق ». قلت لشعاع الضوء إن الإنسان لا يقلق فوق أي بقعـة في أرض مصر لأنها مسكونة بالأرواح وكلها أرواح ذات تاريخ ولا بد أن تطلع عليك لتحكي لك المزيد من الاشرار المـروعة وتسليـك وتطيب خـاطرك الثائر حتى ليصبح الإنسان من فرط الحذر بالحكمة غيـر راغب في أي ثورة . قـال شعاع الضوء بنبرة أسف إن الحبس قد أثر على عقلي ، ثم أخذ ينسحب متراجعاً إلى أن اضمحل، فإذا بي غير جالبس على أي سرر ولا شيء في الخزانة سوى الفراغ والظلام ، ميزت خلال الضوء المنسحب البقعـة التي دفنت فيها جثـة الأنباري الوزير ، وأنا رجل عشري ، دفعني حب العشرة إلى زيارة البقعة لقراءة الفاتحة على رأس الأنباري ، فما أن شرعت أخطو نحو رأسه حتى انبثق من البقعة نفسها ضوء مغيب صار يرق شيئاً فشيئاً إلى أن تكشف عن مجموعة من العسكر ذوي الرتب يقبضون على رجل يبدو أنه من علية القوم هو الآخر ، تركوه في مكانه ثم انصرفوا فصـار الرجـل يهذي ويصفق كفـاً على كف ويردد في هيـاج : « هذه

غلطتي الوحيدة . . أعطيت الأمان لمن هم غير جديرين به . . ولكن لا . . لا بد من تصحيح الأوضاع ولا بد أن يسمعوني بما فيه الكفاية . . أنه ظلم وأنا لا أستأهله . صحت فيه قائلاً : « بطل غلبة يا جدع أنت وجعت دماغنا » فصاح نحو صوتي : « اخرس يا حيوان يا دهماء . . اعرفت من أنا حتى تخاطبني بهذه اللهجة القذرة . . ثم أن خزانة البنود سجن للوجهاء فكيف يهم يضعون أمثالك فيه » . . تقدمت منه حتى يراني وقلت له : « من أنت يا سيدي ؟» قال : أنا ـ إن كنت لا تعرفني حقاً ـ أبو نصر صدقة ابن الوزير الفلاحي الوزير ». قلت : « الذي كان يعمل تحت إشراف اليهودي أبي سعد ويستمد القوة منه ؟». قال في ضعف : « أنت دسيسة ». ضحكت قائلاً : « أنا الدسيسة ؟». وما أن أتممت ضحكي حتى دخلت نفس الهيئة السابقة الحافلة بالسياف »، وناس تحفر الأرض ، وقال كبيرهم : « يا فلاحي . . قد جئت لأنفذ عليك حكماً . . لقد ثبت أنك متلاعب في أموال الدولة ومدلس عليها وخائن لمبادئها . . فأرجوا أن تقبل عذري فيما سأفعل ؟. ثم أشار للسياف . وكان الحفارون قد وقفوا مدهوشين فنظرنا في الحفرة وصلاح الفلاحي : « هذا رأس ابن الأنباري . . أنا قتلته ودفنته ها هنا . . يا إلهي . . رب لحد قد صار لحداً مراراً . . ضاحكاً من تزاحم الاضداد ». وحينئذ هوى السياف على رقبته فسقط رأسه في نفس الحفرة بجوار رأس ابن الأنباري ، فأهالوا عليهما التراب .

وهنا مر شعاع الضوء الساذج أمامي وجاء في الصوت قائلاً : « ابشر يا طرشجي يا حلوجي . . فقد نظرت مظلمتك ووقع عليها بالقلم الدقيق » قلت : « إذن فستفرج عني ؟. قال : « لا . . لا بد أن توقع المظلمة بالقلم الجليل ». ثم أضمحل قبل أن يشرح لي الفرق بين القلمين .

الفصل السابع

وغلقت الأبواب على أصحاب الأبواب

بقيت جالساً في خزانة البنود وحدي ارتقب أخبار جديدة بشأن مظلمتي التي قيل لي أنها شرفت ـ أخيراً ـ بالتوقيع عليها بالقلم الدقيق ، تمهيداً لنيلها شرف التوقيع بالقلم الجليل! . وكنت قد بدأت أعاني السأم من كثرة ما تواترت الأحداث في الخزانة وترادفت ، لا رأس تعلو على السيف ها هنا أبداً ، بل أن السيف لا يقبل الإنحناء مطلقاً ، ولا يميل نحو الرؤوس الواطئة أياً كانت قامة صاحبها ، إنما هو في شموخ وكبرياء هائلين يندفع كلمعة الضوء لتسقط الرأس العالية في الأرض . وكان مصدر الإطمئنان الوحيد بالنسبة لي هو أن رأسي لم ترتفع بعد إلى مستوى السيف . رفعت رأسي قليلاً وقذفت البصر إلى أعلى كأنني الوذ بالقوة الأعلى ، فرأيت سقف الزمن طبقات من السحب المتراكمة ضاع فيها سقفاً لخزانة نفسه حتى لم أعد أذكره ، خرجت من دماغي أشعة راحت تتسلط على السحب الرمادية محاولة إزاحتها ، وكانت الاشباح تروح وتجيء فلا أرى سوى اقدامها ، في الحق اعجبتني هذه اللعبة وتذكرت قصة كنت قد قرأتها لا أذكر لمن وكان بطلها يعمل في البدروم ويرى اقدام الناس فحسب وهي تمر رائحة عادية فكان أن اكتسب قدرة على معرفة الناس من خلال اقدامهم ، ربما أكتسبت أنا هذه القدرة في مدة وجيزة جداً حتى أنني تعرفت في آلاف الملايين من الأقدام التي تمر فوق سقف الزمن على بعض أقدام أعرفها وأعرف أصحابها ، فأخذت أداعبهم وأعاكس أقدامهم بقطع من الحصى أو الشنكلة فيتعثرون ويتماسكون في خوف ويستأنفون السير من جديد ، ثم إذا بسقيفة الزمن ترق شيئاً فشيئاً حتى أصبحت أرى الناس كاملة وهي تندفع من

بعيد إلى بعيد ، وكانت ثمة عربات تزحف بلا نهاية ، وكان الشيخ متولي الشعراوي يمشي بجلبابه البسيط وطاقيته البيضاء وعربات التليفزيون في اثره ، تتبعته حتى دخل مسجداً وتوقفت عربات التليفزيون وراحت تجري استعداداتها فعرفت أن ميدان المشهد الحسيني يقع فوق خزانة البنود مباشرة ، فقمت ومشيت داخل الخزانة إلى الخلف في اتجاه رحبة باب العيد ، ووقفت تحت مقهى الفيشاوي بالضبط وأخذت أتفرج على العجب العجاب ، رأيت أفواجاً هائلة من مشاهير مصر وادبائها وساستها وفنانيها يتوافدون على الفيشاوي ثم ينصرفون بنفس السرعة التي تستغرقها في رفع صفحة من كتاب ، إلا كلام عبد الفتاح البارودي عن الدراما لا يزال يرن ها هنا ؟!.

عدت ببصري إلى الأرض فكأنما انسدلت ستار على المرئيات ، إذا بالمقريزي يجلس بجواري مباشرة لكن حاجزاً زجاجياً غير مرىء يفصل بيننا ، صحت فيه : « أنت فين يا مقريزي من الصبح ؟». تلفت الرجل حواليه دهشاً فلما رآني قال : « أهو أنت ؟». قلت : « نعم أنا . . فمن الذي وضعك في الحبس معنا ؟». قال : أنا لست الآن في خزانة البنود . . إنما أجلس في منزل أحد الأصدقاء ». قلت : « كيف » قال : « هذا المنزل الذي أجلس فيه الآن يقع بين خط السقيفة وخط خزانة البنود . . وهو كما ترى يقع فيما بين درب السلامي من رحبة باب العيد وبين خزانة البنود ! . . وعلى فكرة . . هذا المكان الذي أجلس فيه الآن في هذا البيت كان يقف فيه المتظلمون للخليفة ». قلت : « لا بد أنك تجلس في بيت الجبرتي » قال : « فمن الجبرتي ؟». قلت : « الشيخ حسن الجبرتي أحد مؤرخي مصر في عهد محمد علي باشا الألباني واسرته الخديوية . وبيته في حارة هنا اسمها الصنادقية ». قال المقريزي : « المهم . . كيف آل بك الزمن إلى الحبس في خزانة البنود ؟». قلت : « نصيبي ». قال : « ما أحلاه من نصيب . . لقد صرت من علية القوم - ثم ضحك - ومن ثم أصبحت رأسك مهددة . أرتعدت . قلت له أنني تقدمت بمظلمة إلى ديوان المظالم وأنها وقعت بالقلم الدقيق ولسوف توقع بالقلم الجليل » . قال : « في أي عصر أنت ؟». قلت : « في عصر الخليفة الفاطمي

الأمـر بأحكـام الله ». قال : « ومن الـذي أخبـرك أن مـظلمتـك وقعت بـالقلم الـدقيق ؟!». قلت : « صوت السجـان ». قال : « لا تصـدقه . . إن التـوقيع بالقلم الجليل يتم في نفس المجلس الـذي يتم فيه التـوقيع بـالقلم الدقيق ». قلت : « فمن هـو صاحب التـوقيع بـالقلم الدقيق ؟». قـال : « الشيخ الأجـل صـاحب ديوان الإنشـاء والمكاتبـات أو كـاتـب الـدست الشريف . . ذلـك أن الخليفة لا بد له من جليس يذاكره ما يحتاج إليه من كتـاب الله وتجويـد الخط وأخبار الأنبياء والخلفاء ، فهو يجتمع به في أكثر الأيام ومعه أستاذ من المحنكين مؤهل لذلك فيكون الأستاذ ثالثهما ، ويقرأ على الخليفة ملخص السيرة ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، ويكـون صحبته للجلوس دواة محـلاة ، وله منصب التوقيع وله طراحة ومسند وفراش يقدم إليه ما يوقع عليه ، وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات في الرسوم والكساوي وغيرها ». قلت : « إذن فقد كذب على السجان الملعون ». فضحك المقريزي ووصمني بالسـذاجة وأضـاف قائـلاً أن حبسي في خزانة البنود يثير شهوة الكذب والنصب والاحتيال لدى الحرس، وأن عليّ أن أطلب مقابلة الخليفة وتقديم مظلمتي بنفسي فهذا من حقي . . ثم جاء من يدعو المقريزي للغـداء فأستـأذن مني واختفى ، وعم الهدوء خـزانة البنـود واحتواها الظلام . .

بحثت عن شيء اتسلى به فلم أجد ، فتذكرت أن معي مذياعاً صغيراً في حجم اليد أخرجته فرحاً وفتحته ورفعت صوته إلى أقصى حد ، وكانت أم كلثوم تغني بألحان محمد عبد الوهاب ، فإن هي إلا دقائق حتى رأيت جميـع أبواب الخزانة تفتح ويدخل منها العسكر ويقبلون جميعهم نحوي ينظرون إلى المذياع في انبهار ، فأغلقته ووضعته في جيبي فإزداد انبهارهم وتحول إلى شيء قريب من الخوف . قال رئيس الحرس : « أساحر أنت »؟ . قلت : « نعم وهذا شيء من اختراعي أريد أن أقدمه هدية إلى الخليفـة ». قال : « إذن فسلمـه لي وأنا أوصله ». قلت : « لا . . أريد تسليمه يداً بيد ». فجمع كبير الحـراس رجالـه ومضى وهو يرتعش ، ثم غلقت الأبـواب من جديد من حديـد . وبعد دقـائق معـدودة انفتح أحـدها ودخـل رجـل يـرتـدي حلة بـالقصب محـلاة بـالـذهب

والنياشين ، ويمشي خلفه رهط من رجـال يبدو عليهم أنهم أمـراء أو كأمـراء . تقـدم نحـوي وانحنى قليـلاً وقـال : « هـل أنت صـاحب السعـادة الـطرشجي الحلوجي ؟». قلت : « نعم هـو أنـا ». قـال : « أنعم وأكـرم ». أين هـديـة الخليفـة ؟». قلت : « فمن أنت ». أبتسم في خجـل الكبـار المشـاهيـر حين يضطرون إلى التعريف بأنفسهم ، ونظر حواليه فتقدم أحدهم وأشـار إليه قـائلاً لي : « هذا هو المعظم صاحب الباب . أما نحن فأرباب السيـوف ـ أمراء . . وأن شئت فأنا صـاحب النيابـة الشريفـة أي نائب هـذا الرجـل ». قلت : « ما أسمك ؟» قال : « هدى الباب ». قلت : « هذا هو اسمـك ؟» قال : « هـو ما أنعت به أبداً ». قلت : « فما مهمتك يـا سيد هـدى الباب ؟». قـال بتواضـع جم : « أتلقى الـرسل الـواصلة من الدول ومعي نـواب الباب في خـدمتي . . أحفظهم . . وأنزلهم بـالأماكن المعـدة لهم . . وأقدمهم للسـلام على الخليفة والوزير . . ويكون صاحب الباب يميناً وأنـا يساراً . . أتـولى افتقادهم والحث على ضيـافتهم ولا أتيح لأحـد التقصير في حقـوقهم واجتمـاع النـاس بهم . . والإطلاع على ما جاؤوا فيه . . ثم أعمل على منح نقل الأخبار إليهم ».

وضعت ساقاً على ساق وقلت ما شاء الله ما شـاء الله كنت أظن أنني لن أقابل مثل هذه الشخصية الحافلة إلا في عصرنا نحن بنو شلبي . وقال صاحب الباب في لطف : « ما حقيقة مـا يحمله سيدي على التحـديد ؟». قلت لـه : « أولاً أنا لا سيدك ولا حتى سيد نفسي . . خلي بالك من دي . أنا . . راجل زي حالاتك لمؤاخذة . . برضة باخدم في القصور ، بس القصور اللي عندكم قصور موجودة بالفعـل ، إنما أحنـا بقى . . قصور في الهـوا . . فتاكـة بقى . . مصرنة . ولو شفت السيما بتاعتنا ولا التليفزيون بتاعنا حتلاقيها معنيـة بالتـاريخ لأمجادنا العظيمة ، وبفضلها وحدها أصبح أي طفـل صغير في أي قـرية نـائية ـ والحمد لله ـ يعرف أننـا نحن الذين دهنـا الهوا بـالدوكـو ونحن الذين خـرمنا التعـريفة نحن الـذين وضعنا الفيـل في المنديـل ناهيـك عن وضع الشنب في المصيدة . . قصر الكلام يا صاحب الباب قل لي ما هي شغلتك في القصر على الحقيقة لكي أفضي إليك باختراعي ». قال صاحب الباب في أدب مثلج ونبرة

لبقة : وإذا لم يكن سيدي قد استوعب بعد حقيقة دوري فإنني أبعث إليه الأمل في فهم جيد . . ولسوف يراني سيدي على الطبيعة ». قلت له بما يقارب الغضب : « طبو ما لكم واقفين كده زي اللي عاوزين تقبضوا على . . أيه . . لكم حاجة عندي ؟». فتبادلوا نظرة دبلوماسية مبتسمة تقدم مني صاحب الباب في لطف أشار إلى من بجانبه قائلاً : « أقدم لك الاسفهسالار ». قلت رغم أنني أعرف : الاسفهسالار . ؟! . . يعني أيه اسفهسالار . . أنت حتهددني ؟ » .

قال بابتسامة : « عفواً . . الاستفهسالار هو زمام كل زمام ، إليه أمور الاجناد ».

قلت بغيظ : « يعني بتهدذني . رئيس الاجناد تبقى بتهددني». فتبسم قائلاً « اقصد أن أقول لك أنه يليني في الرتبة ». قلت بجفاء واشمئناط : « تشرفنا » .

فقال صاحب الباب مغطياً على صوت الجفاء : « يلي الاسفهسالار حامل سيف الخليفة أيام الركوب بالمظلة واليتيمة . . بعد كده بقى . . من يخدم طائفتي الحافظية والأمرية وهما وجه الاجناد . . وهؤلاء أرباب الأطواق . . يليهم أرباب القصب ، والعماريات ـ الاعلام ينعي ـ ثم زي الطوائف ثم من يترشج لذلك من الآمال ». صفقت كفاً على كف وقلت : « والله عال . آأنت يا أستاذ حتوصف لي مولد سيدي القناوي ولا سيدي مش عارف مين » ضحكوا جميعاً في الحال وصفقوا على أكف بعضهم البعض وقال الاسفهسالار : « طب يا أخي لما أنت عارف الموالد . . مالك مش عايز تتفاهم معانا مش تخليك ابن بلد ؟» .

تنازلت بمد كفي نحوه في دعوة للمصافقة فلباها في خبطة سريعة نزقة أشعرتني أنه يخفي بداخله طفلاً تشرد لي الحواري والخرابات ونام داخل مواسير المجاري وصادق خفراء المباول . قلت لهم : « ما تقعدوا يا اسيادنا ». فإذا بلفيف من القصرية يقبلون مسرعين كأشباح الذين يغيرون ديكور المناظر في العروض المسرحية ، عدد من الكراسي الفاخرة الموشاة بالذهب جيء بها وارتصت فجلسوا جميعهم وبقيت وحدي على الدكة الخشبية التي لا ترقى إلى مستوى أي دكة في أي قسم شرطة في مصر . قال صاحب الباب دون مناسبة : « على فكرة . . الدولة لا تسند مثل هذه المناصب إلا إلى أرباب الشجاعة والنجدة ». قلت كأنني أنا فقه : « نعم نعم . . لا شك . . ولهذا دخل في مثل

هذا المنصب أخلاط الناس من الأرمن والروم وغيرهما ». قال الاسفهسالار والغضب يبرق في عينيه على بعد آلاف الأميال : « يعني تقصد أيه مش فاهم ». قلت محاولاً كتم نفس الخوف الثابت في جوفي : « لست أنا الذي يقول هذا . . أنه المقريزي . . أنه ليس فقط يقول هذا بل هو الذي قال ما قلته أنت وهو منذ دخولكم . لقد رددتم كلامه بالحرف ـ ربما لأنه كان ترديداً لكلامكم في الأصل والله أعلم ». قال صاحب الباب في حرفته تشريفاتي عريق : « الواضح أن سيدي قد ألفنا مثلما الفناه . . ليعلم سيدي أننا لا نريد سوى خيره وحمايته . . وأنت تعرف أننا قد صرنا في مهب رياح تقذف علينا بالفرنجة ونخشى أن يكون دماغهم قد تفتق عن حيلة جديدة تؤدي بحياة أمير المؤمنين ». قلت وأنا انفث دخان سيجارتي : « طبعاً . . تحرصون على حياته من حيل الفرنج الغادرة . . ويغتاله أشباه الرجال وهو يعدي الجسر إلى الروضة ». قال الاسفهسالار : « ونحن نبيد كل دخيل افرنجي غاز . . وما قصة البردويل ببعيدة ». قلت ضاحكاً : « وما لكم أنتم بما حدث . . لقد دخل بردويل واحتل مدينة الفرما فهبت عليه طوائف الشعب ودمرته عن آخره وحرر المكان لنفسه زمناً في التاريخ فتفرعت من أنهار العاطفة المصرية الأصيلة بحيرة البردويل ». قال الاسفهسالار بصلافة واضحة : « اسمع . . أنت لمض وأحنا مش فاضيين لك . . طلع اللي معاك ». فضغطت ركبتي في ركبتي لاوقفهما من الرعشة المفاجئة ونظرت إلى صاحب الباب نظرات استنفار أو استعطاف لا أذكره فصار يهز جماع انامله المضمومة في الهواء أمام الاسفهسالار طالباً الهدوء والتروي ، صرت أقلد صاحب الباب في حركته حتى كدنا نلكز وجه الاسفهسالار، ثم بحركة مسرحية صحت قائلاً : « والآن . . افتحوا آذانكم ». وامتدت يدي داخل جيبي فضغطت على ذر أرجع الشريط الكاسيت الذي كنت أسجله لهم، وهم يسمعون الأزيز ويتعجبون ويخافون ، ثم ضغطت على الزر فانطلقت أصواتهم تحكي كل ما دار من حوار وما ارتفع من صوت فبهتوا جميعاً وركبهم الذهر والدهشة والهستيريا الضاحكة . ونهض صاحب الباب قائلاً في حماس : « فليتفضل سيدي معي لمقابلة الخليفة ». فقمت في الحال ، تراجع موسعاً لي فضربت الهواء بقدم

نزقة ومضيت أمامهم في ثبات وزهو . .

فما أن خطوت خطوتين حتى أحسستني أمارس الشعور بالندم والحنق ، ذلك أن هذا الجهاز لم أدفع ثمنه بعد ، وقد أوصيت فاشتراه لي صديق يسافر إلى بور سعيد ، وكنت أظن أن زمالته لي ستمكنني من امتلاك مثل هذا الجهاز بسعر لا يتجاوز ما سنقبضه في منحة « عشرة أيام » انعمت بها الحكومة علينا بمناسبة دخول المدارس ! لكن الزميل سامحه الله لم يعفني من الجمركة فبقى له في ذمتي بضعة جنيهات وعدت أن أدفعها على مرتين على شهرين . . ولم أهنأ بالجهاز بعد، فكيف أفرط فيه بكل بساطة كهدية لواحد حتى ولو كان الخليفة الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين! . لكنني تعشمت خيراً فيما سوف ـ لا بد ـ يخلعه على الخليفة من سائر المنح ، وبحكم المناخ الذي أعيشه خلال هذه السنوات الأخيرة رأيتني أفكر بنفس المنطق الذي صرت أتنفسه كل يوم : أذهب للسؤال عن صديق فيقولون لي : «سافر يرأس تحرير مجلة في وادي النمل» أشتاق لعزيز فيقولون لي : أما علمت. . ربنا يعطيك. . لقد بنى بالأمس عمارته السابعة إذ هو يدير بنكاً في سهل الأشرم » . أفتقد شخصاً طريفاً بريئاً من كل ذنب فيقولون لي : « ذهب لينشىء داراً لكذا وكيت » . وهكذا فقدت كل أصدقائي وأحبائي الذين ذهبوا يرأسون ويرقصون وينشئون ويفعلون مالا يتصوره الجنون ، صحيح إنني كثيراً تفاجئني الظروف بواحد منهم أمامي وجهاً لوجه وربما جلسنا وتذاكرنا ولكنني مع ذلك لا أكون قد وجدته ، حسن ، فليسافر من يريد إلى ما يشاء وأما أنا فقد أخترت السفر في الزمن ويبدو أنه مشروع قد بدأ يؤتي ثماره الطيبة ، لسوف أدخل على الخليفة دخلة كبيرة ، نعم أنا لست أقل من أحد ، سوف اتعاقد معه على إنشاء إذاعة مرئيتو مسموعة، يا حبذا لو تعاقدت أيضاً على إنشاء مصلحة سينمائية جزارية شعبية، الأفضل أن أكون جامعاً مانعاً شاملاً، فأتعاقد مع الخليفة شخصياً على إنشاء شبكة للقمر الصناعي وأخرى للزراعي ، بهذا وحده استطيع أن أعود إلى قاهرة القرن الرابع عشر الميلادي وأجمع الموهوبين المشردين من بني شلبي وما أكثرهم فأكتب لهم عقوداً في عشرات المهن والحرف بأجور بالنسبة لهم معجزية تماماً ، صحيح أنني سأسفحه في نصف ما

يستحقه تقريباً ليضاف إلى مستحقاتي العديدة ولكن أي صعلوك من بني شلبي يقبل العمل بأي سعر أفرضه عليه، ثم أنني لن أختار سوى الموهوبين منهم ـ أقصد الموهوبين في مهنة الخدم ، أكثرهم قدرة على الحركة أحسن من يداعب أطفالي ويوصلهم إلى المدارس ، ألبق من رأيته يقدم القهوة لضيوفي الأجانب ، أقواهم ذاكرة في الاحتفاظ بعشرات الحوارات التي سمعها في عشرات الغرف ليحكيها لي بكل التفاصيل ، أكثرهم تجاوباً مع رغباتي وتقمصاً لآرائي ، أخفهم دماً على قلب زوجتي ، أقلهم قدرة على المساومة ، ثم لماذا يساومون ؟ أنني أعرف أصلهم واذكرهم به لو تبجحوا فبائع الجرائد وبائع الكازوزة وبائع الفول حين يصبحون افندية محترمين يمسكون الدنانير كبقية الخلق عليهم أن يقبلوا قدمي ظهراً لبطن .

أفقت على صاحب الباب يضغط على كتفي برفق قائلاً : « أجلس ها هنا برهة »، وأشار إلى كرسي فإذا بنا في غرفة شرقية عظيمة على صغر حجمها تتفرع منها عدة أبواب من خشب الصندل التخين محفور عليها كلها قصة استشهاد الحسين وكل ضلفة تأخذ شكل صفحة الكتاب المحلى ببرواز إسلامي جميل غاب صاحب الباب وراء واحدة منها ثم خرج متهلل الوجه والاسارير . قمت لاستقباله فوضع يده على كتفي همس قائلاً في تبشير : « لقد نقلنا للخليفة كل ما رأيناه بدقة ـ لسوف يقلدك الوزارة دفعة واحدة إذا كان في سحرك الذي معك منفعة كبيرة للناس وللدولة ». قلت : « هو ده الكلام . . أي نعم فيه منفعة وأي منفعة». قال: « على فكرة قلت لمولاي أنك ابن بلد ونقي السريرة وسريع البديهة ومثقف ». قلت : « ربنا يكرمك . . لك الحلاوة إن شاء الله ». قال : « هو الآن في مجلس النظر في المظالم ـ وقد أعطى الإذن بدخولك عليه »، ثم أضاف : « من حسن الحظ أن أرباب الظلامات قد انصرفوا مبكراً ». ومد يده لفتح لي الباب فدخلت فتاهت عيناي في القاعة الهائلة العالية الجدران في المواجهة سرير الملك من الذهب وخلفه شباك تعلوه قبة ، الخليفة الآمر بأحكام الله جالس على سرير الملك وحوله جمع عرفت بالفهلوة أنهم أجلاء أهل الإمارة . كنت أعرف أن ثمة طقوساً علي أن أفعلها ولكنني تغافلت عنها بلا

دوشة دماغ وهتفت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فنظروا جميعاً إليّ في اندهاش عطلهم عن رد التحية . فأحسست أن موقفي سيبوخ ، فمددت يدي في جيبي واخرجت الجهاز وقلبته بين يدي ثم وضعته في جيبي من جديد وعيونهم تكاد تدخل جيبي معه والغيظ والحنق والجلافة والصلافة والقهر والعصبية كل ذلك واضح تمام الوضوح في سيماهم. ربشعة أ، شديد الأدمة ـ على فكرة مانيش فاهم الكلمة دي لكن شكلها حلو ـ جاحظ العينين يكاد بك شيء فيه يقول : أنا مهم ، شاب هو في عز الشباب ، تطل من تحت عباءته عشرات العباءات الثمينة وتلمع على صدره وفي أكمامه ويديه ورقبته عشرات الفصوص الزمردية والذهبية كعيون بلهاء ساحرة في نفس الآن رفع الخليفة رأسه نحوي على بعده البعيد وقال : « تقدم يا هذا ». فتقدمت بضع خطوات وهزني الشعور بالضآلة فتوقفت ، فقال الخليفة باسماً : « إذا صح ما سمعته فإن الدولة ستفيد بك الديار المصرية والعربية أجل فائدة ». قلت : « هو صحيح يا مولاي » قال : « فهل يستطيع هذا الكف المعدني الذي يجيبك أن يلتقط الأصوات ويحفظها ويعيد ترديدها من جديد ؟». قلت : « نعم يا مولاي ». قال : فهل يستطيع أن يتجسس على أصوات أعداء الخليفة والحاقدين عليه ؟». قلت باسماً في تهكم : « نعم . . نعم يا مولاي ». قال فهل نستطيع أن نصنع منه آلاف من الذهب والفضة والياقوت والصندل ؟». قلت : « بكل تأكيد يا مولاي ». قال : « فهل يستطيع أن يبدد سأم الخليفة ويعالج وجدان الرعية وأدمغتها من أمراض الفكر والقلق وما إلى ذلك ؟». قلت : « جداً جداً يا مولاي ». قال : « لو صح هذا لقلدتك وزارتي ». « لسوف اسمع مولاي كل ما قاله الآن : فأرتبك الجميع وبدا عليهم التحفز والخوف والفرح . قال الخليفة : « إذن فقد قلدتك وزارتي » ثم تأهب وبدا عليه أنه ينتظر مني فعلاً ما ، ولما لم أكن أدريه فقد وقفت مرتبكاً واكتفيت بالإنحناء والاعتدال مرات عديدة ، إلى أن لحق بي صاحب الباب في عدلة أمسكني فيها ومنعني عن مواصلة الإنحناء وهمس : « ادخل إلى مولاك وسلم عليه وقبل الأرض بين يديه ». قلت ، « بكل سرور ». وكنت قد رأيت أحدهم ذات مرة يبرك على الأرض بين قدمي الخليفة

فيشبعها لثماً وتقبيلاً كأنها ثغر معشوقته ، ففعلت مثله ، إذ بـركت على الأرض ولثمت الأرض من فوق كفي في « أونطة » متقنة ثم نهضت واقفاً فمد لي الخليفة يده فسلمت عليها بحرارة ثم قبلتها فإذا به يمـد لي قدمـه ، وقفت مشدوهـاً ، وصار الجميع يتبادلون النظر في كسوف ، ويغمـزون لي نحو قـدم الخليفة أن ألثمها هي الأخرى كما نفعل ، وكنت أعرف أنهم جميعاً يفعلون هكذا وأن هذا من شروط العلاقة ، لكنني ظللت مسمراً في مكاني لا أريم تتملكني الرعشة . قال الخليفة أمراً : « قبل قدم الخليفة » قلت : « ضروري يعني يا مولاي ؟!» . صاح بحدة : « قبل قدم الخليفة ». فلويت شفتي كطفل عنيد وتهيـأت للجعير الباكي ، ويبدو أن الخليفة قد أحس بأنني سأفعلهـا فاستـرد قدمـه إلى السريـر مفتعلاً ابتسامة وقال : « أعفيناك من هذا الأمر تقديـراً لظروفـك . . أجلس » . فجلست . قال : « هات ما معك ». فأخرجت الجهاز وفتحته ولكن صـوته لم يخـرج ، فنظرت فيـه بقلق وأخذت أحـرك واداعب كل ازراره دون فـائدة وهم ينتظرون وكان على رؤوسهم بلاليص مياه ملانة. تصبب العرق مني وقلت بريق جـاف : « معنديش فيشـة هنا !». فنـظروا إلى بعضهم البعض في استـهجـان فصحت قائلاً : « قصر زي ده ما فيوش بريزة ولا اثنين » ثم استدركت قـائلاً : « آه . . نسيت أن معندكش كهرباء » فصاح الخليفة غاضباً : «ماذا كهربا وماذا فيشة وماذا بريزة . . لم لم ينطق ». قلت يا هذا : « أصل الحجارة خلصت». فقال : « أرني » فأعطيته له ، فصار يقلبه في عجب ويضغط على ازراره بحذر ثم رماه على طول ذراعـه فظهـر في الحال من تلقفـه وأنا ألاحقـه بهلع ، وإذا بالخليفة يصيح : « طرشجي نصاب . أعيدوه إلى خزانة البنود مرة أخـرى » . فهبطت الأيدي على كتفي كالخفافيش وأطبقت .

الفصل الثامن

حينما يصبح الحبس موطناً

لم يكن يدور بخلدي أن سوء الحظ سوف يحالفني هكذا ، حتى ليصبح مصيري مرتبطاً « بزرجنة » هذا الجهاز الصغير المعقد ، كان يجب أن أكون مسيطراً عليه بمعنى أن أعرف كل دقائقه قبل أن أفكر في إتخاذه وسيلة للتسيد ، عالم ثالث بعيد عنك ، يتصور أن استيراد المنتجات الصناعية من الحضارة أو من التحضر ولا يعلم أنه حتى لو عرف سر الصنعة فهو مجرد مستهلك لها ، بل حتى لو كان يملك مادتها الخام ، إن المسألة أكبر مما يتصور بنو شلبي بكل فروعهم في انحاء المنطقة ، هكذا رحت أحاول استرضاء الخليفة والتسرية عنه ولكن العسكر سرعان ما أحاطوا بي في حرج ، إذ يبدو أنهم غير متعودين على مهاجمة أحد ممن يجلسون في مجلس الخليفة ، ربما كان السبب انهم لم يتعودوا حضور دهماء مثلي يعكرون مزاج المجلس . سبقهم الاسفهسالار قبل أن يستخدموا النذالة معي ، حرصاً على مظهر الخليفة لا حرصاً على مظهري بالطبع . وكنت أشعر أنهم جميعاً ـ كافة أكابر المجلس واصاغر العسكر يحقدون عليّ لأنني عملتها حلوانة في سلوانة وامتنعت عن تقبيل قدم الخليفة التي انحنى لها ذوو رؤوس أجعص من رأس أبي عليه السلام ـ أقصد عليه رحمة الله . ولهذا رحت أرتعش مما سوف يصيبني فور مغادرتنا لمجلس الخليفة الآمر . فمضيت وقد دبرت في نفسي أمراً . .

تقدمني الاسفهسالار وتعقبني العسكر حتى خرجنا من القاعة وهبطنا الدرج وانطلقنا إلى الممر الذي جئنا منه ثم ما لبثنا أن خرجنا من رحاب القصر

إلى ما يجاوره وكانت خزانة البنود قد ظهرت أمامي على حقيقتها فإذا بها مكان كبير جداً يصلح لإقامة عـدد من العمائـر الهائلة نـاطحات السحـاب ، لولا أن السحاب في عصر ذاك أعلى من أن ينطحه أحد ، وقلت محاولاً استعادة مركزي في نظر الاسفهسالار : « أعرف شركات أجنبية تستـطيع أن تقيم لكم في هـذا المكان وحده حيا بأكمله من ناطحات السحاب ». فقال الاسفهسالار ساخراً : « ليس من أهـدافنا نـطح السحاب . . ثم لمـاذا ننطح السحـاب أو نعمل على نطحه ! ». قلت : « تحلون بها مشكلة الإسكان ». قال : « أهم مشكلة تواجهنا الآن هي حضرتك » ثم تقدمني ، وفصل ظل شجرة بيني وبينه لبرهة . فخيل لي أن طوابق من الأزمنة تنهار فوق دماغي السحاب وأنا في محاولة لنطحه مستمرة ، بجهد جهيد استطعت أن أميز في أعلى طابق زمني عمائر شويكار هانم التي تقوم فوق دكاكين خان الخليلي ، ورأيت محل البان السنوسي وخلفـه المقهى التي أجلس عليها كلما زرت الحسين ، وفي الطرف الخلفي البان المالكي ، وكنت قد أوشكت على الصعود تماماً لولا أن شخطة الاسفهسالار أرعدتني وسمـرتني في الأرض ، كان قد وصل إلى باب خزانة البنود ولم يجد البـواب قائمـاً على بابها فشخط في الفراغ يشتم ويسبب ويعترض على سوء النظام الذي يوشك أن يؤدي إلى انهيـار ، وراح يخـطو هنـا وهنـاك بحثـاً عن البـواب التعس ، وراح العسكر يساعدونه في التلفت والبحث وقد وقعوا جميعاً في لخمة ، قلت هـذه فرصتي ، أخذت أشاركهم في البحث أنا الآخر وأبدي اعتراضي على أهمال هذا البواب . . « القذر » وأوصى بـرفده وأزعم أنـه لو كـان في عصرنـا لشنق ، ثم دحرجت نفسي شيئاً فشيئاً نحو باب بوابة يفح منها الظلام فإذا بي قد صرت خلف الخزانة في ناحية بعيدة ، ولم يكن ثمة أحد على الإطلاق يمشي بجوار الخزانة فجلست على بروز عريض في أسفل الجدار وأحسست بالرطوبة تسري في مفـاصلي ، ورأيت مجموعـة من العسكر يقبلون من بعيـد في خـطو عسكـري منتظم ، وكانوا يلبسون زياً مختلفاً ، قلت في عقل بالي لا بد أن احتلالاً أجنبياً قـد وقع بـالبلاد ، فـإذا بهم يتحركـون في ثقة واطمئنـان شـديـدين حتى لقـد تساءلت : هل هذه صفة المحتل أم هي صفة ابن البلد ؟ ولم أعثر على الجواب

لكنني تمعنت في الوجوه فخيل إليّ أنها مألوفة لي وفي الملابس فخيل إلي أنني رأيتها كثيراً في البلاد . اختفى العسكر دون أن يعيروني التفاتاً فاستغربت ، بل تجرأت قليلاً فنهضت واقفاً أنظر إلى جدار الخزانة من الخارج فأجده كالحاً مفعماً من كل ناحية، تجرأت أكثر فتسلقت البروز وأنشبت أظافري في الشباك الصغير حتى وجدت بعض حديده قد تآكل وتغزز من الحائط فسمح لقبضة يدي بالمرور ومعالجة الباب الحديدي المستدير كباب الميرايطة في السفينة ، دفعته فانفتح فنظرت داخل الخزانة فإذا بها حجرة صغيرة تطل على ممر طويل ، وإذا بها خالية تماماً من أي نفس ، ولم أصدق أن هذه هي خزانة البنود التي حبسوني بها والتي هربت من استئناف الحبس بها ، ونزلت من جديد وجلست فرأيت جموعاً هائلة من البشر ، أشكال وأنواع لا استطيع حصرها ، وجوه حمراء مستطيلة وأخرى سمراء مستديرة وثالثة كالقمر واربعة كالسكرة الشراب ، وجوه لا يجمعها دماء واحدة ولا ملامح واحدة ولا يجمعها أي شيء سوى أنهم جميعاً يتكلمون لغة واحدة هي النطق المصري العامي للعربية الفصحى ، ويصبحون بصوت واحد ذي هدير مهول : « قلاوون أيا قلاوون . . النصر لك والعون » . الإنسان منا يشبه الموج لا فرق ، يمكن أن تجرفه الأمواج بسلامة ، أمواج الحماس دفعتني في قلب الجموع رغم أنني لم أكن عرفت بعد ماذا في الأمر ، ووجدت بين الجموع كل اصدقائي الكبار من امثال ابن عبد الحكم وابن عبد البر وابن عبد الظاهر وابن تغزي بردى وابن إياس وابن الغرطوس وابن المركوب وابن المضروب على عينه كلهم يمشون ويبدو أنهم يشاركون في الهتاف مع أنك لو اقتربت منهم لوجدتهم لا يهتفون ! .

سحبني ابن تغري بردي على جنب وقال في همس : « ماذا كنت تفعل عند خزانة البنود ؟» . قلت في شيء من التفاخر : « كنت في الحبس » . فلم يبد على سمت الرجل ما ينبيء عن تقدير أو أكبار ، فاستغربت ، فاستغرب من استغرابي فقلت له أن التفاخر بالحبس عدم المؤاخذة آفة كانت منتشرة بين جيلنا نحن العيال والخارج منه بطل موشوم بشارة النضال والعياذ بالله ، ثم أبعدت الموضوع فقلت لابن تغري : « ما الأمر ؟ ما الذي يحدث الآن ؟» . قال أن

الأمة خارجة لاستقبال الملك الناصر محمد بن قلاوون العائد منتصراً من الكرك وهو السلطان التاسع من ملوك الترك بالديار المصرية . قلت : « فهل كان يحارب التتار ما يزال ؟». قال : « لا . . لقد أصبح التتار والمغول حقيقة بارزة وموجودة في المنطقة وبطل الحرب معها باستثناء المشاحنات والخلافات الحادة المستمرة . . لقد انهزم التتار والمغول مرات وانتصروا مرات ولكنهم اكتسبوا وجوداً في المنطقة لا قبل لأحد بمناهضته ». قلت : « فكيف قدر لهم ذلك ؟». قال : « أنت لا شك تعلم الحقيقة المرة » قلت : « زدني بها علماً ». قال : « إن أي مستعمر أو غاز لا يعدم بين ابناء هذه الأمة العريضة جنوداً لصفه . . ما عليه إلا أن يدخل قوياً . . فإن كانت له السيطرة على المعارك الأولى فلتنهزم بعد ذلك جيوشه وليدب فيها الطاعون فلسوف يستعيض عنها بجنود متطوعين !. قلت : « هذه مبالغة يا ابن بردي . . أنت تتهم امتنا بابشع التهم ». قال : « رأيي هي أمتنا وسط كل هذه الركام . . إن الغزاة والمستعمرين سرعان ما يصبحون من بين امتنا » وكل الموبقات ترتكب باسم امتنا ». فقلت : « هذا صحيح يا ابن تغري ولكن المؤسف أن كل السفاحين والغزاة والمستعمرين استخدموا جنوداً من بيننا . . وكم من أبطال ضاعوا بأبخس الأثمان وكم من عظماء قتلهم أشباه الرجال وكم من مواقع عالية القيمة هبطت إلى سفح الحضيض في قابل الأيام ». قال ابن تغري وهو يغذى انفه ببعض النشوق : « هو الظلم . . هو الجبروت المستبد يملأ الارض جرراً . . إن تفشي الظلم واستبداده يخلق من الأخوة أعداء ثم ما يلبث أن يخلق من الشخص نفسه عدواً لنفسه ذلك هو الانتحار المبين لهذه الأمة أن يفرط الفرد في الجماعة فتسقط من قوته ومن خلقه ومن تحته كل الجدران والستر ». ثم قال بعد برهة : « هذه هي المرة الثالثة التي يتسلطن فيها الناصر محمد بن قلاوون ويعود من الكرك ليجلس على اريكة السلطنة في القاهرة . وفي هذه المرة الأخيرة كان التآمر عليه من اثنين من مماليك ابيه المنصور هما بيبرس الجاشنكير المدعو بالمظفر والآخر يدعى سلار . . وكان قد قرف من السلطنة بعد عودته من حروب التتار في الشام واكتشف أنه لم يعد يحكم وإن مقاليد الأمور بيدي هذين

المملوكين مع ملاحظة أن الثاني وهو سلار استعمل الخيانة المزدوجة فباع السلطان ابن استاذه للجاشنكير وباع الجاشنكير فيما بعد للسلطان وها هو ذا يجلس في انتظاره في القلعة بعد أن أصدر البيانات التي تجرم الجاشنكير وأفرج عن مماليك السلطان الذين كان الجاشنكير قد اعتقلهم ». نفخت في غيظ وقلت : « اسكت يا ابن تغري اسكت ولا تقلب المواجع » . . وكانت ساعة يدي تشير إلى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال سنة ثمانية وتسعين وستمائة . . ثم عدت وقلت : « ولكن كيف تأتي للسلطان أن يعود منتصراً على مماليك ابيه رغم أنهما قد جرداه من كل شيء ورغم أنه ساعدهما على ذلك قرفاً وتقززاً ». قال ابن تغري : « إن الكلب يصاب بالسعوار حين يذوق طعم الدم الساخن واللحم الحي . . ولعبة السلطنة هكذا . . فما اكتفى المملوك بطرد ابن استاذه ومولاه وانتزاع ملكه فأراد أن يجهز عليه لتستقر مؤخرته على أريكة السلطنة . . ولكن مماليك قلاوون البرجية كانوا عدداً مهولاً في الشام والعراق ومصر وكان يصرف عليهم بسخاء ويعلمهم الفروسية ويتطلع عليهم باستمرار . . فإن ظهر بينهم كلب عقور ففي الآخرين عوض . . وفقد دخل الناصر قلاوون القاهرة قادماً من منفاه في الكرك محمياً بمماليك وكلهم ولاة دمشق وحلب وحمص وحماة ورجالهم . وسكت ابن بردي منشغلاً في أمور تحدث وهي غاية في العجب .

كانت ثمة خناقات ومساومات عالية الصوت ترتفع من بين مجاميع هائلة على ضفتي الطريق القادم من القلعة تشق باب القصرين ، هذا يقول : « ادفع خمسين درهماً ». فيقول آخر : « إدفع سبعين ». وعلى البعد يقول ثالث « خذ لك مائة درهم ». فقلت : « ما الأمر يابن تغري » قال باسماً : « هؤلاء الواقفون على الأبواب هم أصحاب البيوت ». قلت : « فلماذا يساومون ؟». قال : « إن السلطان سوف يمر على هذه البيوت ». قلت : « ليكن . . فما الأمر ». قال : « على من يريد أن يصعد إلى أحد هذه البيوت لينظر من الشباك أو المشربية أو الشرفة أن يدفع خمسين دينار إلى مائة دينار !» فقلت : « يا للعجب ». ثم مضيت ازحزح نفسي حتى اقتربت من موكب السلطان الذي كان قد وصل إلى

باب النصر حيث ترجل الأمراء كلهم وأول من ترجل منهم الأمير بدر الدين بكناش الفخري أمير سلاح ، وأخذ يحمل سلاح السلطان فأمره السلطان أن يركب لكبر سنه فامتنع ومشى ، ومشى كل أمير في منزلته ، وفرش كل منهم الشقق من قلعته إلى قلعة غيره التي أنشؤوها بالشوارع ، وكان السلطان إذ تجاوز قلعة فرشت االقلعة المجاورة إليها الشقق حتى يمشي عليها بفرسه مشياً هيناً من غير هرج بسكون ووقار لأجل مشي الأمراء بين يديه ، وكان السلطان كلما رأى قلعة أمير أمسك عن المشي ووقف حتى يعاينها ويعرف ما اشتملت عليه هو والأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك . . ثم . . يا إلهي ما هذا الذي يحدث في الموكب ؟ . لحقني ابن تغري بردي قبل أن يصيبني الجنون وقال أنظر في هدوء فنظرت فإذا امراء مقيدون ورؤوس معلقة في رقابهم قال ابن تغري أنهم أمراء التتار وهذه رؤوس من قتل منهم . . ورأيت ألف رأس على ألف رمح . . ورأيت خلفهم عدداً من الأسرى بلغ عدهم ألفاً وستمائة وفي أعناقهم أيضاً ألف وستمائة رأس وطبولهم قدامهم مخرقة . فقلت يا أبن تغري هل نحن في عودة الناصر قلاوون الثالثة أم الثانية ؟ قال إننا في عودته الثانية عقب الحرب . قلت فكيف قلت أننا في الثالثة ؟ قال أنني قد هربت منه أثناء الموكب برهة ولما عدت إليه أخطأت الطريق فعدت إلى العودة الثانية خاصة وأن الموكب تشابه في كل عودة ما عدا وجود الأسرى ! . ثم أنني فرحت بمنظر القلاع فصرت أتابعها . والمراد بالقلعة هنا الزينة المركبة على قلعة من الخشب معلق عليها المصابيح وهي التي نسميها في عصرنا بقوس النصر . . هذه قلعة الأمير ناصر الدين ابن الشيخي وإلى القاهرة بباب النصر ، يليها قلعة الأمير مغلطاي أمير مجلس ، تليها قلعة ابن ايتمي السعدي ، تليها قلعة الأمير سنجر الجاولي ، تليها قلعة الأمير طغريل الايغاني ، ثم قلعة بهادر اليوسفي ، ثم قلعة الأمير مهدي ، ثم قلعة بيليك الخطيري ـ « على فكرة الراجل ده له جامع في بولاق اسمه جامع الخضيري » ـ ثم قلعة برتغى ، ثم قلعة مبارز الدين أمير شكار ، ثم قلعة أيبك اخازندار ، ثم قلعة سنقر الأعسر ، ثم قلعة بيبرس الدوادار ثم قلعة سنقر الكاملي ثم قلعة موسى بن الملك الصالح ثم قلعة الأمير آل ملك ثم قلعة علم الدين

الصوابي ثم قلعة الأمير جمال الدين الطشلاقي ثم قلعة الأمير سيف الدين آدم ثم قلعة الأمير سلار النائب ثم قلعة الأمير بيبرس الجاسنكير ثم قلعة بكناش أمير سلاح ثم قلعة الطواشي مرشد الخازندار ثم قلعة بكتمر أمير جاندار ثم قلعة أبيك البغدادي نائب الغيبه . . ثم تهت بين القلاع فجأة وتهت بين عديد الأمراء الذين نهشوا لحم مصر عصر بعد عصر . . ثم تكاثر الزحام وإذ بنا قد وصلنا إلى البيمارستان المنصوري بين القصرين حيث نزل السلطان ودخل ليزور قبر والده الملك المنصور قلاوون وأخذ القراء يقرؤون أمامه . . ثم إذ بالزحام يتحرك من جديد ويظل يدفعني دون وعي حتى لقد اختفى كل من أعرفهم من الموكب بل واختفى السلطان نفسه وحاشيته وجنوده ولم يبقى سوى الأمراء المقيدين والاسرى والرؤوس المدلاة من رقابهم ، وكان ثمة من ينهال علينا بالضرب لندخل في مكان ما نظرته فإذا به . . خزانة البنود . . يا للمصيبة . . ثاني . . خزانة البنود مرة أخرى ؟ . مالي أنا ولهذه البلوى يا أسيادنا . . أنا مش معاكم . . أنا مش أسير . . أنا لست من عصركم أصلاً . ولكن تقول لمن . . لقد دفعنا الزحام بقوة إلى داخل الخزانة فصرنا وكأننا في قبر ضيق يزهق الأنفاس . . ثم بدأت المناحة العظمى : صراخ وعويل بلغات لا يعرفها ابن شلبي ولم يسمعها في حياته ، لطم خدود وشق جيوب وأصوات تكاد تشق الجدران وتخترق أجواز الفضاء وأخرى لا تكاد تعرف أن كانت تضحك أم تبكي أم هي هيستيريا البكاء تقود إلى الضحك أو عمق الضحك يقود إلى البكاء ، وكانت رؤوس القتلى المدلاة من رقاب الأسرى تتصادم ببعضها من فرط الزحام وتنشر على الوجوه بقايا دم جاف أو نثارات من اللحم البشري المفروم .

عجب بل وأعجب من العجب أن يحل الهمود فجأة ومرة واحدة جميع أنحاء الخزانة كأن لم يكن فيها حياة صاخبة منذ ثوان معدودة . أضأت النور في دماغي فامتدت أمامي عشرات المئات من الجثث المرمية فوق بعضها وفوق الأرض، الرؤوس المدلاة من الرقاب تتكوم في مناطق وتعزل بين الأجساد تارة وتقرب بينها تارة أخرى . وكانت الخزانة ممتدة وكبيرة وحافلة بالغرف ، وكنت صغيراً أصغر من الحدث ومن محتويات الخزانة فرحت أمشي فوق الجثث الحية

كنملة ، فإذا بي أجد حجرات الخزانة قد أمتلأت هي الأخرى بالجثث حتى لم يعد فيها موضع لنملة . تسلقت إحدى النوافذ ونظرت منها فرأيت دماغ الحارس منكسراً على صدره يغطِ في نوم عميق ، فقرصته في أذنه فهب صائحاً مذعوراً فقلت له : « لماذا تضعوننا في الحبس يا ظلمة ». التفت الحارس نحوي صائحاً في ألم أراه كثيراً في أصوات المصريين في عصرنا : « يو . . ه . . قلنا ليس حبساً . . قلنا مائة مرة أنكم لستم في الحبس . . السلطان الناصر محمد بن قلاوون حفظه الله أبطل السجن بخزانة البنود ومنحها لكم تقيمون فيها أكثر الله خيره فهيا أدع له ». قلت : « تقصد من نحن ؟». قال : « أنتم . . الأسرى . . أولاد الروم والتتر والمغول ». قلت : « هذه أول مرة أرى فيها الأسرى يعاملون كأنهم ضيوف ». قال الحارس وهو يلعب شاربه في غمز متواصل : « إنك أنت لا تعلم أن السلطان قلاوون أعزه الله يختلف عن كل السلاطين » إنه عدم المؤاخذة يهادن ملوك الفرنجة ويشتري ودهم . . إنه رجل لا يحب وجع الدماغ ولا المشاكل خصوصاً إذا كانت قادمة من وراء الحدود . . . صحيح أنه حارب التتر والمغول وانتصر عليهم عدة مرات لكنه في النهاية ليس محارباً محترفاً . . أقصد ليس يعيش ليحارب . . ولهذا أحبه الناس . . أجد معك تنشيقة نشوق لوجه الله ؟». قلت : « لا . . معي كودايين بيور وريتالين واستطيع أن أعطيك شمة تنزل بك الأرض وتطلع برأسك السماء ». قال : « هل هو كالنشوق ؟» قلت : « أفظع بكثير . . هو مخدر أخترعه الفرنجة وتاجر فيه الصيادلة وكسب من ورائه تجار المخدرات أطناناً من الفلوس من دماء الشعب . . ونشروه بين الشباب والشيوخ على السواء . . أعرف رجلاً يشم في اليوم الواحد بعشرين جنيهاً مع أنه ليس يعمل في أي عمل ولا بد أن فلوس الشم وفلوس الأكل تأتي من مصادر غير مشروعة ». هز الحارس رأسه وقال : « عجيب والله . . لقد أكلت الحشيشة منذ المغرب وضاع مفعولها منذ العشاء فأرحني بشمة مما معك ». قلت : « فهل تفتح لنا الباب لو اعطيتك ما تبقى ؟». قال : « الباب سيفتح من تلقاء نفسه في الصباح . . لكي تدخلوا وتخرجوا منه لابتياع حوائجكم ». قلت : « وهل سيختفي الحراس ؟». قال : « فيما بعد . . يحلها

الله » وهنا تحركت أحدى الجثث تحت الشباك مباشرة وقالت بعربية مكسرة : « كل ما يريده الحارس موجود معي ». هبطت إليه في الحال وطلبت رؤية ما معه ، ففتح جراباً يشبه الزنبيل من قماش كتاني شمع حافل بالأربطة. أخرج قطعة كبيرة جداً من الحشيش وانتظر ، ثم أخرج علبة من الصفيح ملآنة بالنشوق ، وانتظر ، ثم أخرج علبة أخرى ملآنة بالأفيون عرضها عليّ وانتظر ، ثم أخرج قارورة كبيرة تلوح منها رائحة العرق والزبيب المخمر » قلت : « ما شاء الله . . ما كل هذا الذي تحمله معك ؟ : قال : « كانت هذه شغلتي في الحياة في بلاد الشام منذ أن جئت إليها من الروم . . رأيت الناس يطلبون هذه الأشياء بكثرة فصرت أحملها لهم وأبيعها بأغلى الأثمان ». أخذت من كل شيء شيئاً يسيراً وقلت له أن يعيد أشياءه فأعادها . وهنا تحركت جثة أخرى لرجل ضخم غاية الضخامة ، وتقلب فانفردت أعضاؤه فوق الجثث المجاورة فتأوهت وصرخت وانزاح رأس القتيل المعلق في رقبته وخبط شخصاً في أنفه فأقشعر وبدا عليه القرف رغم أنه هو الآخر يفعل نفس الفعل فيمن يجاورونه . تعرى صدر الرجل الضخم فإذا به موشوم بعلامة كبيرة عرفت منها أنه من أكلة لحوم البشر ، فأقشعر بدني من الخوف ، قال الموشوم : « ماذا يطلب هذا الحارس اللعين ؟» قلت : « لا شيء لا شيء هدىء من روعك أنت ». قال وصوته يرن في بطنه التي كالقبة العالية : « ظننته يثير المتاعب . . إذن لقمت وأكلت رقبته خاصة وأنني جائع ». قلت : « فلماذا لا تأكل هذا الرأس المعلق في رقبتك ما دمت جائعاً ومن أكلة لحوم البشر ؟». قال بهدوء : « هذا لحم بايت ». فقفزت بعيداً عنه فأرتطمت بسيدة نصف جميلة غبراء الوجه ممزقة الثياب وكانت تعاني من اختناق وتحاول فك الحبل عن رقبتها ، ذلك أن رأس القتيل المعلقة في رقبتها صارت طوال الطريق تلف وتبرم فلما نامت وتقلبت انجذبت الرأس إلى ناحية أخرى فاشتد الخناق على رقبتها . ساعدتها في تخليص رقبتها بتقطيع الحبل ووضعنا رأس القتيل في الشباك . فأنشرح وجه السيدة وقالت : « سوف أكافئك »، وفتحت زنبيلاً كبيراً اخرجت منه مجموعة قوارير ثم بقي في الزمبيل شيء كبير فقلت لها : « ما هذا ؟» قالت : « المعصرة . . معصرة الخمور ».

قلت : « تقعين في الأسر بمعصرة خمورك ؟». قالت : « هكذاانقض علينا الجند ونحن نقوم بعملنا في الأسواق » وقلت : « فكيف كان هذا الموشوم لحظة وقوعه في الأسر ؟» قالت : كان في المعارك . . أنه جندي مرتزق يعيش في المنطقة منذ سنين طويلة يقاتل مع هولاكو وغيره . . لقد وقع مثله كثيرون وهم معنا هنا ». ثم أفرغت لي قليلاً مما في إحدى القارورات ومزجت بشيء من قارورة أخرى وشيء من قارورة ثالثة فلما ذقته اشتعلت رأسي شيباً من فرط التلذذ ، ثم أعطتني قارورة كاملة احتفظ بها وقالت : للحارس فأنا سوف أكون صديقتك ». قلت لها : « نعم سوف يكرمنا الله كلنا ». وقمت من جوارها إلى رجل خنيس منكسر الرقبة في ذلة أشار لي فتوجهت إليه فهمس في أذني قائلاً : « أصديق للحارس أنت ؟». قلت : « نعم ». قال : « أستطيع أن امنحك هدية عظيمة ! إذا جعلته يسربني من الباب ». قلت : « ما هي الهدية ؟». قال : « لدي مجموعة جواري جميلات أعطيك منهن واحدة مجاناً » قلت : « من أين لك بالجواري ؟». قال : « هي مهنتي . . أتاجر في الجواري أنا . . اشتريها واتسوقها من كل أنحاء الأرض لأبيعها . . وها هي ذي أمامك فاختر منها ما تشاء ». وأشار إلى مجموعة من النساء الجميلات غاية الجمال يرقدن في غيبوبة تامة ، فأندس الخدر في رأسي مصحوباً بقليل من الغضب وعشمته خيراً ثم شرعت في الإنصراف فإذا بمن يشير لي ، كان شاباً في مقتبل العمر انيق الملبس في يده حقيبة كبيرة تشبه الصندوق يضمها إلى صدره وكان قد فقد الاحساس بوجود رأس القتيل المعلقة في رقبته فانزاحت إلى الوراء واستقرت على كتفه كجزء منه، تخطيت الجثث حتى وصلت إليه فقال : « هل تريد رشوة للحارس كيما يفك أسرنا ؟». قلت : « لا بالطبع ولكن ماذا لديك من الهدايا ؟». همس في أذني قائلاً : « معي جواهر نادرة . . ها هي ذي ». وخبط على الحقيبة فشخلل الذهب داخلها فقلت : « ما شاء الله . . هل أنت جواهرجي ؟». قال بكل صدق وبراءة : « لا . . أنا صبي لأحد الحواهرجية في العراق . . وكنت متوجهاً إلى الشام لتسليم هذه الجواهر لأحد عملاء صاحب المحل الذي أعمل به فلما هبط القدر في صورة جند المسلمين اقتادونا كلنا دون

تمييز وأنا مستعد للتفريط في كل هذه الجواهر إذا سمحوا لي بالخروج والعودة إلى صاحب المحل ». قلت : « هات ما تريد أعطاءه للحارس ». ففتح العلبة وأخرج خلخالاً من الذهب الصافي حشرته في جيبي وطمأنت الشاب ومضيت في شعور بالأهمية . اعترضني رجل مهذب وقور قائلاً : « لست أملك شيئاً ولكنني أملك هذا » وأشار إلى دماغه ». قلت : « ما شغلتك يا هذا ؟» قال : « نفكر . . يستعان بي في تخطيط المعارك والخلاص منها ومن الأزمات وقد وقعت في الأسر ظلماً وعدواناً ». قلت : « سوف نستعين بك في الوقت المناسب ». ثم تركته ومضيت ، فاعترضني آخر نحيف القوام على صدره صليب من الذهب وقال : « وأنا . . الستم في حاجة إليّ ؟». قلت : « فما شغلتك ؟». قال : « أنا طبيب مجند . . وأعرف الكثير في شؤون الطب ». قلت: «سوف نستعين بك أنت الآخر في الوقت المناسب». وتركته ومضيت وصرت اتلقى من الجثث عروضاً متواصلة أدوس فوقها واتخطاها ، فهذا نجار وهذا حداد وهذا خياط وهذا شاعر وهذا وهذا وهذا إلى أن فوجئت بما يشبه الدائرة غير المستباحة، حيث يقف حرس من الأسرى لهم سمات خاصة ومظهر خاص مع أنهم لا يزالون يحتفظون برؤوس القتلى المعلقة في رقابهم . قلت : « من أنتم ؟» قال أحدهم : « نحن رجال الأمير . . » وقلت : « أي أمير ؟». قال : « هو أمير تترى ينام في الداخل بعد أن فككنا عنه قيوده . . كان أمير قبل الأسر وكنا بعض رجاله والاديشة وسوف يظل أميراً في الأسر ونظل رجاله أيضاً ». فنظرت في الحجرة فوجدتها قد اخليت من الجثث واستأثر بها الأمير وحده وقد نام كالقتيل وتصاعد شخيره . فأردت الإنسحاب ولكنني رحت أتبين طريقي فوجدت أن عدد الدوائر غير المستباحة كثير ، فعرفت أن عدد الأمراء كثير وأنهم أستأنفوا الإمارة فور وقوعهم في الأسر . قلت لمن هم أمامي : « وكيف تتوفر للأمير أمارة داخل الأسر ؟». قال أحدهم : « كل أمير معه حامل خزانته وفلوسه . . أن الأمير لا يتحرك هكذا كبقية البشر ». قلت : « هذا شيء عجيب والله ». ثم جلست في مكاني فوق أي أحد ورحت أفكر في الإنتماء لأي من هذه الدوائر وصوت دماغي يصيح : ما أعجب ما سوف نراه فيك يا خزانة البنود .

الفصل التاسع

الموشومون يقيمون في الحبس دولة قوية

بحكم كوني من بني شلبي الأصلاء فأن خبرتي بالحياة أعطتني شهادات في اكتشاف الأقوى ومن ستكتب له الغلبة في السيطرة ، انتهازي أنا لا بأس ، لكنني يعلم الله لا أنتهز من وراء ذلك سوى الشعور بالأمن والأطمئنان ، غيري ـ وربما كانـوا من بني شلبي أيضاً ـ ينتهـزون الكثير والكثيـر من وراء انتظارهم للقادم الجديد لحظة يشيع في الأفق نبأ قـادم جديـد ، تراهم يقيمـون معه في جسور الود حتى لو لم يكن بينهم ود على الإطلاق ، حتى لو كان قيام الود بينهم مستحيلاً من الأساس لكنهم والحق يقال موهوبون في مد الجسور الوهمية فيما بينهم ـ هؤلاء القادمون الجـدد ـ لا لشيء إلا لكي يدخـل كل منهم في الآخـر ويتكشف نقط ضعفه التي يمكن أن يضربه فيهـا إذا ما لاح في الأفق نبأ رواح أو قـدوم . بحكم كوني من بني شلبي تعلمت الإنحيـاز للجانب الأقـوى يقيناً من وهم العدالة إلا بين الأقوياء وريثما يخفل أحدهم برهة . وهكذا استشعرت أن ذلك الأمير التتري ستكتب له الغلبة في السيطرة على خزانة البنود ، استشعرت ذلك من الواقع الذي وضع نفسه فيـه ، فها هـوذا يحتل أهم وأنـظف بقعة في الخزانة : الركن الذي كان يجلس فيه أمناء الخزانة للإشراف على المحتويات ودخولها وخروجها ، أشبه بفراندة كبيرة عالية عن الأرض بأربع درجات رشيقات من الرخام الأصيـل وتمتد على الجـانبين بدرابـزين من النحاس الأصيـل أيضاً القائم فوق أعمدة من الرخام ، ثم أن عدد مقدميه ـ أي أولئك الذين تعـود في غير الأسر أن يتقـدمهم بالإمـارة ـ كبير جـداً ، ما يـزيد عن عشـر رجال تتميـز حركاتهم وأيماءاتهم بمظاهر غير عادية ، اتخذوا مجلسهم حوله غير عابثين بما

هم فيه من حال سيئة ، أما حراسه فحدث ولا حرج، يزيد عدده عن ثلاثين أو أربعين غلاظ شداد من بينهم خمسة أو سبعة من الموشومين أكلة لحوم البشر ، كانوا يقفـون في وضع التحفـز . . الحراس أمـام هذا النصب الجميـل . . أما الأمراء الآخرون فقد تناثروا وسط الحشد المهول وفوقه بما يـذكرك بسـرادقات الطرق الصوفية حين تنتشر وسط مولد الحسين أو أي مـولد . هـذا أمير أحتـل حجرة كانت مخصصـة للسيوف ووقف حـراسه على ضفتي بـابها . وهـذا أمير احتل حجرة الشارات والأعلام ، وآخر احتل حجرة كانت مخزناً لعـدد الحرب والزرد ، وغيره احتل غرفة استقبال الزوار الكبار الذين كانوا يفدون إلى الخزانة أيام مجدها لاختيار ما يطلبـونه منهـا . . وفيما عـدا ذلك تكـومت الجثث فوق بعضها وصارت تصدر أصواتـاً لا حد لرهبتها. لا تعرف أن كـان أنيناً أو زلـزالاً بشعاً . . وكانت رؤوس القتلى قـد انخلعت عن الرقـاب وصنعت أكبر مشكلة في الوجود يمكن أن يتعرض لها قوم كهؤلاء لا يعرف أحدهم الآخر بل لا يعرف إن كان قد حاربِ في صفه أم في صف عدوه ، أنهم جنود مـرتزقـة على مواطنين أروام على مـواطنين مغول على مـواطنين من الفـرس على مـواطنين من التتـر وغيرهم تجمعت فيهم كل هذه الجنسيات بل أن بينهم بعض المصريين الـذين كانوا يمارسون التجارة في الشام وبغداد وأوقعهم حظهم العاثر في لحظة أسر لا تعرف الرحمة ولا تقبل التفاهم .

من عند النصب النحاسي زحف أربعة لا غير من الموشومين ، كل منهم يتقدمه كرش كقبة القلعة أو أضخم ، والوشم على صورة الكبير ينسبه إلى طائفة الحيوانات البشعـة المخيفة ، زحف كـل منهم في اتجاه ثم وقف صـامتاً ، ثم تجاوبت ضحكاتهم الأربع كأنما السماء ترعد ، فسكت صـوت الزلـزال تمامـاً ورددت جدران الخزانة أصدقاء قلقلة الضحك الخشن . صار كل منهم يجمع من الآخرين رؤوس القتلى المربوطة جيداً في حبال متينة ، يشبك في كل أصبع ما يزيد عن عشر حبال . ثم مضى أربعتهم نحو باب الخزانة كل منهم هـرقل تتدلى من ذراعيه القويتين خمسون رأساً على الأقل ، حتى إذا مـا وصل أولهم إلى باب الخزانة ضربه ببوز قدمه فأهتزت الجدران بعنف واضطر الحارس إلى

فتح الباب ، فيقدمه ضرب الموشوم الحارس فرماه عند آخر قصر بشتاك وأخرس بقية الحرس وسمرهم في مكانهم ، وبنظرة أمر غيره ففتحوا الباب عن آخره وصار هو يرمي بالرؤوس إلى الشارع العمومي ، ثم يتسلم حمل زملائه ليرميه ، ثم صاروا كالفعلة يناول بعضهم بعضاً حبال الرؤوس بالعشرات وصاحبنا يقذف إلى الشارع العمومي حتى صنع أكواماً صغيرة من الرؤوس ومنع المرور تماماً وتكاثر الناس على الجانبين وفي المشربيات ينظرون وقد عقد الذهول ألسنتهم لكن بعض الحرافيش الزعر كانوا من فرط الإحساس بالزعر والفجيعة يضحكون ضحكاً أسود الوجه كثيف الرنين ، ثم أن الأبصار في الشارع كلها ـ وقد بدا لنا الشارع من داخل الخزانة جميلاً حقاً إذ يمتد في أناقة واتساع ليفصل بين القصر وبين حي العطوف المنتمي إليه ـ تعلقت بمشربية معينة على مقربة بعيدة قليلاً من الخزانة تنبىء عن بيت عز وفخفخة أعلى بكثير من فخفخة حي العطوف ، وكان يطل منها ـ المشربية ـ وجه رجل وقور تسبح في دمائه الحمراء بحيرات من الألم والضيق والإحساس بالعار ، ولما انتبهت إليه العامة راحوا جميعاً يلذون به من تحت المشربية ويتحدثون معه في ذعر وهو يهز رأسه في تهديد مبطن بالإحساس باقهر ، وكنا قد خرجنا بدورنا من الخزانة فتنسم عبير هواء الشارع ولكن على حذر وخوف من الإختلاط بالمارة لئلا نتعرض لمكروه ، فسألنا أحد الحراس عن هذه الشخصية فقال في قليل من الذلة وكثير من الطيبة أنه « الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ». فأهتز بعضنا ولم يعبأ البعض ، والموشومون يواطلون رمي الرؤوس في الشارع والناس من خوف يتقافزون بعيداً ويغلقون أبواب المشربيات كل برهة تفادياً لنشارات اللحم الجاف النتن . ثم إذا بالموشوم الأكبر وقد انتهى من مهمته وسع ما بين رجليه كصبي شقي ووضع أصبعيه في فمه فأطلق صفير القاطرة ، فانتبهنا جميعاً فأشار لنا أن هيا إلى بيتكم ، أنصعنا جميعاً إليه ودخل هو الآخر وأغلق الباب وراءه كأن شيئاً لم يكن ، وهنا ارتفعت بعض الأصوات المرحة وبدت الخزانة كأنها اتسعت أضعاف حجمها وصار من الممكن أن يسير البعض في سهولة . وكان موشومون آخرون قد تكلفوا بفتح طرق بين الأجساد تربط أماكن الأمراء بعضها ببعض .

فوجدتني أنحاز إلى الأمير ذي المقصورة النحاسية الرخامية ، وكان الزلـزال قد انتقـل من الخزانـة إلى الشارع وبلغنـا أصوات حـركتهم وهم يقومـون بتنظيف الشارع وإخلائه من البلاء ، ثم أن التعب هدني فانحنيت وكنا بجوار المقصورة وتمـددت نصف نائم ، وفي اللحـظة التي شعرت فيهـا بـالنـوم الحقيقي يمـلأ جفوني تيقظت من جديد على ناس من حوالي يبكون في صمت وينشرون عدوى البكاء في أنحاء الخزانة . تقلبت متململاً اصطدمت بسيـدة ذات أنف روماني وحواجب غليظة مبرومة سوداء وعينين واسعتين عميقتين ، تأسفت لها فلم تعبأ بأسفي إنما استمرت في البكاء ، قلت لها : « لماذا تبكين يـا ست الستات ؟» قـالت : « وهم أيضاً يبكـون لنفس السبب » . قلت : « فما هـو السبب يا ست الستات ؟» . قالت : « لأننا رمينا بالرؤوس وضاعت منا إلى الأبد !» . قلت في استغراب : « وهل كنت تفضلين الاحتفاظ بها ؟» . قالت : « لا . . ولكن كنت أؤمل أن يكون من بينها رأس أبي . . ومعظم هؤلاء كان كل منهم يتوقع أن تكون رأس أخيه أو ابنه أو ذويـه بين هذه الـرؤوس . . جاؤوا بهـا من موقـع القتال » . ثم واصلت البكـاء . فقلت لها : « هـوني عليـك يـا ست الستـات . . هكـذا المصير المحتوم والبكاء لا ينفع » . فاعتدلت كأنها وجدت من يسليها وقدمت لي قطعة صغيرة من تمرة جافة كان لها مذاقاً عظيماً ، ومـال رأسها على كتفي في عفوية أو قصد لا أعرف لكنني تركتها تستغـرق في النوم واستغـرقت أنا الآخـر بعـدها مبـاشرة . . ولكن هـل يهنأ أحـد بنوم في خـزانة البنـود وهي على هذا الوضع ؟ . .

سرعان ما عدت إلى يقظتي بعد أغفـاءة قصيرة لأكتشف أن هـذه السيدة الرومانية الأصل العربية اللسـان قد صـارت من متعلقاتي في الخـزانة ، فقلت لها : هل أنت لي ؟» . قالت : « نعم » ـ وأضافت بعربية مكسرة : « على سنة الله ورسوله » فعرفت أنها عاشرت العرب منذ طفولتها ، وقلت : « وأنا لك . . على سنـة الله ورسـولـه » . بعـد بـرهـة وجيـزة صـاح في القـوم صـوت جهوري : « هل بقي من النساء من لم تجد لهـا زوجاً ؟» فـاندهشت حتى من صارت شبه زوجتي شعرت بالـدهشة والخجـل ، وإذا برجـال من حرس الأمـراء

يقبلون نحو المقصورة النحاسية من طرق بين الأجساد متعـددة ، بعضهم يسوق أمامه بعض النساء والبعض الآخر يحمل أشياء أخرى غامضة ، تساءلت عن كنه ما يحدث من صارت شبه زوجتي أن بقية أمراء الحبس قد بادروا بإرسال الهدايا إلى الأمير « خزعل ». قلت : « فهل تعرفينه ؟». قالت : « عرفتهم كلهم خلال الطريق . . كلهم أمراء وحالهم أغرب من الخيال ». قلت : « كيف يا ست الستات ؟» قالت : « أما الأمير خزعل فقد تقلد الإمارة مقابل المشاركة في غزو بغداد والديار العربية كلها . . أي أنه خارج العرب لم يكن له إمارة ». وقد سقط في المعركة كل قواده وذويه ولم يبقى سواه على قيد الحياة ». . ثم همست في أذني بأنفاس لا يمكن تمييزها إذا كانت رومية أو عربية : « وقد وقع الأمير خزعل في الأسر وهو يدبر للهروب من تجريدته نفسها والاحتماء بديار العرب وحكامهم بحجة أنه لاذ بالإسلام » قلت : « فلعله يا ست الستات قد أسلم بالفعل وتيقظ ضميره فأنشق على أخوته الغزاة ». قالت باسمة : « مصري أنت حتى النخاع أي أنك عبيط كبير ». قلت : « وغير ذلك من بني شلبي » قلت : « فإذن أنت من فرط العبط تقوم بخدمة عدوك وتكريمه طالما هو ضيف عليك وما أكثر ما طالت لديكم ضيافة الأعداء يا بن شلبي ». قلت : « عودي بنا إلى الأمير خزعل ». قالت : « كان هو المسؤول عن مئونة التجريدة وأموالها وأسلابيها وغنائمها طوال رحلة الغزو ». قلت : « وهل ضاعت عليه الإسلاب والغنائم والأموال فصار إلى مجرد أسير ؟». قالت : « هذه أول خيوط العبط في شخصكم . . لقد حارب محمد بن قلاوون بروح وجبلة الترك وهو أولاد عم المغول ، صحيح أنه يشرب الدواء كمغولي ولكن ما تعلمه من خلق الإسلام والعرب يضعه في شكل محارب شريف نزيه . . ولما علم أن بين الأسرى أمراء من الفرنج ، والتتر والمغول وصى بعدم استلابهم فلربما تحدث المفاوضات ويكون الحساب عسيراً . . وهكذا لم يتعرض للسلب سوى أمثالنا من المعدمين ». قلت : « وبقية الأمراء ؟». قالت : « كل منهم على حالة وكل منهم يوقن أن أحداً لن يسأل عنه فيما بعد . . أنهم جبابرة يا ابن العرب . . وبعضهم يدفن اسلاباً وأموالاً وكنوزاً في بقع معينة من أرض الشام أو بغداد أو

على الحدود ويستطيع بعد أيام قليلة أن يبعث في طلبها من يأتي بها سراً ». قلت : « كيف بحق الله هذا يا ست الستات ؟ ». قالت وأنفها الروماني يهتز أمام الحائط : « أتظن أن هؤلاء الأمراء غرباء تماماً عن هذه المنطقة ؟! ». استدعيت عقلي من جديد وتحفزت فواصلت هي : « أنهم كانوا طلائع الغزو منذ سنوات بعيدة . . جاؤوا المنطقة وصنعوا لهم صداقات حميمة مع حكامها وكبار علية القوم فيها من التجار والأمراء المستضعفين . . بل لقد حارب بعضهم في صفوف ملوك وولاة من المنطقة ضد أخوة لهم وأشقاء . . أن سوء الحظ وحده هو الذي أوقعهم في الأسر ، وربما سوء النية ، وربما سوء الأصدقاء ». قلت : « بالله عليك يا ست البنات كفى عن الحديث فقد أفسدت علي خيالي وصيرته فيلا يريد التحليق بجناحي بعوضة ». فضحكت ورحت أنا أبكي في صمت المقهور . وفجأة انفتح باب الخزانة على مصراعيه وأطل منه الاسفهسالار شخصياً ثم ما لبث أن تقدم يحف به العسكر من كل ناحية ، وكانوا مسلحين بالسيوف والخناجر ولكنهم جميعاً كانوا يتقصون الوداعة ، وكان ثمة من يتقدمهم ويشير لهم نحو المقصورة النحاسية التي بجوارنا مما كشف لنا أن ثمة مفاوضات حدثت بين أمراء الحبس بقيادة « خزعل » وأن قائد المعسكر قادم بميعاد ومهمة . ها هوذا يتقدم نحو المقصورة النحاسية الرخامية وخلفه العسكر حتى إذا ما وصل دخلت في أعقابه ، القى تحية الإسلام فردوا عليه بمثلها ولكن في خشونة وجلافة واضحة ، فكأنه كان يتوقع شيئاً كهذا ولم يعره التفاتاً ، إنما جلس حيث أشار له « خزعل » وأشار هو بدوره إلى العسكر أن يقفوا بعيداً ولكنه لم يجد للعسكر أثراً ، فنهض من جديد وتساءل : « أين قواتي ؟ » فقال أحد الموشومين : « قواتك في حوزتنا وعند خروجك تتسلمها ». فجلس كالفأر يحاول استعارة هيئة القط ، وكان « خزعل » ذا رأس كقطعة من جذع شجرة عجوز صخرية ، وصدر عريض جداً مليء بالجروح الملتئمة كأرض الأسفلت في شوارع القاهرة مفخوت ومردوم في كل خطوة ، أمامه زجاجة العرق يجرع منها ، ثم قدم للاسفهسالار كأساً من الخزف به بعض العرق فازاحه الاسفهسالار في حرج قائلاً : « لا أشرب المنكر ولكنني جئت في مهمة . . أنتم

تعرفون أن السلطان أعزه الله قد منحكم الـراحة والمسكن هـا هنا فـلا أقل من حسن المعـاملة . . نحن قـادرون على معـاملتكم معـاملة الأسـرى ولكننـا لن نتعجل . . وكل ما تطلبه منكم عدم أثارة القلاقل والمشاكل والا . . ». ثم انتظر برهة نظر خلالها خزعل إلى من بجواره وطلب شيئـاً يأكله فجيء لـه في الحال ـ ولا تدري كيف ـ بفخذ ثور كبير يحمله أحدهم على كتفه كاملاً غير منقوص ثم قال لخزعل : « برهة وأسويه لك على نار حامية ». وقال الاسفهسـالار : « من أين جئتم بهذه اللحوم وكيف دخلت هنا . . هذه مخالفة ! ». قال خزعل : « أي شيء نطلبه يجيء لنا حتى ولو وضعتموها في بروج مشيدة » . . ثم نادى : « يا خوارنق » فجاء الموشوم الأضخم يبتسم عن فم كفم حـوت العنبر ثم انتـظر ، فقال له خزعل : « إن الاسفهسالار يعترض على دخول اللحم إلى هنا ». فقال الموشم : « يعترض على اللحم الحي . . أم المذبوح . . أم الميت ؟». فقال الاسفهسالار غافلاً عما في كلام الموشوم من غمز: « صنف اللحوم . . نحن الذين نأمر بدخول أي شيء ها هنا أو بعدم دخوله ». فضحـك الموشـوم حتى اهتزت الأعمدة النحاسية والجدران واقشعر الاسفهسالار ، وأردف الموشـوم : « إذن فلا تناول وجبة غذائي قبل صدور أوامر جديدة . . هات يا ولد ». فخرج من إحدى الحجرات ولد يجر خروفاً هائلاً يمأميء في احساس بالفجيعة ووقف الاسفهسالار منزعجاً : « من أين جاء هذا . . أنا نفسي لا أجده خارج الخزانة لو أردته »!! . فقال الموشوم : « إذا أردت شيئاً ولم نجده في البلد فأتصـل بنا ونحن نوفره لك بكل سرور ». ثم صاح : « هات السكين يا ولـد ». فجيء له بسكين دبهـا في رقبة الخـروف ورمـاهـا فتكـالب عليهـا العشـرات . ثم سلخ الخروف في ثوان معدودة ثم تقرفص أمامه وراح ينزع شرائح اللحم ويأكل في تلذذ والاسفهسالار يتابعه في شعور بالقرف والخوف . فقال له خزعل : « تفضل وسوف نتبع أوامـرك ». فنهض الاسفهسالار في الحـال شاكـراً وانصرف ليجـد رجاله في انتـظاره خارج الخـزانة . ليلتهـا بات بـاب الخزانـة نصف مفتوح . ولبلتها سهرنا نحتفل بهذه المناسبة فقضينا في الاحتفال زمناً طـويلاً جـداً يقدر بالشهور أو السنوات ، كنا خلالها نتريث عن الهزر برهة لنبحث في أمر الغذاء،

أو يخرج بعضنا إلى شوارع القاهرة دون أن يعترضه أحد ليشتري أو يشحذ أو ينهب أو يخطف أو يسرق ما يشاء أو يشاؤه أمير الحبس ، أو نستمع إلى رجال أرسلهم المدعو بالأمير الحاج ملك الجوكندار ليفاوضوا معنا في شأن حسن الجوار، وكانوا ـ الرجال المراسيل ـ يفاجؤون بأننا ناس مثلهم وفينا من يتكلم بلهجتهم بل ومن يعرف أسماءهم وأسماء أبائهم وأمهاتهم ، هم المصريون الذين وقعوا في الأسر المصري دون ذنب جنوه إلا اقتحام الأسواق المتاخمة في أيام النزاع والقتال ، كانوا يتواجدون عند المفاوضات بجانب « خزعل » ويساعدونه في اللعب بالمراسيل ويكشفون له عن الاعيب اللغة وأسرارها ليفيق لهم ، عجبت والله من أمرهم ولكنني حينما تذكرت أن لهم أهلاً وأقارب في حواري القاهرة ولهم حقوق المواطنة عذرتهم وقلت لنفسي أن الظلم أمر لا مثيل له في الوجود ، الأعجب بل الأكثر عجباً أن هؤلاء المصريين المأسورين تهيأ لهم الدخول والخروج دون رقيب أو حسيب ، وتهيأ لهم التجوال في شوارع القاهرة وحواريها والاتصال بأهلهم وأصدقاء طفولتهم ومع ذلك كانوا يعودون في الخزانة آخر الليل يحملون أطايب التجوال كالعائدين لأولادهم بعد طول مشقة ، وكنا جميعاً نعلم أن تجاراتهم وأعمالهم قد استؤنفت من جديد كأحسن ما تكون وأن أموالهم محفوظة في خزائنهم الخارجية ولم نكن نأخذ هذا عليهم طالما أنهم يدينون بالولاء للخزانة ولا يقبلون المبيت خارجها ليلة واحدة ! وفي ليلة استدعائي « خزعل » أمير الحبس فآثرت ذات الأنف الروماني إلا أن تصطحبني لتشد أزري في هذه الشدة ، وحين دلفت إلى المقصورة ذات الدرابزين النحاسي الأنيق بحثت عن بقعة بعيدة عن ظل الأمير فلم أجد لأن ظله في الواقع كان ممتداً إلى أنحاء الخزانة كأنه الليل يغمر حتى باطن الأشياء . قدمت للأمير كل فروض التحية بعددمن الأساليب وبشكل أدهشه وخيل إليه أنني من علية القوم الذين أنا منهم ، قال : « من أي جنسية أنت وعلى أي ملة ؟». قلت متحفظاً : « ربما خدعتك مظاهر تحيتي فتصورت أنني من علية القوم . . إنما أنا تعلمت هذه الأشياء من قراءة الكتب »، قال في ثقة : « إذن فأنت من علية علية القوم ». فدهشت من هذه اللهجة الحضارية التي لا تتفق مطلقاً مع

أي شيء فيه أو في حاله ، ثم هز رأسه نحوي في احترام هاتفاً : « أعالم أنت أم أديب أم فلكي أم فيلسوف ؟». قلت : « خدامك ومحسوبك خيري بن شلبي الحنفي المصري الطرشجي الحلوجي الكاتب ». فنهض الأمير خزعل واقفاً ومد يده للسلام عليّ . فسلمت عليه بحرارة ووضعت ذات الأنف الروماني ساقاً على ساق وانجعصت كسيدات القصور، ثم أن الأمير خزعل جلس وقال : « لا بد أن تتولى مسؤولية كبيرة ها هنا . . اسمع . . أنت مسؤول عن الدعوة لكل ما تنتجه الخزانة من خمور ، لدينا عشرات الأصناف على عشرات الأنواع من التقطير المتقن المتقدم ، وتجار الخزانة يسافرون بها إلى القرى والحدود ليبيعونها جملة ، ونحن بحاجة إلى ترويجها أكثر من داخل القاهرة وهذه مسؤوليتك . . وبجوار الخزانة أمير يدعى الحاج آل ملك الجوكندار وهو يزعجنا كل يوم بمرسال يهددنا بإبلاغ الأمر - أمرنا يعني - إلى السلطان الناصر بن قلاوون ، ونحن لا يهمنا منه ، فمعلوماتنا القادمة من القصر رأساً تفيد بأن السلطان بن قلاوون يتراخى في أمرنا ويريد مهادنة الفرنج ، وقد شاهد مرسالنا بعيني رأسه الأمير الحاج آل ملك الجوكندار وهو يلح على السلطان في أمرنا والسلطان غير مصغ إليه مطلقاً . . ولكن ، الأمر بيننا وبين الحاج آل ملك يحتاج إلى كلام وشكليات يجب أن تكون مرعية على الأقل لنوهم السلطان أن لنا منطوقاً معيناً وصيغة معينة تصلح للتفاهم وهذه أيضاً مسؤوليتك . . والخزانة الآن - كما لعلك ترى - قد صارت بقعة الضوء الوحيدة في المنطقة ، هذا ما يجب أن تقوله بلساننا ، أفهم ، أن الخزانة تستقبل كل يوم ناساً جدداً وقع عليهم الظلم في البلاد وهي - الخزانة - لا بد أن تفتح صدرها لكل من يلوذ بها أو يطرق بابها ولا بد أن يعلم الكل هذا وهذه كذلك مسؤوليتك . . أعرف أن جهوداً كبيرة سوف تتكلفها مهمتك ولكنني سأفتح لك ديواناً للإنشاء ». انحنيت قائلاً : « السمع والطاعة يا سمو الأمير ». وقال : « وهيا فباشر مهمتك ». فنهضت وقد أمتلأت حماساً وهواء فاسداً ، وطلبت مكتباً في مواجهة الباب وحجرة خاصة وجهاز تكييف وبعض الكراسي الفاخرة ، فوعدني بكل ذلك ولكن مؤقتاً على أن أتخذ من شباك الخزانة المطل على كيمان الدراسة مستقراً لي أباشر منه عملي ،

على أن يخصص باب الخزانة لدخول وخروج أهلها أما التفاهم في أي شيء فيتم كله من أمام الشباك .

زهزهت الحياة انطلقت ذات الأنف الروماني تمارس النصب والاحتيال في الخزانة باسمي وتخلق لي اعمالاً واتعاباً إضافية جعلت الفلوس تجري بين أيدينا في غزارة ، وصرت أتلقى بطاقات مظروفة بالهدايا والأموال تحمل معلومات عن تجار من خارج الخزانة لعلها ـ المعلومات ـ تفيدني !»، وإن هي إلا شهور قليلة حتى اختفي صنف العسكر من المنطقة كلها ولم يبق لحراسة الخزانة سوى ظل الموشومين فحسب ، وما يخرج منها من أخبار ساخنة ، وكنت أمارس عملي بدقة، فالفلاح من بني شلبي إذا وضع في عمل أداه على الوجه الأكمل ولو كان هذا العمل ضد مصلحته ولو كان لحساب عدوه وهو لا يدري أن اتقان العمل جبله فيه . أنه يعمل ولا يعنيه لمن يعمل ، وهو يعني حقيقة واحدة في هذا الصدد وهي أن الذي بلا عمل بين قومه أن هو إلا « عواطلي » حقير لا يستحق الحياة . بهذه الفلسفة قمت بعملي خير قيام ، ولكن ما كان يؤرقني هو مسألة صرحت به في الحال دون نظر فيه ولو من بعيد . وقد فوجئت ذات يوم برهط من رجال محترمين يقبلون نحو الخزانة ثم يقفون في انكسار وذلك بينما تقدم أشيبهم قائلاً : « اعمل معروف . . نحن في عرضك أعطونا عبد العال ». قلت : « فمن هو عبد العال هذا يا هذا ؟». قال : « أنه مجرم كبير . . قتل عشرة رجال وطاردته الشرطة في كل مكان فلما أوشك على الوقوع في يدهم التحق بالخزانة بطلب الحماية . . فسلموه لنا تنالوا ثواباً عظيماً في الدنيا والآخرة ». بعثت طلب استطلاع فجاءتني الصيغة فأعلنتها قائلاً : « يا قوم أنكم ظلمة قساة القلوب وما عبد العال إلا ضحيتكم وضحية جيلكم فأنتم الذين خلقتم منه ذلك المجرم وهو بريء لا ذنب له ومن العار أن يطلب الحماية من الخزانة وترده خائباً »، ثم أغلقت باب الحوار بالضبة والمفتاح ، وحين جاؤوا مرة أخرى بالشرطة تصدى لهم الموشومون في الطريق فأكلوا ذراع أحدهم ورقبة آخر وردوهم على اعقابهم . وفي يوم آخر جاءت سيدة عجوز وقدمت لي رشوة غير مباشرة فهزأتها وفرجت عليها الدنيا وأعطيتها

درساً في تقديم الرشوة وكيف أنها يجب أن تكون مباشرة صـريحة وإلا فقـدت جـلالها ، وعلمت منهـا أن ابنتها التي كـانت تنفق عليهـم هـربت ولجـأت إلى الخزانة ، فطلبت خبرها فجاءت أنها ـ البنت ـ تستحق الشفقة ، لأنها تربت في منبت سوء فخرجت على حل شعرها وقد لجأت إلى الخزانة لتبحث عن حزيتها فيها ، فذهبت العجوز ولم تعد . ومـرة ثالثـة جاء رجـل من علية القـوم يطلب زوجته التي هربت ولجأت إلى الخزانة فقلت له أن زوجته قد تحررت منه ومن تسلطه وأن عليـه أن ينساها تماماً . ومرة رابعة جاء فيلق من رجال الشرطة قاموا أمامنا بعمل استعـراض ساذج أظهروا فيه ضعفهم في صورة قوة ، وفي النهايـة طالبوا برأس مهرب كبير ، أقصد جـاسوسـاً كان يهـرب الأخبار إلى العـدو . . فقلت لهم أن هذا الرجل ربما كان أكثرهم وطنية لمجرد لجوئه إلى الخـزانة ، وأن اتهامه بعدم الوطنية يعرضكم للمساءلة القانونيـة ، فلما أكثـروا في الكلام خرج فريق من الموشومين وراحـوا يلعبون الكـرة ويجرون ويشـوطون العسكـر بأقدامهم في عفوية كأنهم الكرة . وفي مرة خامسة وسادسة وعاشرة وألف حتى لجأ إلى الخزانة اعداد مهولة من أهل القاهـرة وكثرت الحـواديت والشخصيات التي نسهر معها كل ليلة ، فهذا بقال طارده رجـال التموين وهـذا لص طاردتـه الشرطة وهذا سفاح سئم شرب الدماء وهذا أمير توعده السلطان بالعقـاب وهذا أمير آخر توعد السلطان بالعقاب . . وهكذا صارت الخزانة دولـة داخل الـديار المصرية لا يستهان بها أبداً . وقد جاءتنا الأنباء في ليلة بأن السلطان أغلظ في القول للأمير الحاج آل ملك الجوكندار لكثرة الحاحه في الشكوى من الخـزانة وقال له : « انتقل أنت عنهم يا أمير . . فلم يسعه إلا الإعراض عن ذلك وعمر دارة التي بالحسينية والاسطبل والجـامع المعـروف بآل ملك والحمـام والفندق وانتقل من داره التي كان فيها بجوار خزانة البنود وسكن بالحسينية . يا لهـا من ليلة . . لقد شربنا نخب الأنتصار نشوة ، ومزق بعض الموشومين ـ من الفرح ـ لحم بعض الفتيات اللاتي لجأن إلى الخزانة .

الفصل العاشر

وبعض الظلم ترياق لبعض

ظللنا ليالي طويلة نتندر بما حدث للأمير الجوكندار ونعيد ترديد كلمة السلطان له : « انتقل أنت عنهم يا أمير » ـ نعيد ترديدها بكل أنغام الشماتة والاشفاق والنذالة والسفالة أيضاً . وكان صبية الخزانة وأطفالها كلما التقوا في الشارع بأحد من علية القوم الذين يحملون سمة الإمارة قالوا لهم في تلقيب حواجب وتطليع السنة « انتقل عنهم يا أمير »، فيهب ذلك الذي يحمل السمت كأنه أمير بالفعل بل كأنه الأمير الجوكندار نفسه ، ويصرخ في الصبي أو الطفل قائلاً : « امشي يا قليل الأدب »، وكنت باعتباري صاحب الشباك قد سمعت هذه الجملة عشرات الآلاف من المرات بأبعاد والحان وأنغام مختلفة . . « أمشي يا قليل الأدب »، يقولها أحدهم بحرج كأنه يشتري بها خاطر الأمير الذي لا بد سيكون على علم ، يقولها آخر بخوف من كونه سمعها ، يقولها ثالث برعب كأنه الذي عرض بالأمير ، يقولها رابع في تشف وسخرية بالأمير وبالسلطان ، يقولها خامس بنفاق لأصحاب الخزانة كأنه يستنكر أن تنجب الخزانة المؤدبة غير مؤدب ! . .

كل ذلك أعطى الخزانة الموقرة قوة على قوتها ، فأمليت على بيانات جديدة الغيت فيها ليس فحسب عقلي أنا بل العقل الإنساني كله ، وأرسلتها عبر الشباك تصرخ بأن الهدوء سوف يسود بين الخزانة وأعداد الإنسانية من السفاحين واللصوص والقتلة أو بأن الخزانة سوف تعمل على إشاعة روح السلام في المنطقة إكراماً لخاطر السلطان الذي اشترى خاطرهم ونصرهم على واحد من

أشد أمرائه بأساً . وكان علينا أن ندرب الموشومين على نوع جديد من التعامل يتفق مع هذه البيانات الصارخة وكنت قد انتهزت فرصة راق فيها مزاج خزعل وأفهمته بأن أهل الديار المصرية لن يحتملوا كل هذه المعاملات والمظاهر الفاحشة ، وأننا لا يجب أن نخسرهم، وركزت جل حديثي على بني شلبي الميامين المساكين وقلت له أنهم ربما كانوا الوحيدين على الأرض الذين يخلدون جلاديهم وغزاتهم .

فأنبهر خزعل ولكن بنفسه ثم انجعص قائلاً في غرور « أي نعم أعرف هذا ولذا فقد أحببت أن أكون مخلداً »،قلت له : « لا ياسمو الأمير ليس الأمر كما تفهم . . فإن المسألة ليست تخليداً ولكن على ماذا كان الخلود . . أنهم يخلدونك على صورتك الحقيقية بكل ما فيها عدم المؤاخذة من قبح أو جمال » . . شوح قائلاً : « يعني ماذا ؟» . . قلت : « يعني تخليك حلو مع أهلنا عشان يحبوك » . . فقال : « حاضر . . عشان خاطرك بس» . . ثم أنه أمر بإقامة اجتماع لمساعديه من أشباه الأمراء والموشومين على السواء . وبصفتي رئيس ديوان الإنشاء المزمع أنشاؤه جلست إلى جوار الأمير خزعل وأوقفت وراء ظهري عشرات من الولدان بحقائب وملفات وزجاجات عرق يصبون لي منها كلما نشف ريقي . فلما شربت ودخنت كان الاجتماع قد أكتمل وقدمني خزعل إلى رجاله قائلاً أن خزانة البنود طول عمرها موطن اللاجئين من كل زمان ومكان وأنها لتعتز بهذا الدور وتعتز بأنها قد أوتني مع أنني من زمن بعيد جداً وقدمت لي ليس الحماية فحسب بل والمركز المؤثر . ثم اختتم كلامه بأنني قد طالبت بتعديل في السلوك العام تجاه العدو وأنني سوف أتفضل مشكوراً بطرح وجهة نظري هززت رأسي شاكراً لهم ثم قلت أن قضيتي في الواقع بسيطة جداً ولا تستاهل الكلام وأنها ببساطة تطالب بالتزام الرأفة وكف اليد عن أي شخص في المنطقة حتى ولو كان يأخذ سمت المعتدي ، ثم أنني كالعادة ظللت أشرح في هذه الكلمة البسيطة ما لا يقل عن عشر ساعات ألف وأدور وأحكي مشاهد وحكايات لا رابط بينها ولا ضابط لها ولكنها كلها تدلل على أهمية ما أطلبه . فإذا بالموشومين يتململون في جلستهم . وإذا بأحد فصحائهم يصيح قائلاً : « قل لنا ماذا تريده

منا بالضبط . . نحن الموشومين لا نفهم الأساليب الإنسانية المطاطة ، لا نحب سوى الأسلوب العلمي المحدد . . فما معنى استعمال الرأفة وما معنى كف اليد . . إننا أولاً وقبل كل شيء لا نعرف ما هي الرحمة ولا نفهم معناها ولم نسمع بها من قبل أبداً . . فكيف نوافق على قبول شيء لم نفهمه . . قولوا لنا ما هو المطلوب منا على التحديد ونحن ننفذه !» . .

ضحكت حتى بكيت ، وضربت بكف يدي على الترابيزة في اشمئزاز ، وقلت : « كيف يكون كلامنا انشائياً وهو في غاية الوضوح . . كيف نكون أكثر تحديداً من هذا ؟ لكن الأمير خزعل أمير الحبس نصحني ـ بحركة من يده ـ بالهدوء والتريث ثم قال : « يؤسفنا يا سيادة الطرشجي الحلوجي أنك لم تكن موفقاً في عرض وجهة نظرك ، فأنا نفسي لم أفهمها على الإطلاق . . ولكن دعني أبلغ ما تريده للموشومين على النحو الذي تفهمه » . . ثم اتجه بأنظاره إلى الموشومين صائحاً : « يا أيها الموشومين . . لقد أمرنا بأن يكون التعامل مع الناس كما يلي : بدلاً من أن تقطم رقبة الولد وتشرب دمه اخلع أحد ذراعيه فقط . . وبدلاً من أن تقتل البائع المريح من أجل ما معه خذ ما معه كله ودعه ولا تقتله . . وبدلاً من أن تفقأ عيني أحد الفتوات أفقأ له عيناً واحدة . . وبدلاً من أن تخطف الخروف من الجزار وتأكله في نفس الموقف خذه وكله بعيداً عن الأنظار . . وهكذا وهكذا » . . وكان يقول هكذا هذه وهو ينظر إليّ ليريني كيف يكون أسلوب التفاهم مع الموشومين .

ركبتني الرعشة وتيقنت من تعس الديار المصرية حتى لكأنه سنة كونية لا تراجع فيها ، وقلت في نفسي : « أعان الله أهلها على الاحتمال » ونظرت في أنحاء الخزانة فرأيت أبناء الديار المصرية الذين تزايد انتماؤهم للخزانة يسمعون الكلام الذي أقوم بتسريبه من الشباك لهم فإذا بهم يؤيدون كل حرف فيه بل ويرسلون أو يجيئون هم أنفسهم بكلمات تشجع السفاح على مزيد من السفح والقاتل على مزيد من القتل واللص على مزيد من اللصوصية ، وكنت أراهم وأرى بينهم الكثير من بني شلبي فأخصهم بنظرة احتقار تحتية يجدون لذة في تجاهلها، ولم أكن أنزعج من حفارتهم هذه لعملي أنهم لا يمثلون بني شلبي

على الحقيقة ، نعم وهذه النماذج من بني شلبي أيضاً لا تمثل الديار المصرية ، أنهم مجرد لصوص وسماسرة وانتهازيين يتواجدون في كل عصر وفي أي بلاط ويلوثون كل أسرة . . فلما انفض الاجتماع أخذتهم على جانب وقلت لهم : « يا بني شلبي لماذا تجاهرون بالولاء لمن لا ولاء له ، وتظهرون الحب لمن لا يستاهل الحب ، وتشجعون على المضي في الطريق من صار في طريق تعذيبكم وشرب دماء اخواتكم ؟». فقال قاتل منهم وهو يتأهب للعراك : « لأننا نعرف أن كل شيء سيمضي على ما هو عليه سواء رغبنا أو لن نرغب ، والظلم باق والسفح قائم سواء رضينا أم أبينا ، فمن الخير لنا أن يكون الأمر ـ ولو في الظاهر ـ متفقاً مع رغبتنا ، هذا هو الموت بالمجان ». وقال آخر كأنه يحتقر عن صفاقة الأول: «أعلم يا سيدي أنه لا ناقة لنا في الأمر ولا جمل ونحن نشتري الحاكم بكلمة طيبة ، أو قل إننا نتقيه ونتقي شره ». ثم أنني خرجت ضائقاً أنفض عن نفسي ما علق بها من غبار، ولم يكن ثمة شعور بالحبس ، نعم فلقد تبدد هذا الشعور منذ مدة طويلة بل وربما كنا نحن سكان الخزانة أكثر شعوراً بالأمن والأطمئنان من سكان الخلاء والدور الحرة في سائر الديار المصرية ، الحرية الممنوحة لنا تفوق بكثير جداً تلك التي من المفروض أنها ممنوحة لغيرنا ، على العكس ، ربما كانت الحرية قيداً على الآخرين بينما هي انطلاق بالنسبة لنا . سألت نفسي : « ما السر في ذلك يا ابن شلبي ؟». ولم استطع في الواقع تفسيره ، لكني قلت أنه ربما كان السبب هو أن الديار المصرية يحكمها سلطان وحكومة وقانون أما نحن فلا يحكمنا شيء . وكل واحد فينا تقدر الحرية بقدر ما يجلب الأمير من خيرات ويدرا عنه من مشاكل ويخلع عليه من صفات ويعطيه من تسريه ، أما الأمير نفسه فلا حاكم له على الإطلاق . ولقد حاولت أن أجد تعريفاً صحيحاً لهذه الخزانة في وضعها ذاك فلم استطع أيضاً ، فإذا كنت أنا لا استطيع تفسير سلوك أولاد شلبي وهم عشيرتي فكيف استطيع الزعم بالقدرة على تفسير أي شيء آخر . . وكنت قد طاوعت قدمي فقادني السرحان إلى ميدان بين القصرين وعدت لأتسكع قليلاً في حي العطوف ثم أخرج منها إلى كيمان الدراسة وألف حول الخزانة وأشرف عائداً على الجامع الأزهر ،

فأرى سكان الخزانة هم أبـرز ما على الأرض وأقـواهم جميعاً ، ولم يعـد أحد منهم يدور بقواريـر الخمر ليبيعهـا على جانب وفي كتمـان مسرحي بـل أصبح الواحد منهم يسرح بآلة التقطير نفسها ويقف على أي ناصية تروق له ليبيع الخمر كما عربات العصير في عصرنا في القرن الرابع عشر للهجرة . . وصار يحلو لي متابعة الجموع المتناثرة في انحاء ميدان بين القصرين وحتى باب النصر وميـلاً نحـو الخرنفش ، تقف أمـام آلات التقطيـر وتداري نفسهـا بستـارة وهميـة من الخجل المتبجح كالذين يفطرون في رمضان وهم في الظاهر محترمون جداً ، وثمة مشايخ أجلاء وأمراء كبراء وناس فضلاء يسيرون في الطرقات فما أن يمروا على إحدى الجموع حتى تلتوي شفاههم في اشمئزاز وتنفسح وجوههم بالقرف الشديد ويتمتعون بشتائم وادعية ولعنات غاضبة ، وكنت أشعر في أعماقي أنني أشاركهم نفس الغضب ونفس المشاعر ولكنني أنطق بلسان آخر واتحرك بدافع أقوى من أي دوافع أصيلة وكم كنت أود لو هربت من هذه الخزانة إلى الأبد وها أنذا في شوارع القاهرة حر غير أن الهروب من الخزانة ليس له أي منفذ ؛ فلن تهرب من الخزانة إلا إليها ، وسوف يعود بك جنود متطوعون . .

اصطدمت بي فتاة تلف نفسها في ملاءة من حرير ديبقي معتبـر مما يـدل على أنها بنت ناس ، وكنت أظنها مخبولة من شكل اصطدامها بي ولكن ما أن نظرت فيها حتى تعلقت برقبتي والدموع تقطر من عينيها وتقول : « في عرضك وقعت أيها الفرنجي الطيب ». وكانت من الزعر في حالة ناصعة الوضوح . قلت لها : « ما أنا بافرنجي يا فتاة ولكن ما بك ؟». فصارت تنظر خلفها وحواليها في تـوجس وتقـول : « أين هم . . أين ذهبـوا ؟». قلت : « من هم ؟». قلت : « أولاد بعض الأمـراء وبعض التجار الكبـار . . أعـرفهم ويعـرفـونني . . يـطاردونني . لـو وقعت في ايـديهم سيفتكون بي ». تعجبت . قلت لهـا : « لم ؟». ثم نظرت في وجهها ثانية أتمعن في ملامحه وأحاول اكتشاف الكذب والادعاء فلم أستطع لم أرَ إلاَّ ذعراً حقيقياً وتعـاسة حقيقيـة وحزنـاً حقيقياً ودمـوعاً يتصاعد من قطراتها صهد قوي ، في السادسة عشرة من عمرها كانت وحورية من حـوريات الجنـة كانت ولكن الـذعر جعلهـا كتلة من الدمـاء تبحث لنفسها بين

الأطراف عن منقذ تندفع منه . قالت الفتاة : « هناك أحد الأمراء رزاه الله بولد لم نعلم من أين جاءت بذرته ، أمن شيطان أم من حيوان مفترس لا أحد في الديار المصرية يعرف مريض هو ربما ، وحسن يجوز ، لكنه مصاب بداء والعياذ بالله لا تفسير له ». قلت : « ما هو بحق الله ». ـ ورحت أرتعش داخل هدومي وأتلفت باحثاً عن أحد الموشومين لأنذره بالبقاء في جواري الآن ، قالت الفتاة : « كل يوم لا بد أن يمزق لحم فتاة بشفرة حادة ، ويشرب دمها ، ثم يتركها ، ليكون في انتظاره ثلاثين طفلاً يتدرب في رقابهم على ضرب السيف وجز الرأس من العنق ». جزرت ساقي بصعوبة وبحثت عن لساني حتى وجدته ، قلت لها : « أس . . م . . عي . . يا . . فتاة . . هل أنت من أبطال ألف ليلة وليلة ؟». قالت : « لا أعرف شيئاً ». قلت : « هل أنت جنية من جنيات الأساطير ؟». قالت : « والله أنا من هذه الديار المصرية أباً عن جد لنا فيها مقابر نزورها لنقرأ الفاتحة على رؤوس عشرة أجداد على الأقل ». قلت : « ولكن ما تقولينه يشبه الأساطير وحياة الغابات ». شدتني في ذعر صارخة : « أنظر سيدي ». فنظرت . فرأيت مجموعة من الفتوات يسحبون فتاة كالوردة وهي تصرخ بأعلى صوتها وتدبدب في الأرض بقدميها وتتعرى وهم في النهاية يكتفونها ويحملها أحدهم تحت أبطه كالزكيبة ، يسأله أحد الشيوخ في أسف : « أهي ابنتك أو ابنة أحدكم ؟». يقول حاملها : « لا شأن لك »؟ ويقول آخر منهم « كن في حالك يا رجل »، ويذكره ثالث قائلاً : « أنها بنت خاطئة وكانت تزمع الهرب وهي بنت ناس ولذا سيقيمون عليها الحد . . سيرجمونها . . وتصرخ فتاتي في صدري : « هكذا يقولون دائماً . . يخطئون الفتيات في الديار المصرية لإرضاء نزوة جنونية حيوانية في ابن الأمير . . هذه التي يقولون عنها أنها خاطئة كل خطيئتها أنها مشت في الطريق لسبب فوقعت في قبضتهم . . لسوف يقودونها إلى حتفها »، قلت في رعشة : « أهؤلاء هم الذين طاردوك ؟». قالت : « بل طلائعهم ». قلت : « الهم طلائع ؟». قالت : « الشبان الصغار المرفهون . . يمشون وراء الفتاة يوهمونها أنهم معجبون وأنهم للود خاطبون . . وإذ تميل الفتاة لسحر كلامهم تتلكأ في مشيها فيدخلون عليها بالحديث اللطيف والبسمات

العذبة والأصوات النشوانة الهيمانة وبعد لحظات وجيزة يطب الفتوات ليأخذوهم جميعاً ، بعد خطوات يسربون الشبان ويقبضون على الفتاة ».

جن جنوني ، وكان الفتوات قد توغلوا في حي العطوف وأوشكوا على الإختفاء حينما لمحت أحد الموشومين قادماً من بعيد يقزقز في رأس خروف ، صحت منادياً أياه فجاء يهرول والأرض تهتز تحت جسده ، فلما اقترب مني أشرت له إلى الفتوات وقلت الحق بهم وخلص الفتاة منهم ، ففي خطوتين أو ثلاث كانوا جميعاً تحت سيطرة الموشوم . في حين سحبت فتاتي وسرت نحوهم . أخذ الموشوم في بطنه شخصين فوقعا على الأرض وبقدمه شنكل ثلاثة فتكوموا فوق بعضهم . وبأطراف أصابعه أمسك بالفتاة من تحت أبط الفتوة وشيع له ضربة قدم في بطنه فنزل ميتاً . لما وصلت كانت الفتاة تنتفض في قبضة الموشوم فأخذتها منه وقلت له : «تصرف مع هؤلاء ». فجاء صوت أحدهم وهو مكوم على الأرض قائلاً أنه يحذرنا مغبة ما نفعل لأنهم من ألأديش أحد الأمراء وأن علينا أن نترك لهم الفتاة بدلاً من التسبب في حدوث أزمة بين الخزانة والأمراء ، فضحك الموشوم وقال له : «سوف أقتلهم جميعاً إلا أنت سأتركك حياً لسبب واحد هو أن تذهب إلى أميرك وتنقل له ما حدث ليجيء ويريني قوته . ثم هاج كالوحش فبتر بطن هذا وخلع رأس ذاك وبطط جسد ثالث وهشم رأس رابع ولم يبق إلا على المسحوب من لسانه وكان قد صار خرقة بالية رفعه الموشوم عن الأرض وأوقفه وقال له : « هيا اذهب إلى أميرك ». ولكن الفتوة كان قد مات بالفعل وتهاوى على الأرض . نظرت للموشوم غاضباً مما فعل ، فقال بهدوء « كانوا يريدون أكل هذه الفتاة . . أكل بأكل نحن أولى بها ». قلت له لأطمئن الفتاتين : « لا أكل ولا شرب . . لقد أدينا رسالة الخزانة وانقذنا الفتيات من مصير مظلم وهذه رسالة سامية ! . . ولكنك خلقت لنا مشكلة ما كان ينبغي أن نواجهها : قال : « تقصد القتلى الذي حدث ؟». قلت : « لا . . أقصد الجثث . . أما القتلى فهو أمر هين بالنسبة لنا وليس مشكلة . . لكن الجثث . . كيف نتصرف إزاءها ؟». قا الموشوم : « هذه ليست مشكلة . . سأجرها إلى كيمان الدراسة . . لو كنا أيام الفقر لجررتها إلى الخزانة نقتات

بها . . لكننا الآن لا نعاني من مشكلات اللحوم . . دع ذلك لي وامضي في طريقك لا تخف ». ثم ربط الجثث في بعضها بحبال ثيابها وأحزمة لها كانت معها ثم جرهم جميعاً ومضى فكان الثور الذي يحمل الكرة الأرضية على أحد قرنيه في حالة نقل الكرة الأرضية على قرنه الآخر ولذا فالأرض تهتز هكذا . . ونظرت في ساعتي فوجدتنا في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة .

رحت أسير بجوار الفتاتين والدنيا في نظري كئيبة كئيبة كئيبة ، وليس ثمة من يعرف أحداً ، لم أر مشهداً واحداً يدل على أن ثمة علاقات بين الناس وبعضها في هذه المدينة ، لم يقف أحد ليسلم على أحد أو حتى ليتعرف عليه أو يرمي له التحية من بعيد ، كذلك لا أحد يبتسم . أندر شيء في هذه المدينة زمنذاك هو الابتسام ، العيون فقط هي اليقظى ، عيون تتسلل خلسة لتنظر في الأشياء والناس ثم ترتد حاسرة ، كأنهم جميعاً رجال خنس يعرفون ويجبنون عن إظهار ما يعرفون، التجار من أصحاب اللحى يبسلمون ويمرقلون ويساومون في سأم ويحلفون أغلظ الايمان بأن هذا السعر أو ذاك لا ينفع . وفي النهاية يبيعون به . فجأة راق الجو الذي كان منذ برهة يمتلىء بسحب التراب ، ورأيت الناس تغلق الدكاكين وتتجه الجموع إلى الجامع الأزهر فعرفت أن اليوم يوم جمعة وأن موعد الصلاة قد أزف . وعاودني الحنين إلى الصلاة جماعة وفي الجامع الأزهر ، فعرجت على الخزانة حيث سلمت الفتاتين لأحد رجال حاشية الأمير خزعل وعدت متجهاً إلى الجامع الأزهر لألحق بالصلاة . كانت واجهة الجامع نظيفة والمآذن الشامخة تغوص في قرص الشمس . نظرت في صحن الجامع فلم أجد موضعاً لقدم ، لكنني مع ذلك دخلت وشعرت بكثير جداً من الفرح وأنا أرى عشرات المئات من الرؤوس والأكتاف المتجاورة الخاشعة التي كأنها جسد واحد ، الطريف أنني رأيت بعض الموشومين يدبون في صحن الجامع بين المصلين في بلاهة كحيوانات ضالة بعضهم يتساقط الماء منه ومن بعضهم يتساقط الوسخ ، وكان خطيب المسجد منهمكاً في حماس يرسل الآية تلو الآية والحديث وراء الحديث ، وصحن المسجد يرن بأسماء عمر وعثمان وعلي وآل البيت الصالحين ، ورأيت المصلين ينظرون إلى الموشومين بحرج شديد يشوبه

خوف أشد ولا يجرؤ أحدهم حتى الخطيب نفسه أن يلفت أنظارهم أإلى التزام الهـدوء والأدب كمـا يفعلون مـع بقيـة الخلق.، فـانتهـزت الفـرصـة وأشـرت للموشومين وطلبت منهم بالإشارة أن يجلس كل منهم في مكانه لأنهم سيقابلون الله الواحد الأحد. فجلس كل منهم في مكانه فوق الجالسين ، إكراماً لخاطري وسع بعضهم لي فجلست محشوراً وبدأت انتبه إلى صوت الخطيب لأتمعن فيما يقول ، فإذا به ـ وبصوت رداحة مصرية من شارع كلوت بك أو محمد علي يقول بلهجة ممطوطة ومشوحاً بيديه: «نعم يا عـو. . و. . . مر. . هكـذا الأمر. . مـر. فكيف تـدعى ذلك يـا عو. . مـر». غلبني الضحك حتى لم أعـد قادراً على كتمـانـه . قـال الـذي يجـاورني : « عـلام تضحـك ؟» قلت : « لمن يـردح الخطيب ؟ . قال : « ما معنى يردح ؟». قلت : « في عصرنا في القرن الرابـع الهجري نساء يحترفن العراك الحاد بالكلام والشتائم ، كل منهن تفرش الملاءة لـزميلتهـا وتصفق بكفيهـا وتشـوح قـائلة : « أيـه ده يـا عـومـر ». قـال الـذي يجـاورني . . هل صـارت هذه اللهجـة المنحرفـة في الخطابـة إلى مـا تقـول عنه ؟». قلت : «لكن من هو عووومر هـذا الذي يقصـده الخطيب ؟» قـال : « سيـدنا عمـر بن الخـطاب ». الـردح وصف من أوصـافكم انتم . . أمـا هـذا الخطيب فهو من فـرط الحماس والتشيـع ينطق الاسم هكـذا ممطوطـاً منغومـاً بسخرية وتسلية ». قلت : « هل هـذا الخطيب شيعي ؟» قـال : « نعم هو من بقايا الفاطميين ». قلت : « ولكن كيف يسمح له بـ . . ». قاطعني قائلاً : « لقد اختلط الحابل بالنابل يا ابن عمي . . لم يعد ثمة صفاء في شيء . . كل شيء صار مشوباً بأشيـاء أخرى حتى الصـلاة والعبادة .. أكثـر من نصف المسلمين يفعل طقوساً وزيادات وعادات لا يعرف معناها ، لو رأيت أحد المصلين يفعلها لقلت أنه شيعي خطير ، ولو اقتربت منه لوجدته غير شيعي بل قد تجده لا يعرف ما هو الشيعي وما هو السني ، إن الوعي بالدين لم يعد موجوداً على الإطلاق ، إن الجميع يصلي فحسب وبأي شكل يروق له ، وهو مـطور فهو قـد استهدف لعشرات البدع من عشرات الفرق ، ثم أخيراً صار الشيوخ موظفين ولم يعد أحد يسأل في أحد فخل عنك ولا تشغل بالك إلا بالله وحد الله ». فقلت لا إله إلا الله

ولا حول وقوة إلا بالله . ورأيت الضيق الشديد يظهر على الوجوه وكبار المصلين يرسلون الإشارات للخطيب حتى يوجز ويصرفهم إلى مشاغلهم ، لكنه كلما أوشك على الختام استطرد من جديد وانفعل وخبط بالسيف أرض العنبر في عصبية فائقة . حينئذ ضحك الذي بجواري فقلت له : « وعلام تضحك أنت ؟» قال : « من عصبية الخطيب . . بعد قليل سوف يخرم بالسيف أرض المنبر ». قلت : « فما الداعي لهذا ؟». قال : « يريد أن ينتهي . . لقد أعاد وأزاد وكرر ما قاله مرات ومرات . . ولسوف تطفر الدموع من عينيه أن لم يهبط عليه الخلاص كالمعجزة !» قلت : « يا لها من طلاسم غامضة . . أي خلاص وأي معجزة ينتظرها هذا الخطيب ؟». قال هامساً : « أنه يطيل في الخطاب حتى يجيء مندوب من القصر يبلغه عن الدعاء !». قلت في غيظ : « دعاء من وأي دعاء ». قال في هدوء » المفروض أنه في نهاية الخطبة سوف يدعو لمولانا السلطان ابن قلاوون كالعادة ». قلت : « طبعاً . . وهل تجيء له صيغة الدعاء محددة من القصر كل أسبوع ؟». قال الرجل : « لا . . أن السلطان الناصر محمد قلاوون يعاني الآن سكرات الموت ومنذ أيام طويلة . . وقد تلقى هذا الخطيب اشارة من الأديش الأمير تنذره بالتأني في الدعاء فربما يموت السلطان وتكون صلاة الجمعة فرصة سانحة لأعلان السلطان الجديد المنصور أبي بكر بن الناصر محمد الحالي !؟ قلت : « والله أنه لمزاج سمج وهذر سخيف . . لن أؤدي الصلاة وراء هذا الخطيب . . ثم قمت فأديت الصلاة وحدي وخرجت .

من حسن الحظ أنني خرجت قبل خروج المصلين ، ذلك أن الشوارع كانت تغص بالجموع القادمة تهرول في ذعر من ناحية الخزانة ، وكان بعضهم يجر ساقاً مهيضة وآخر مكسور الذراع وثالث مشجوح الرأس وكانوا رغم ذلك يضحكون ولكن في ألم ، فلما اقتربت من الخزانة وجدت تجريدة من الجند عائدة في ذلة منزوعة السلاح منزوعة الكرامة . ورأيت واحداً من رجال الخزانة فسألته عما حدث فقال إن الأمير صاحب الابن الشاذ قد جاء يثبت أن له سطوة فعاد بلا كرامة على الإطلاق وكان مأسوراً لولا أن تشفعت له فتاة من الفتاتين .

قلت : « هي روح التسامح المصرية أنهما إذن لمصريتان حتى النخاع ». وما كدت أدلف إلى باب الخزانة حتى صار في الجو صائح جهوري يقول : « البقية في حياتكم . . مات السلطان الناصر محمد بن قلاوون . . وخلفه ابنه المنصور أبي بكر ». قلت : « على خيرة الله » . . ثم دلفت إلى الخزانة .

الفصل الحادي عشر

أيها السلطان يا من أضاعتك « السلطنة »

عقدت الخزانة أكبر أجتماع في حياتها ، ظل منعقداً طيلة النهار والليل يستقبل أبناء الخزانة العائدين من مشاويرهم داخل أو خارج المدينة ، منهم من قطع رحلة تجارية كان قد بدأها ، ومنهم من أدرك الخبر في إحدى القرى فركب فوره وعاد ، كأنما الخزانة قد صارت وطناً لنا وكأن وطن يمر بمحنة تشدنا إليه وتوقفنا معه ! وكان كل قادم جديد يفاجأ بعد برهة أن الأمر لا يستاهل القناع الذي ارتداه فيبدأ في خلعه ويصير طبيعياً مثل أمراء الحبس يضحك ويمزح ويعافر . الحق لله لم يعجبني المنظر . كيف تكون في محنة كهذه ونقطع الوقت في لهو ولعب ! لقد مات حليفنا الكبيرو وصرنا بدونه في العراء نستهين بالأمر إلى هذا الحد ! وخفت أن يتمادى الأمير في استهانته بالمأساة فيطلب مني فتح الشباك على ساحة الهذر . وقد صح ما توقعت ، حيث أمرني الأمير خزعل أن أفتح الشباك على الطبول والدراربيك ، فما أن فتحت الشباك حتى امتلأت الخزانة بأصحاب الطبول والمزامر والدراربيك والمزامير والأراغيل وما لبث الجو أن امتلأ بكل الأصوات الرائعة وأنا اتفرج في شعور شديد بالحرج والوجل . صربني خزعل بالكف على ركبتي في مرح فوقعت على الأرض فعدلني باصبح قدمه فتوازنت . قال خزعل ضاحكاً : « بودنا أن يشاركنا سيادة الطرشجي في مرحنا ». قلت : « فعلاً أنا في غاية المرح ». قال : نعم بكل تأكيد ». فصحب لاسة حريرية رماها عليّ وقال : « قم ». قلت : « لماذا ؟». قال : « أرنا قدرتك على المرح ». قلت : « كيف ؟». قال : « تحزم وارقص ». قلت : « ماذا ؟!». قال : « هيا . . إن لم يرقص المرء مات ناقص عمر »، ثم أشار

للطبول أن تجعل بالها معي فهدأت وصارت تفرش لي بايقاعات في البداية ، ثم لما صار جسدي يهتز رغماً عنه قلت: « كيف بالله يا أمير نرقص هكذا ونحن لا نعلم أي تدبير ينتظرنا الليلة بعد موت حليفنا ؟». قال خزعل : « لست أدري من أي مصدر جاءك القلق . . أنت مصري . . يعني أنك تعرف خلة الحكم في الديار المصرية ». قلت : « نعلم ولهذا أريد أن نفكر فيما يمكن أن نواجه به ظروفنا القاسية . قال : « يا عبيط . . ثق أنه لا أحد الآن يفكر فينا على الإطلاق . . أتعرف لماذا ؟ . . إن الملك في الديار المصرية ينتزع انتزاعاً ، والسلطان والأمراء مشغولون بأحلام الثروة والجاه . . إن دماغ كل منهم لا يفكر إلا في نفسه فحسب . . وغداً ترانا ملوكاً بدورنا لأنه سيكون دائماً ثمة من يستعين بنا لمساندته . . وإلى أن يجيء من يطلبنا العون دعنا نرقص . . إلا أن كنت تخشى على مظهرك كطرشجي وقور ». قلت : « أي نعم هذه هي الحقيقة . . ولا يليق بطرشجي مثلي أن يتحزم ويرقص حتى ولو كان ذلك تعبيراً عن سعادته ». قال : « أنت حر ». ثم نزع اللاسة مني وتحزم بها و . . هات يا رقص على كل لون ، من دبكة وتحطيب إلى واحدة ونص » فما أن اندمج في الرقص حتى صارت الخزانة كلها ترقص حتى بدأ جميع من فيها كذرات وسط ماء يغلي بعنف . فتركها الأمير تغلي بالرقص وانسحب وعلى شفتيه ابتسامة واهية ، ثم جلس وسط خاصكيته قائلاً: ما آخر ما عرفتموه ؟». فقال أحدهم أنه شاهد في جنح الليل عسكر السلطان يسحبون بعض الأمراء ثم يضعونهم في خزانة شمائل ».

صفق الأمير خزعل في مرح وقال ناظراً إليّ بلهجة ذات معنى : « ها قد بدأت المذبحة يا طرشجي . . أمراء يزج بهم في خزانة شمائل . . أقبح سجن في القاهرة . . أليس كذلك ؟». قلت : « نعم . . خزانة شمائل هذه سبق أن عرفني بها صديق يدعى المقريزي . . الست تقصد هذه التي بجوار باب زويلة . . على يسرة من دخل منه بجوار السور . . لقد عرفت بالأمير علم الدين شمائل والي القاهرة في أيام الملك الكامل محمد ابن العادل أبي بكر بن أيوب . . هي من أشفع السجون وأقبحها منظراً . . يحبس فيها من وجب عليه

القتل ، أو القطع ، من السراق وقطاع الطرق ، ومن يريد السلطان اهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة ». قاطعني خزعل : لسنا في حاجة إلى درس في تاريخ خزانة شمائل . . إنما أريد أن أذكرك بأننا أكثر حرية من أمراء كانوا في السلطة منذ برهة وجيزة ». عجبت لرجل كهذا يفهم سر الحياة في الديار المصرية بأدنى وأجل مما يفهم أبناؤها ، ثم عدت فضحكت ضحكة سوداء حين تذكرت أن نسبة كبيرة من بني شلبي لا يفهمون شيئاً على الإطلاق في شؤون الحياة بل أن يفهموا في شؤون السياسة . سألت الأمير « خزعل » عن سر مفهوميته فقال أن أبناء الديار لا يتسنى لهم أن يفهموا ، ليس فحسب لأنه من غير المهم أن يفهموا وإنما لأن الحياة في ديارهم مرتبة بحيث ألا يفهموا ، لقد كانوا أقنان أرض وعباقرة مقابر ، عباقرة المقابر عزلوا الافنان عن نور العلم والحضارة ، جعلوا الحضارة والعلم لغة خاصة بهم وحدهم كفراعين أقوياء يؤمنون تماماً بفكرة الأسرة . . مات عباقرة ودفنوا في مقابرهم العظيمة ودفن أقنان الأرض في جهلهم العظيم ـ. من كهوف الجهل يخرج الأطفال أرتالًا كالجرذان تسعى في أرض الوادي الخصيب . . انداحت الحضارة وانداح كل شيء ولم يبق في هذه الديار سوى عبقرية الأرض نفسها . . وعبقرية الأرض التي تواءمت مع جهل الأفنان تصبح ويصبحون في حاجة دائمة إلى من يسوسهم ويسوقهم . . لقد كتب على هذه الأرض أن يمتلكها حكامها وأن يظل رعاياها مجرد رعايا لا ناقة لهم في الموضوع ولا جمل كما يقول فصحاؤكم . . من هنا فإن امتلاك السلطنة مسألة دونها ـ كما يقول فصحاؤكم ـ خرط القتاد . . السلطنة تنتزع بالسيف لا يعوقها خجل ولا حياء ولا شرف ». وهنا أكلتني الدماء في عروقي وهممت بالرد عليه صحيح أنني لم أكن قد جمعت بعد ما سوف أرد عليه به ولكنني تعلمت من عملي بالصحافة أن الإنسان يجب أن يرد والسلام . . غير أن « خزعل » أشار نحوي بيده في محاولة لوم قائلًا : « كنت أنتظر أن تقوم بعمل مهم يفيد الخزانة الآن وأهلها ». قلت : « من أين يجيء العمل المفيد وسط الرقص ؟». قال : « فليكن مفيد للرقص . . هي فائدة على أي حال أفضل من قلتها ». قلت بكثير من الغضب المكبوت : « يعني سمو الأمير يريدني أن أبذل

جهوداً تخدم هذه الأغراض ؟» قال : « من الذكاء والحكمة أن يلتحم صوتك بالصوت الذي يتردد في الأفق ». قلت : « وشرف الإنسان ». قال ضاحكاً : « ما سر هذه الأفكار الجديدة الغريبة التي بدأت ترددها ؟ . . هل انضمت إلى إحدى الفرق ؟ . . نصيحتي لك : أحذر أن تكون متشيعاً لأي فكرة . . وإلا . . فابحث لنفسك عن مكان آخر غير هذه الديار . . هاأنت ذا ترى أن السلطان في سبيل راحتنا قد لفظ ذاك المدعو الملك الجوكندار . . الناس تحبه لأنه طيب بالفعل وصاحب مبدأ وينادي بالشرف والأخلاق ولكن هل نجح ؟ . . قلت : « لقد أدى ما عليه ». قال باسماً: «كان قميناً بأن ينجح لو أن هدفه الحقيقي من أجل خدمة جماعة . . كان من الممكن أن يتصرف السلطان المرحوم في أمرنا لكي تستريح المنطقة من شرورنا المزعومة ؟ . . لكن هدفه الحقيقي من محاربتنا كان أراحة نفسه ، حماية أهله وأولاده من بعض تجاوزاتنا ، فلما خذله السلطان ترك لنا المنطقة وهاجر . . إن المحارب من أجل هدف شخصي سرعان ما يسأم من توالي الهزائم . . أما المحارب من أجل هدف جماعي كبير فهو لا يسأم أبداً مهماً جافاه النصر ، لأنه سيستمد من حرارة الهدف ودفء الجموع وقود الحرب ». قلت : « والله أنك لحكيم يا سمو الأمير . . هكذا الأمراء والا فلا . . ولكن قل لي . . هل تعتبر نفسك محارباً من أجل هدف شخصي أم من أجل هدف جماعي ؟». قال ببساطة : « لم أعد محارباً . . إنما أنا مدافع . . نعم . . ادافع عن حياة كل هؤلاء المظلومين في الديار المصرية . صحيح أن بينهم ظلمة ولكنهم لم يكونوا ليظلموا لولا وقوعهم تحت سنابك الظلم ، إنك إذا دست على جسد ثعبان فسوف يعض من يقف أمامه !». ثم أنهى كلامه قائلاً : « والآن ما رأيك في أن نرسلك في مهمة للتجسس لحساب الخزانة ؟». قلت : « أين ؟» قال : « في القلعة . . لتجيء لنا بأخبار المذبحة التي لا بد ستحدث حول من يعتلي عرض السلطنة ». قلت : « ولماذا التجسس يا سمو الأمير ؟»، « إن لدينا نافذة تتعامل من خلالها مع البعيد ، والأفضل أن يكون لها مندوبون ومراسلون في كل مكان يعملون في العلن ويتعاملون مع الناس بلا حساسية . . هكذا تفعل وكالات الدول العظمى كوسيلة رشيقة لجميع الأخبار بكل صنوفها ». شوح قائلاً : « نظم الأمر كما يحلو لك ولكنك أنت

شخصياً لا بد أن تكون موجوداً في القلعة لتوافينا بكافة الأنباء . . ولسوف تتولى الخزانة حراستك دون أن يشعر أحد ». قلت : « أريد بدل سفر بالعملة الصعبة ». قال : « ماشي ». قلت : « أريد ناقلة خاصة بي وحدي ». قال : « هي لك » قلت : « وسكرتير يحمل حقيبتي وآخر تكون وظيفته اقتحامي وأنا جالس يهمس في اذني على الدوام ». قال : «وعلام يهمس في اذنك وبأي شيء ؟». قلت : « لا لشيء . . فليهمس بأي شيء ؟». قال : فما معنى هذا ؟». قلت : « لا أفهم معناه بالضبط ولكنه لزوم الأبهة وممارسة الشعور بالأهمية ». قال : « كلكم في الديار المصرية صابون بعقدة الخدم . . لك ما تشاء على أي حال ». انتقلت من فوري إلى القلعة محمولاً على صهرة جواد يحف بي حرس شرفي فلحقت بالسلطان وهو يعتلي الأريكة ، هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر بن السلطان الملك الناصر أبي المعالي محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، جلس في الايوان في القلعة بعهد من ابيه إليه ، وكان لا بد من وسيط يدخلني إلى القلعة ، من حسن الحظ أن رأيت ابن تغري بردي يهم بدخولها للقاء السلطان فسلمت عليه ودخلت معه ، فقال لي ونحن في طريقنا إلى الايوان أن المنصور هذا هو الثالث عشر من ملوك الترك بديار مصر ، والأول من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون . هيه دخلنا الايوان بالقلعة فإذا بالمجلس حابك بكامل هيأته ، الملك المنصور في امواجهة على الأريكة ، شباب حلو الوجه فيه معمره وهيف قوام ، عمره حول العشرين سنة ، فحل كبير . سلمت على الملك وقبلت الأرض بين يديه ووسع لي بعضهم مكاناً بجواره فجلست وجلس ابن تغري وأخذ يعرفني بهم : « الأمير طقز دمر الحموي ، حمو الملك المنصور ، قائم بنيابة السلطنة بديار مصر ، إذ هو من أكابر الأمراء وأيضاً صهر السلطان . . الأمير قوصون الناصري مدير المملكة ورأس المشورة ويشاركه في الرأي الأمير بشمتك الناصري . قلت : « أهلاً وسهلاً . . أجدع ناس ». فهزوا رؤوسهم في تجله قائلين : « أنت الأحسن يا أبو العم ». ثم أنني اقتربت من السلطان وهمست في أذنه بأنني أريد أن أتحدث معه في أمر يخص أبناء شلبي الذين قابلتهم في عصره وحملوني شكاواهم لما عرفوا أنني سأقابل السلطان . فقال السلطان أهلاً

وسهلاً بكل سرور ، ثم أضاف : « ولكنني الآن سوف أتوجه إلى جامع القلعة حيث قد جمعت القضاة للنظر في أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان وأعادته إلى الخلافة ». قلت له : « ليس الآن بالطبع . . إن مشكلة بني شلبي ليست أهم من الخلافة بالطبع ». ولكنه هز رأسه موافقاً وقال أن مهمته في جامع القلعة لن تستغرق وقتاً طويلاً يكون بعده في جلسته تلك ويشرفه حضوري أو على الأصح عدم انصرافي . ربك والحق وجدت نفسي مكسوفاً من الرجل وخفت أن يظنني أتعالى عليه فضلت البقاء حتى يعود . ثم صرت أتلقى كؤوساً من الفضة تارة والذهب تارة أخرى أجرع ما فيها وأعيدها لاتلقى طبقاً فيه حلوى التهمتها واعيد الطبق لاتلقى منديلاً اجفف به يدي وفمي ، ونظرت في وجه طقزدمر فوجدته مسحوباً مدبب الفك مطبق الشفتين غير مريح . فعرجت على وجه قوصون الناصري فوجدته كالبطيخة تماماً وإن كان سطحها لون قلبها فامتعضت ، ثم انشغلت بزخرفة الألوان ودقتها وتوازنها ، ثم صرت انشغل بأشياء لا حصر لها ، فلما انتبهت بعد برهة لم أجد في المجلس سواي ، لا طقزدمر ولا قوصون ولا تغري ولا السلطان الشاب ، لا أرى إلا خدماً يواصلون خدمتي دون ملل . سألت أحدهم عن الذين كانوا معي فقال أنه لا يدري ، ثم إذا بالسلطان يدخل متجهاً نحوي ويسلم عليّ معتذراً عن تأخره في النوم ونسيانه لموعدي ، ثم أمر بأن يدخل الخلان ، فدخلوا ، فقدمهم إليّ : « الأمير بلبغا اليحياوي ، أكثر من صديق . . الأمير ملكتمر الحجازي أحب ندمائي . . الأمير طاقار الدوادار . . الأمير قطليجا الحموي ». قلت له : « فلماذا لم تعرفني ببقية الأمراء ؟» ـ واشرت إلى جمع صغير كان معهم . قال باسماً : « أنهم جماعة من الخاصكية ». قلت : « فرصة سعيدة جداً ». قالوا : « نحن الأسعد ». ثم قام الأمير ملكتمر وصار يروح ويغدو في حركات لينة ، ينادي على هذا ، ويهمس في أذن ذاك ويذكر ثالثاً ، ويضحك لرابع ، حتى أطل علينا الخدم بالقوارير والكؤوس وثاروا يرصونها أمامنا فصفقت بيدي في مرح وقلت : « كسبنا صلاة النبي . . إحنا ليلتنا فل بإذن الله ». وأخذ الأمير ملكتمر يصف الكؤوس ويوزع البسمات في شغف . وقال الأمير طاجار :

«ماذا تم في أمر بثمتك الناصري . . كان يحلم بنيابة دمشق . قال السلطان الشاب : « وهو الآن في الحبس بالإسكندرية . . لم يدعه قوصون الناصري في حاله . . ظل وراءه حتى أقنعني بالقبض عليه ». قال قطليجا : « لكنك يا مولاي كنت موغر الصدر منه ». قال السلطان : « لا شك ». قال يلبغا : « الآن المرحوم كتب له بنيابة دمشق قبل أن يموت ؟». قال السلطان : « لا . . ولو صبر وأتزن لنالها . . لكنني اغتظت منه . . لأنه صدق كلمة صبرته بها وصار يصرف على اعتبار أنه نائب دمشق ». ثم ارتفعت الضحكات عالية . قال السلطان بلهجة ذات معنى : « وغاظني أكثر اسفافه في العطايا والمنح . . لقد وزع مساحات شاسعة من الأراضي والجمال والخيول والحلل المذهبة والخلع على ناس ومماليك من مختلف الأشكال والألوان ». قال مكتمر : «ما نالني من الذهب والجوهر واللؤلؤ لم أكن أحلم به من مولاي السلطان نفسه ». وقال الطنبغا : « لقد أهداني جاريتين جميلتين ». وقال السلطان بغيظ : « لم يترك أميراً إلا وأهداه بسخاء ». قال ملكتمر : « لكن كيف يا مولاي تقبضون على رجل طيب يفعل الخير ؟». قال السلطان وهو يضربه على خده بأطراف أصابعه . ولو تركناه هكذا لوثب على السلطنة واحتواها ». قال يلبغا : «لكنه غني إلى حد لا يصدقه عقل . . تصور يا مولاي إنه وزع على الأمراء اثني عشر ألف أردب غلة من شونته الخاصة . . وأخرج ثمانين جارية بعدما شورهن بالأقمشة والزراكش وزوجهن ». قال السلطان الشاب في غيظ : «دعونا منه من سيرته . . عليه اللعنة ». قال ملكتمر في دلال كبير : « لكنني . . يا مولاي . . أريد أن أعرف . . هل حقاً قتل بشتك ». أنزعج السلطان الشاب من هذا الخبر ، ولاحظت أنا أنه انزعاج مسرحي إلى حد ما وقال : « كيف سُمعت هذا الخبر ؟». قال ملكتمر : « سمعت . . يقولون أن والي الإسكندرية قتله بأمر ». شرد السلطان قليلاً ثم قال : «يجوز ». قال ملكتمر : « ويقولون أن قوصون الناصري هو الذي أوعز لوالي الإسكندرية بذلك ». قال السلطان الشاب : « يجوز ». ثم صار يشرب ويشرب حتى غلبه السكر، فوقف ومشى نحو شباك ثم وقف فيه ونادى كأي سوقي : « أمير ايدغمش . . أمير ايدغمش » سمعنا صوتاً

من أسفل الجدار يرد في شعور بالخجل والدهشة : «مولاي . . مولاي ينادي هكذا . . اقصد خيراً يامولاي ». قال السلطان الشاب : « هات لي قطقط ». جاء صوت ايدغمش من أسفل : « يا خوند . . ما عندي فرس بهذا الإسم ». صاح السلطان الشاب في غضب : « يا أمير أخور . . قطقط هذه إمرأة مغنية وأنت تعرفها . . أبعث لها من يناديها على الفور ». ثم عاد إلى مجلسه كأن شيئاً لم يكن ، فنظرت إليه معجباً وقلت : « لكن دأنت فل خالص » فضحكوا جميعاً ، وكنت أسمع صوت طبول تدق من بعيد ، ثم إذا بأرباب الوظائف يدخلون علينا واحداً وراء الآخر ويهمسون في أذان بعض الأمراء وعلى محياهم الخوف الشديد . فقال السلطان بلسان معووج : « ما الأمر ؟». قال أحد أرباب الوظائف : « في الجو مؤامرة ». فقال السلطان : « يا طاجار دوادار . . إذهب إلى الأمير طقزدمر النائب وأسأله عن الخبر أو فاستدعه ». فذهب طاجار فذهبت معه .

وجدنا طقزدمر عند « جينكلي » بن البابا والوزير وعدة من الأمراء المقيمين بالقلعة . قال طاجار :

ـ يا طقردمر . . يريدك السلطان الآن .

قال طقزدمر :

ـ لا أدخل على السلطان . . أنا مع الأمراء حتى أنظر ما عاقبة هذا الأمر . . أنت وغيرك سبب هذا . . حتى أفسدتم السلطان بفسادكم ولعبكم . . قل للسلطان يجمع مماليكه ومماليك أبيه حوله ».

فرجعنا طاجار وأنا إلى السلطان وأبلغناه ما حدث . . فخرج السلطان وطلب المماليك وأمرهم كل طائفة تخرج إلى باب القلعة ، فما أن ساروا حتى عادوا وقالوا إن باب القلعة مغلق، فأحسست أن السلطان قد وقع في الأسر وأن أموراً غير سارة سوف تحدث بعد قليل ، فتسللت إلى أحد الشبابيك وبحثت عن مواسير أهبط عليها فلم أجد ، ولو كان معي حصان كحصان المملوك الشارد لفعلت مثله ورميت بنفسي من فوق سور القلعة ، لكن حصاناً آخر كان معي أكثر

حذقاً من حصان المملوك الشارد ، ذلك هو خيالي ، استخدمته حتى خرجت من الايوان كما تخرج الشعرة من العجين ، ووقفت إلى بعيد وتمكنت من رؤية السلطان وهو يتوجه إلى نفس الشباك وينادي : « أيدعمش . . دق الكاسات وشد الخيل للحرب ».

فقال له ايدغمش : « لم يبق في الإسطبل غلام ولا سايس ولا سلاخوري يشد فرساً واحداً ». فقال : « ابعثوا لي بالنائب ». فرد عليه صوت : « النائب ممتنع عليك ». ثم إذا بالأمير برسيغا يتوجه في جماعة إلى القلعة ويقتحم الايوان فيمسك بالملك المنصور ويكتفه ويسلمه إلى بعضهم . ثم يدخل إلى مسكن السلطان مع جماعة أيضاً ويخرج سبعة نفر نظرت فيهم فعرفت أنهم أخوة الملك المنصور ، مع كل منهم مملوك صغير وخادم وفرس وبقجة قماش ، كان منظرهم لا يسر وهم يمضون مقهورين خارجين من باب القلعة .

رأيت ابن تغري ماشياً معهم فمشيت معه أتعظ وأعتبر . وعند شاطىء النيل اوقفوهم وانزلوهم في خراقة ـ أي سفينة ـ سارت بهم إلى قوص . وقال ابن تغري أن قوصون هو الذي قاد هذا الإنقلاب ضد الملك المنصور وأنه لم يترك بالقلعة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلا كجك . وكان الذهول قد بوح بي فلما افقت تذكرت الخزانة . . فعدت إليها أكاد أطير من الفرح وفي ذهني أنني سأقوم بتبليغ أخبار هامة شهدتها بنفسي . ودخلت باب الخزانة لأرى الرقص لا يزال قائماً والطبل والزمر لا يزال يلعلع ، وخزعل جالس في مكانه يجرع العرق ويأكل اللحم النيء المتبل بالفلفل . تقدمت منه قائلاً : « أما علمت بالأخبار الطازجة ؟». قال خزعل ساخراً : « أما علمت أنت بأخرها ؟». قلت : « شحنوا الملك إلى قوص ». قال خزعل ساخراً : « هذه أخبار قديمة يا طرشجي . . لقد وصلتني أخبار الآن من قلب نهر النيل حيث تسير الخراقة !». قلت : « كيف ؟». . أنتم لم تعرفوا اللاسلكي بعد ». قال : « وهو يضع اللحم : « نحن أقوى من اللاسلكي . . لأننا باللا . . لاسلكي » ثم لكزني بكوعه في مزاح فوقعت على الأرض مستغرقاً في النوم العميق . .

وعندما استيقظت كانت أيام طويلة قد مرت ، وكان الرقص لا يزال قائماً غير أنه لم يكن رقصاً بالمعنى المفهوم لدينا ، إنما كان أقرب إلى الحركات الهمجية الفاقدة كل معنى ، وكان خزعل لا يزال في مكانه ولكنني لدهشتي وجدت ابن تغري يجلس بجواره ويتأمله في تمعن كبير نفضت النوم عن نفسي وذهبت لأسلم على صديقي ابن تغري فقال باسماً : « هدك التعب ». قلت : « من فرط ما رأيت ». قال : « وهل رأيت شيئاً ؟ . . أنت لم تر سوى بقايا فصل . . فماذا لو رأيت فصلاً كاملاً أو عدداً من الفصول ؟ . . ». قلت : « في عرضك . . لا أحتمل ». قال : « أرأيت الملك المنصور يخرج هكذا منفياً إلى قوص ؟». قلت : « يا له من منظر لا يسر ». قال : « في خلعه من السلطنة واخراجه إلى قوص مع إخوته عبرة لمن اعتبر ، فإن والده الملك الناصر محمد بن قلاوون كان أخرج الخليفة أبا الربيع سليمان المتكفي بأولاده وحواشيه إلى قوص منفياً مرسماً عليه ، فقوصص الملك الناصر عن قريب في ذريته بمثل ذلك ، وأخرج أولاده أعز مماليكه وزوج ابنته وهو قوصون الناصري ». قلت : « يا لها من عبرة لمن يعتبر ». ثم نهض ابن تغري واستأذن فمشيت معه قليلاً لأودعه فأمتد بنا الحديث وجرنا إلى شوارع القاهرة الحافلة فإذا بنا نرى مناظر غير طبيعية : ناس تبكي وتصرخ وتعول ، ووجوم يحط على المارة جميعاً . تقدمت فسألت أحد المارة : « ما الذي حدث ؟»، فلم يجبني ومضى باكياً فقلت لابن تغري : « لا بد أن حدثاً جللا قد حدث ». قال : « مثل ؟». قلت : « باعتباري مصرياً ومن بني شلبي أعرف أن هذا الحزن لا يتم بهذه الروح الجماعية إلا عندنا وحدنا ولسبب قوي . . كموت أحد الزعماء الكبار ». قال ابن تغري : « هذه بالفعل روح مصر . . تبكي زعماءها بهذه الحرقة ». قلت : « فهل مات أحد الزعماء ؟». قال : « فلنسأل ». ولما سألنا علمنا أن الملك المنصور قد قتل . . قتله عبد المؤمن من متولي قوص ، وأن رأسه قد جاءت سراً إلى قوصون. قلت لإبن تغري : « ولكن كيف تبكي الأمة سلطاناً لم تعرف بعد مدى فاعليته ولم يمكث على اريكة الحكم سوى أيام معدودة . قال ابن تغري : «لقد كان سلطاناً كريماً ، وشاباً ». ثم هبط الليل وأمتلأت شوارع

القاهرة بالجواري اللابسات السواد والممسكات بالدرابك يندبن نـدباً مـوزوناً مفجوعاً والناس كالكورس يردد خلفهن بالبكاء . وقال ابن تغري : « لله درك يا مصر . . إن أنت إلا بلد البكاء والحزن العميق » .

الفصل الثاني عشر

فأين تهرب يا بريء من الخوزقة ؟

شعرت بقليل من الخجل لما أنبأني الأمير « خزعل » أنه قادر على معرفة الأخبار في لحظة حدوثها ، ذلك أنني من عمر التليفزيون والراديو والأقمار الصناعية وكنت أظن أن عصرنا وحده هو المتقدم في أمور التجسس والتصنت والتوصيل وما إلى ذلك ، فإذا بعصر الأمير « خزعل » أكثر تقدماً في هذه الأمور وبدون أجهزة ، أنا نفسي رغم حضوري في قلب الحدث فاتت على أشياء كثيرة لم أرها ولم اسجلها ولم أفهم تبعاً لذلك مداليل كثيرة لأشياء أخرى مرتبطة بها ، فكيف رآها « خزعل » كلها وهو لم يغادر مجلسه في خزانة البنود ؟ . أحس «خزعل » بما يدور في خلدي ، طبعاً ، ليس من المعقول أن يعجز عن رؤية ما في خلدي ، فقال باسماً : « تريد أن تعرف كيف رأيت ؟». قلت : « بحق الله عليك يا شيخ لانت قايل لي . . بس أوعى تخبي أي حاجة ». أعتدل « خزعل » في جلسته فضرط في وجهي بلا حرج وقال كأنه الفيلسوف : « كل أهلك وعشيرتك من بني شلبي عيون لي وآذان . . إن الشيء يتحرك بسرعة حدوثه بقدر ما تمتلىء شوارع الديار بالمظلومين والمكلومين . . والخزانة كما تعلم حققت الحماية لكثيرن ممن دخلوا في رحابها ، وكل من لا يزال يمشي في الشوارع أكثر احتياجاً منهم للحماية ولكنهم لسبب أو لآخر لا يطلبونها ، أنهم فقط يؤيدون بقاء الخزانة برغم كل شيء ، يتمنون أن تظل هكذا إلى الأبد مهما بلغت بشاعتها ، فكل منهم يحس أنه في لحظة ما في يوم ما سيحتاج إلى من يحميه من آلاف المخاطر المحدقة به ولذا فهم يتطوعون بتأميننا ضد ملاك

السلطنـة والحكومـة . . فئة أخـرى من أهلك وعشيرتـك لا يبغون حمـايـة ولا يعلقـون على الخزانـة أي آمال خـاصـة ولكنهم لله يكـرهـون السلطان وجـوره وبودهم لو بقي في الديار من يستطيع قهر القوة الغاشمة ولذا فهم يتطوعون أيضاً بتأميننا دون أن نـطلب منهم ذلك أو ننقـدهم أجراً . . أحيـاناً أكـون سائـراً في الطريق وليس في دماغي أي شيء فـإذا بي أفاجـأ بمن يتمسح في وينتحي بي جانباً ويهمس في إذني محذراً أياي من خطر ما لم أكن أضعه في حسابي ، أو منبهاً إياي إلى شيء مفيد أيما فائدة . . وهكذا وهكذا » . .

المصيبة أن كلامه صحيح إلى حد كبير . وقال صوت في دماغي : « كل عباد الله في كل البلاد يزورون دولا ويمكثون فيها قـدر ما يمكثـون ولكنهم في النهاية لا بد لهم من العودة إلى بلادهم ، إلا مصر ، يجيئها الخلق من كل ملة ولون فيلتصقون بأرضها لا يفارقونها ويصبحون من بين أهلها بل وربمـا صاروا من قادتها ، ثم أنني أستأذنت من خزعل وأردت التجول في المدينة حتى تهدأ أعصابي ، فنظر فيّ قائلاً أنني يجب أن أكون على حذر من نزوات السلطان . قلت له أن السلطان طفل لم يكمل من العمر خمس سنين أي أنه لم تتضح له بعد نزوات . قال : « أنت تقصد السلطان الملك الأشـرف علاء الـدين كجك ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبي المعالي محمد بن السلطان الملك المنصـور سيف الـدين قـلاوون الألفي الصـالحي النجمي الـذي ركب بشعـار السلطنة ولقب بالملك الأشرف !» . قلت : نعم وهو السلطان الرابع عشـر من ملوك التـرك بـالـديـار المصـريـة والثـاني من أولاد الملك النـاصـر محمـد بن قـلاوون » . قـال خـزعـل : « لا يـا عبيط . . هـذا سلطان بـالاسم والـرسم فحسب . . أما السلطان الحقيقي فهو الأمير قوصون الناصـري الذي فضـل أن يقيم على حاله في الأشرفية من القلعة ولا يخرج منها إلى دار النيابة خارج باب القلة من القلعة . . هو نائب السلطنة كما لعلك تعلم ، وهو الذي أطاح بالأمير بشتك على قوته وأطاح بالسلطان السابق على سلطنته . ويستطيع أن يطيح بأسرة كاملة على السلاطين . . خل بالك منه على أي حال » . قلت : « لا تخف عليّ يا أمير خزعل فأنا صاح » قال باسماً : « أنت حر . . لقد حذرتك وانتهى الأمر » .

قلت : « على الله التساهيل يا أمير ». ثم أنني خرجت . وأتخذت طريقي تجاه القلعة ، فرأيت الشموع قد اشتعلت بالحوانيت والشوارع فقلت اللهم أجعله خير ، ثم سمعت دق الطبول مع زئيط مقبل من بعيد فقلت اللهم أجعله خير ، ثم ظهرت الجموع مقبلة وكانت ساعتي تشير إلى السبت سادس عشرين جمادي الآخر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فلما ظهرت طلائع الجموع كان من بينها شباب وقور وشيوخ محنكين يبدو على وجوههم فرح شرير غريب تختبىء في خلفيته البعيدة مشاعر انسانية منسحقة تماماً ، قلت لأحد الشبان : «ما الأمر ؟». قال الشاب : « حالة تشهير كما ترى !» قلت : « يعني ماذا ؟» قال شيخ آخر : « أنضم إلى الموكب وأنت تعرف ». قلت : « وموكب أيضاً . . كيف أنضم إلى موكب لا أعرف كنهه ولا أعرف إلى أي موقف هو سائر !». قال الشيخ الآخر : « أنضم لتعرف ». قال ثالث : « أو أنضم لكي لا تعرف !». وقال رابع : « وهو منضم حتى لو لم يكن يعرف! » وقال خامس: « هي المواكب دائماً . . كل شيء يمكن أن يتحدد فيه جانب الفرح من جانب الحزن إلا المواكب تختلط فيها كل الأمور ». قال أحد الشبان متفلسفاً : « ولهذا فنحن نسير فيها مرغمين ». فرد عليه ثان أكثر تفلسفاً : « تقصد المرغمين الضاحكين !». أحتد الأول : « يعني ماذا ؟». لطف ثالث : « يعني الضاحكين برغمهم ». فعلمت أن الأدمغة في الديار المصرية ضاربة ، وأنها سبقت أدمغتنا في ضرب الأسلاك واختلاطها بأزمنة طويلة ، ومضيت فإذا بي دون أن أدري قد صرت جزءاً من الموكب ، صحيح أنني كنت داخل إطار وهمي من الذاتية المنفصلة وأنني كنت أسير بمنطق ورؤية وإحساس المتفرج إلا أنني رضيت أم أبيت صرت جزءاً من الموكب وصارت تنعكس على نفسي مشاعره وتقودني نفس أمواجه بالسرعة التي يشاؤها ولم تصبح لي رغبة أو أي دوافع يمكن أن أسيطر عليها لسبب بسيط هو أنني حتى لم أعد قادراً على الرغبة وسط هذا الطوفان الأبله المجنون . ثم أنني بعد أن كنت بين الطليعة صرت من حيث لا أدري في القلب ، وصرت أستمرىء دفع الموكب لي إلى الخلف حتى تبينت في كثافة الطبول الفرحة جملاً كبيراً يمشي في وقار عظيم ويمد عنقه فوق الأعناق ناظراً

ذات اليمين وذات اليسار وعلى شفتيه ـ الجمل ـ بسمة عميقة السخرية لا تصدر إلا عن فيلسوف كبير جداً ، فوق الجمل هيكل خشبي سرعان ما تبينت فيه شكل المستطيل ولكن بداخله صليب. قلت لنفسي هذه أول مرة أرى فيها الصليب يحاط بإطار يحميه ويلفت عنه الأنظار ، لكن الصليب الذي بداخل المستطيل الخشبي كان ينبض برغشات لا تكاد ترى وكانت برك الدماء تنثال من حوله وله رأس متهدل فوق الصدر معوج العنق، وذراعان ممدودتان وقد سمرتا بمسامير في الخشب ، كذلك الساقان والعجزان ، قلت لنفسي أما الذراعان فيكفيهما مسماران خمسة سنتيم، أما الساقان والعجزان فلا بد لهما من مسامير حدادي كبيرة، وتخيلت أن الذي يقوم بمسمرة البشر لحساب الحكومة ولد صنايعي ماهر يخترع مسامير برمة وصواميل محكمة ، ويخرم ساق الإنسان « بالشينيور » أولاً ، ويمكن أن يقوم بمعجنة مواضع الخرم بعد دق المسامير ودهنها بالبوية حتى يصير شكل الصورة جميلاً ويبهر الناظرين .

ولما كنت في الموكب كالريشة في فك الأمواج المضطربة فإن أحد السائرين بجوار الجمل لكزني ، فنظرت فيه بغيظ فهز يده بجواره رأسه مستفهماً : «أيه ؟» . . مالك ؟» . . انحزت إليه في الخطو وسألته في شعور بالحزن وبالشفقة : « مين المسكين ده ؟» . . وأشرت إلى الذي مسمروه . صاح في الرجل غاضباً : « مسكين ؟» قلت من وجل : « أقصد اللعين ». هبط غضب الرجل شوح بذقنه تجاه الذي مسمروه وقال : « ألا تعرفه . . أنه ولي الدولة أبا الفرج بن خطير صهر النشو . . مسمرة قوصون ». قلت : « لماذا؟ » قال هامساً : « كان قد توصل إلى الملك المنصورة بسفارة أستاذه ملكتمر الحجازي ». قلت : « وماذا في هذا ؟». قال الرجل مراوغاً : « ووقعت منه أمور حقدها عليه قوصون »، قلت : « اشتكاه يعني مثلاً أو دس في حقه ؟». قال الرجل ينفي قاطع : « الله أعلم . . الله أعلم ». قلت : « ولماذا تفرحون أنتم هكذا ». قال: « نحن خاصكية قوصون فلماذا لا نفرح في وقوع عدو لنا؟ » قلت : « وهؤلاء هم أهل مصر والقاهرة مالهم . . هذه معارك بينكم وبين بعضكم . . فلماذا يشترك فيها هؤلاء بالفرح هكذا ؟» قال الرجل : « أهل مصر

والقاهرة يفرحون لـدى وقوع أي متسلط ظـالم ، خاصـة إذا كان ممن بقي من حواشي النشو والصهارة». تلفت ثانيـة نحو الـذي مسمره وهـو يهتز مـع اهتزاز الجمل في ايقاع رتيب هادىء لا شأن له بايقاع الموكب ، استبشعت المشهد ، صحت من قرف : « أيه ده يا ربي . . أيه ده !». صـاح في الرجـل غاضبـاً : « ماذا قلت يا هذا ؟». قلت : « ده افترا ». امتدت يده إلى سيفه وطق الشرر من عينيه وهو يصيح : « ماذا قلت يا جبان ؟». صحت في نفس القـرف كأنني لم اسمعه » « الواد ده مش صنايعي على فكرة ». توقفت يد الرجل على السيف : « ولد مين ؟». قلت : « الولـد اللي مسمر الجـدع ده . . مش صنايعي . . ده شغـل سوقي خالص. . اديتوه كـام الولـد ده . . على فكـرة مـا يستـاهلش أي فلوس . . أنا صنايعي نجـار وعارف . . مهنتي . . الـولد ده بقى . . معـرفش يسمـر الجدع ده كـويس . . ده شكل مسمـار ده . . فتحه غـارقانـه دم . . ولا ده . . مسمـار اتعوج في فخـذ الرجـل يقوم سايـبه وتـانيه ؟ . . ده شغـل ؟ . . معندوش كماشة يخلع بيها المسمار ويدق غيره ؟ . . ده حمار . . لو في عصرنا كانوا طردوه من المهنة ». انزاحت يد الرجل عن السيف وهدأت ملامحه وابتسم قائلاً في تطييب خاطر : « أي نعم أي نعم عندك حق »، وتبسم آخرون وتقدم مني شخص مهيب قـدم نفسه : « الأديب جمـال الـدين إبـراهيم المعمـار ». هزرت رأسي قائلاً : « أهلاً أبو زمل ». فإزداد اقتراباً مني وبلهجة مسرحة اندفع يشدو : « قد أخلف النشو صهر سوء ، قبيح فعل كما تـروه . . أراد للشر فتـح باب * فأغلقوه وسمروه ». قلت : « هذا شعر فيما يبدو « قال جمال الـدين : « نعم يخيـل إليّ ذلك !»، ثم أدرك بحـدسـه الأدبي جفـاء ذوقي فسكت بعـد البيتين ثم أنصرف عني شيئاً فشيئاً ثم أن الموكب نفسه أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن أختفى .

ووجدت نفسي أجلس بدار العدل بجوار تخت الملك مبـاشرة والسلطان كجك يجلس على تخت الملك كنتوس صغير ، طفل في الخامسة فصلت لـه بذلة سلطنة على قده فكأنه من لعب الأطفال معروضة في قاعة شرقية حافلة . لم أكن أعرف على وجه اليقين لماذا أنا موجود في هـذه الجلسة في هـذه اللحظة

ولكنني خمنت أن يكون وجودي بسبب كوني مندوباً عن الخزانة أو مرافقاً لأبن تغري بردي ، لكنني انشغلت بالحضور ومنظر الأمراء العمالقة وهم يتقدمون نحو السلطان الطفل على قدر مراتبهم ويقبلون الأرض بين يديه ، وهو يخلع عليهم ويخلع عليهم حتى انخلعت عيني من فرط المتابعة والحسد ، وبلغت عدة الخلع في هذه الجلسة ألفاً ومائتي خلعة . ثم أنني وجدت نفسي بجوار الأمير قوصون الناصري في الجلسة ، فتذكرت أن خزعل قد حذرني منه تحذيراً قاطعاً ، فتعجبت كيف أستأمنته على نفسي بأن جلست جواره مباشرة ، قلت لعلني من شدة الخوف منه أمعنت في الاقتراب لرؤيته على الحقيقة ، وقلت أيضاً أن الجلوس في مجلس السلطان الأشرف كجك لا بد أن يكون بجوار قوصون باعتباره نائب السلطنة وصهر السلطان . وكنت قد نسيت الخلع حيث تقادم عهدها وبدا أننا في جلسة تالية لجلسة الخلع ، ورأيت من يتقدم من قوصون ويتلقى منه حديثاً عرفت من خلاله أن « ملكتمر السرجراني ، نائب الكرك يشق الهدوم من تمرد الأمير أحمد شقيق السلطان الأكبر المقيم في الكرك وأن الأمير أحمد من طوع النائب وشغف بشباب أهل الكرك وانهمك في معاقرة الخمر وأنه ـ أحمد ـ يرفض طلب قوصون له بالمجيء إلى الديار المصرية حتى يأتيه أكابر الأمراء إلى الكرك ويحلفهم ثم يحضر إخوته من بلاد الصعيد إلى قلعة الكرك ويحضر بعد ذلك وينصب سلطاناً . . ولأنني بطيء الفهم بسبب تشابه الأزمنة واللحظات واختلاطها فإنني قد عرفت في نهاية الجلسة أن الجلسة كانت اجتماعاً للأمراء للمشورة في أمر أحمد المذكور ، وأنهم قد قرروا تجريد العساكر لأخذه .

انفض المجلس وانصرف الأمراء جميعاً ولما شرعت في الإنصراف أنا الآخر اعترضني رجل وجيه باسم الوجه وسيم الطلعة ولولا ذلك لخفت منه ، نظرت حوالي فلم أجد في القاعة أحداً سواي وهذا الرجل الذي أخذ يشير إليّ بطرف إصبعه مع ابتسامة ساخرة كأنه يقول : « تعال يا نمس عايز تهرب فين ». تقدمت منه خائفاً وقلت : « من أنت يا سيدي ». قال : « ألا تعرف يا عكروت ؟». . أنا مقدم مماليك السلطان ». قلت : «أهلاً وسهلاً أزي السلطان

وأزاي المماليك ». سحبني من كتفي ومضى قائلاً : « لا أحد من مماليك السلطان يستطيع الهرب بل لا أحد يريده فكيف سولت لك نفسك الهرب ؟» قلت : « ظننتني من مماليك السلطان ؟». لكزني قائلًا : « طبعاً . . وقد أوصى بك الأمير قوصون !». قلت : « بس . . وقعنا في الخيبة . . الأمير قوصون هو الذي أوصى بي ؟ . . مصيبة ». فلم يمهلني مقدم المماليك السلطانية إنما جذبني برفق وأشار لي نحو جناح فخيم وأمرني بالدخول فدخلت ، فإذا بي أمام عدد هائل من القاعات والحجرات ، ورجال كالنساء أو أشد حلاوة يروحون ويجيئون ويدخلون الحجرات ، ثمة حجرة مكتوب عليها : « خشداشية ». استقبلني أحدهم قائلاً بما يشبه السخرية : « أهو أنت . . تعال »، تقدمت منه ، راح يتفرسني ويأمرني باللف حول نفسي كالطنكان ، ثم قال : « أأنت من مماليك السلطان أم من مماليك قوصون ؟» قلت في غضب : « لست مملوكاً لأحد »، فإذا بكف كأنها الصاعقة تنهال على صدغي وإذا بي في ذهول، وإذا بالخشداش يقول في غيظ : « أول ما شطح نطح». مملوك متسلل وطويل اللسان مع ذلك . . هيا أدخل إلى هذه الحجرة التي هناك ». ومضيت نحو الحجرة المشار إليها فدخلتها فإذا هي نصف مفروشة ونصف أنيقة ويتصاعد منها عطر أنثوي جعل بدني يقشعر ويشعر بالغثيان . جلست على السرير مقهوراً أدبر للخلاص . من فرط القهر لم أدر كم مكثت من الزمن ولكنني في لحظة سمعت جلبة في الحجرات وخطوات تدخل وتخرج ومشاحنات ، خرجت استطلع الأمر ، وكانت ساعتي تشير إلى يوم السبت سادس عشر ربيع الأول سنة اثنتين واربعين وسبعمائة ، فرأيت مقدم مماليك السلطان يقف واضعاً يده على كتف غلام حسن الصورة صغير ، يعترضهما عدد كبير من الخشداشية . . يقول المقدم : « هذا هو . . طلب الأمير قوصون . . غلام حسن الصورة صغير ». قال أحد الخشداشية : « وهو لن يخرج من هنا . . وقال ثان « وهو ليس من مماليك قوصون فكيف يخرج ». وقال ثالث : « هو وهم كلهم أمانة في عنقنا ونحن لا بد أن نحافظ عليهم ». وقال رابع : « إذا خرج هذا الولد من هنا تكون الكارثة ». وقال خامس بعنف : « ونحن لن نسمح بخروجه ». وقال المقدم في

هدوء وليونة وطراوة : « يا خشداشية . . طولوا بالكم . . لم الثورة . . كلكم وكلنا كنا غلماناً وما زلنا . . وهم مماليك السلطان وأنتم الخشداشية وتأتمرون بأمر السلطان . . والأمير قوصون الناصري هو السلطان كما تعلمون بل أقوى من السلطان . . أم هل تراكم تتفرجون على سلطان طفل لا يفهم في أمر المماليك أو الغلمان ولا يقدر من ثم تضحياتهم . . لا تعترضوا على شيء لا موجب للاعتراض عليه ». شوح أحد الخشداشية في فروغ بال وانصرف ثم برطم آخر وتخلى عن الجميع ، ثم صاح ثالث في لغط غير مفهوم واختفى . ثم ما لبث جمعهم أن تفرق كله وخلف المقدم يضحك ضحكة عالية واثقة فيما يسحب الغلام ويمضي .

بقيت واقفاً أتفرج على ما أصاب الخشداشية من كسوف وما تفرق من شملهم ، وظللنا طول الليل ننتظر عودة الغلام فلم يعد حتى الصباح ، وإذا به يعود ومعه مقدم مماليك السلطان، تركه المقدم يدخل إلى حجرته وجلس مشيراً إلى بعض الخشداشية فجاؤوا وتكاثروا حوله والغضب واضح على وجوههم . قال المقدم : « لنائب السلطنة طلب جديد ». قال أحدهم بنفس الغضب : « لا جديد ولا قديم . . يكفي ما حدث . . لقد سهر الغلام عنده ليلة ». قال المقدم : « إن نائب السلطنة لا يصح تأجيل طلباته بله أن نرفضها ». انطلق أكثر من صوت منهم : « ماذا يطلب حضرته ؟». قال : « يطلب بعض المماليك للسهر معه الليلة . . يطلب المملوك شيخون ، والمملوك سرتمنمس والمملوك ايتمنمس عبد الغني ». وهنا ارتفع اللغط عالياً ، وانشقت الأرض عن عشرات من المماليك والخشداشية لا يمكن التفاهم معهم بحال ، كانوا يصيحون كلهم في نفس واحد وغضبة واحدة ، كانوا يقولون : « لا نحن مماليك السلطان ، ما نحن مماليك قوصون ». ثم دفعوا المقدم فوقع على بوزه فداسوا فوقه فنهض واندفع يجري . فما أن خرج حتى تجمع مماليك السلطان كلهم ونظموا أنفسهم وتحدثوا في الأمر قائلين أنه لا بد من خروجهم الآن لمقابلة الأمير بيبرس الأحمدي . . في هذه اللحظة دخل علينا في صحبة عدد من المماليك عرفت أنه الأمير برسيغا حاجب قوصون وشاورش دواداره وأن من معه هم مماليك

قوصون الناصري قال برسيغا : « كنت أريد أن آخذ المماليك عنوة ولكن . .
« فأزاحه الجمع دفعة واحدة فتراجع وهو يأمر مماليكه بالكف عن المقاومة ، ثم أننا خرجنا لنبحث عن الأمير بيبرس الأحمدي فقابلنا في الطريق من أخبرنا أنه راكب ، فتوجهنا إلى بيت الأمير جنكلي بن الباب بأرض الحوض المرصود فلقيناه في الطريق فوقف مندهشاً وقال : « ما بكم ؟». قال أحد الخشداشية : « نحن مماليك السلطان مشتري ماله ». وقال تان : « فكيف نترك ابن استاذنا ونخدم غيره من هو مملوك مثلنا ؟». ارتفع اللغط والضجيج وعشرات الأفواه تتكلم في لحظة واحدة والأمير جنكلي يوصّيهم بالتزام الهدوء، وهم يسرفون في الشتم والسب واللعن دون أي تحفظ ، فقال لهم : « طاوعوني وأرجعوا عما أنتم عليه ». فصرخوا قائلين : « لا والله ما نرجع أبداً عن غضبتنا ». قال الأمير جنكلي في حنق : « انتم الظالمون بالأمس ولما خرجتم قلت لكم طقزدمر نائب السلطنة ارجعوا إلى خدمة ابن استاذكم . . قلتم ما لنا ابن استاذ غير قوصون . . والآن تشكون منه !». وهنا قال الخشداشية : « شكراً شكراً » ثم تركوا الأمير جنكلي ومضوا ونحن في اثرهم . قال بعض المماليك : « فإلى أين نذهب الآن ؟». قال الخشداني الأكبر : « سوف نتوجه إلى منكلي برسبغا الفخري ». ومضينا إلى دار « منكلي » فوجدنا برسبغا هناك أرسله قوصون . فارتفعت الأصوات تطلب رقبة برسبغا ولكن الفخري طلب حمايتخ فسكتوا عنه ثم انصرفوا دون أن أعرف علام اتفقوا بالضبط . . وقد انتهزت فرصة العودة وتوجهت إلى بيت قوصون حيث علمت أنه طلب الأمراء إليه وقلت لعلني أعرف معلومات جديدة أبلغها للخزانة . ورآني قوصون نفسه فأندهش ولكن نظرة في عينيه أعطتني الأحساس بأنه سيتركني في الجلسة طالما أنني أصبحت من مماليكه ، فلما تكامل جمع الأمراء راح قوصون يحدثهم حديث الدس والتآمر قائلاً لهم أنهم إذا لم يتحركوا فإن المماليك السلطانية ستستخف بالأمراء وأنهم ـ المماليك ـ سوف يطغون ويتجبرون ورما سيطروا على الحكم بطريق غير مباشر خاصة وأن السلطان طفل يعجز عن حكمهم وقمعهم . . وهنا تململ الأمراء وظهر عليهم الغضب الشديد . فانتهز قوصون الفرصة ونادى على الأمير

مسعود الحاجب فجاء فطلب منه باسم الأمراء جميعاً أن يذهب ليحضر مماليك السلطان الذين كان قوصون قد طلبهم للسهر معه . فذهب مسعود الحاجب وغاب طويلاً ثم عاد ونحن نقطع الوقت من غيظنا في الثرثة الفارغة ، وقال أن جميع المماليك السلطانية قد كثف وكثر ولم يلتفتوا إليه . فاستشاط قوصون غضباً وطلب كلا من الأمير الطنبغا المارداني وقطلو بنا الفخري وهما أكبر الأمراء الخاصكية من خشداشيتهم أن يذهبا إلى مماليك السلطان ويحضرا من وقع عليهم طلب قوصون . وخرج الأميران وبعد وقت طويل عادا ومعهما المماليك السلطانية المطلوبون . دخلوا على قوصون وقبلوا يده فقام وقبل رأسهم وطيب خواطرهم ثم تركهم ينصرفون .

وكنت قد تعبت من القعدة والأكل والشرب فطلبت من الأمير قوصون أن يأذن لي بالإنصراف فنظر في بغضب وقال أنه يستبقيني لأخذ رأيي في بعض المسائل ، ونظرت فوجدتنا في يوم الإثنين ثامن عشر ربيع الآخر . وقال قوصون أنه بات الليلة الفائتة على نار القلق حيث قد بلغته أن المماليك الناصرية قد تحالفوا على قتله ، ثم أنه ركب وركبت معه وركب الأمراء ومضينا تحت القلعة ، وطلب قوصون ايدغمس أمير أخور وأخذ قوصون يلوم الأمراء على بعض الأشياء ، فإذا بالأمير بيبرس الأحمدي يدركنا ويهمس في إذن قوصون بأن المماليك السلطانية قد اتفقوا على قتله . . فاتجه قوصون بصحبة الأمراء إلى جهة قبة النصر فارتجت القلعة وقفلت أبوابها ولبست المماليك السلطانية السلاح بالقلعة وكسروا الزد دخاناه السلطانية ، وقد امتلأت الرميلة ـ وهي ميدان صلاح الدين الآن ـ بالعامة الذين أخذوا يصيحون : « يا ناصرية نحن معكم ». فردوا عليهم من القلعة واوصوهم بالتوجه إلى بيت قوصون والهجوم عليه . . فإندفع العامة في اتجاه بيت قوصون فاستدار قوصون واندفع خلفهم وتركني وحدي أدب فوق حصان يمشي بي كيف يشاء . . ذهبت إلى الخزانة لاريهم اهميتي بالحصان السلطاني ثم خرجت ثانية فرأيت القاهرة في حالة يرثى لها ، الجموع تجري هنا وهناك ، والجرحى يتكاثرون في كل مكان ، وعلمت أن قوصون تغلب على المماليك وقبض عليهم وبدا ينكل بهم . . ومررت على باب زويلة

فوجدت رجلاً معلقاً بعد توسيطة فاقشعر بدني ، وإذا برجال قوصون يقفون ومعهم عدد من المقبوض عليهم ،، وكانوا يرفعون الواحد منهم ويمسمرونه على باب زويلة بشاكوش ومسامير كبيرة ، قلت : بس . . ها نحن نشاهد المسمرة على الطبيعة . . وإذا بي أسمع من يقول أن هناك مملوكاً جديداً هرب من قوصون وسوف يوسطه لو رآه . فعرفت أنه يقصدني فلكزت الحصان واندفعت أجري اسابق الريح . .

الفصل الثالث عشر

الشرب حتى الثمالة من كأس الجنون

لكزت الجواد لكزة فارس حريف فأندفع يجري كأنما الساحة خالية - صحيح أنني عمري ما ركبت الخيل ولا داعبتها ولا زادت علاقتي بها عن حدود الابتهاج لمنظرها أينما كانت - مندفعاً أو مهرولاً أو واقفاً أو راقصاً على دقة المزمار البلدي ، إلا أنني ركبت كفارس فصرت فارساً ، ربما صدقة أن حفظ الجواد لي توازني حتى قدرت على التفكير في طريقة الهرب من قوصون الناصري الذي سمعت أنه يطاردني ، داودني فكرة الهروب من الزمن برمته ، ولكن يبدو أن سجن الزمن أقسى من سجن المكان وأحكم قيداً ، ذلك أنني لما فكرت في زمن المستقبل وجدتني أراه جيداً بل وأرى عصوره تترى أمام عيني، إلا أنني كلما استوضحت المستقبل أكثر وأمكنني النفاذ إلى ما بعد العصر الذي سجنت فيه بعصور عديدة انتابتني قشعريرة واحسست بالكفر ، وعجبت من أن يعرف الإنسان مستقبله إلى حد الرؤية ثم يحجم عن النفاذ إليه خشية مغبة الرجم بالغيب . . لهذا آثرت أن استنيم للزمن تاركاً المستقبل في يد الله ، ولكن أين أهرب من قوصون الذي لا بد أن تجيء بي قبضته الكبيرة القوية ؟. ما أن رن هذا السؤال في دماغي حتى ضحكت كالصاعقة ، حيث تذكرت أنني أتمتع بحصانة ، « دبلوماسية » بحكم انتمائي لخزانة البنود سجن الأجانب الذين هم في الأصل أسرى فأصبحوا دولة وحكاماً بأمرهم . ليس على الآن سوى الذهاب إلى الخزانة مباشرة ، بمجرد وصولي إلى بابها أصبح في مأمن تام ، وتكون فرصة أريهم فيها فروسيتي وادهشهم بها وبما توصلت إليه من معلومات لا شك تدير دماغ خزعل من فرط سخونتها وطزاجتها وكثرة تفاصيلها ؟ ثم قلت لنفسي :

« لكن كيف نسيت انتماءك إلى الخزانة يا ابن شلبي ؟».. ثم عدت فرددت على نفسي قائلاً : « هكذا الإنسان يا ابن شلبي وهكذا حالي .. لقد نسبت أمر انتمائي للخزانة لأنني كنت لحظتها على صهوة جواد .. فأنت على صهوة جواد مطواع لا بد أن يصل خيالك إلى ذرى بعيدة ». فقال ابن شلبي الذي كان قد سأل أن ابن شلبي الذي أجاب شخص «مقطوش » الدماغ - أي مكسور منه جانب - قصير النظر. أما ابن شلبي الذي هو كلاهما معاً فقد سخر من الاثنين وطوح ساقيه فاندفع الجواد فانتبه إلى أنه يجب أن يهدىء من خطوه حيث قد شارف على منطقة الخزانة والشوارع الضيقة الآهلة ، فتعثر الجواد وكبا وكاد ابن شلبي يقع على بوزه مغشياً - عليه - عليه هو وليس على بوزه - الأمر الذي جعل ابن شلبي الذي كان قد سأل يخرج لسانه ساخراً من ابن شلبي الذي كان قد أجاب ، بفضل حذق الجواد وحده نجا ابن شلبي من الكبوة ودخل مستور الفروسية إلى جهة الخزانة ، فإذا ببعض أطفالها وصبيانها يستقبلونه بالتهليل والصياح وإذا ببعض منهم يرتد عائداً إلى الخزانة يجري ، وإذا ببعض الرجال والأمراء وعلى رأسهم خزعل يظهرون على باب الخزانة ضاحكين مهللين مصفقين في تهكم وسخرية فيما أنا مقبل نحوهم بجوادي في خطو رتيب جميل كما أفلام رعاة البقر ولم يكن ينقصني شيء لتكتمل نشوتي سوى أن تهطل السماء بالمطر ..

ترجلت عن الجواد في قفزة رشيقة حسدني عليها معظم الواقفين، وكأي فارس مغوار شككت مقود الجواد في قبضة الباب النحاسية وتقدمت فسلمت على خزعل وبقية الأمراء وتواضعت فهززت رأسي لبعض العامة وتواضعت أكثر فأبتسمت لبعض النساء الفاتنات . اقتادني خزعل نحو المقصورة وقد أحسست من هيكلهم جميعاً أن في الأمر مؤامرة خاصة بي وأنهم في انتظار نتائجها على شوق حار ، وقلت لنفسي والله لأخيبن ظنكم بما حصلت عليه من أخبار وشاهدته من تجارب دسمة « جلسنا وجيء بالعرق وإذا بي امتعض فجأة ويصيبني مغص حاد ودوار وغثيان وبلاوي زرقاء وحمراء وصفراء أن للبلاوي الواناً كهذه ، وصرت أتقيأ واكح وأهرش وأفعل ما لا يسر الناظرين ، كل ذلك

وأنا بعد لم أشرب شيئاً ، لكنني سرعان ما تبينت أن الأيام القليلة التي قضيتها في صحبة السلطان الطفل وقوصون الداهية وما فيها من سحر العطور ودسم الطعام وقراح الشراب قد فصلت بيني وبين جو الخزانة بأسوار حديدية ، فلما شممت رائحة الأجساد ورائحة العرق ورائحة الموشومين والمهروشين خيل إلي أنني قد ألقي بي في بحر من الجيف . البهدلة ليست في هذا على ما فيه من عذاب ، البهدلة حقيقية هي محاولاتهم أفاقتي ، ابتداء من عصر بصلة فوق أنفي وانتهاء بخلع مفاصلي من شدة الجذب والثني وما إلى ذلك ، فكان لا بد أن افيق من البهدلة وقلة القيمة ، على أنني افقت تماماً حين صفق خزعل بيديه في نزق جنوني والتمعت عيناه ببريق جنوني أيضاً وضحك ضحكة جنونية كذلك وقال هازاً رأسه أمامي : « أول شيء نشكرك عليه الليلة هو مجيئك لنا بالمزة العظيمة . . هذه ليلة انس رائعة سنأكل فيها أطايب اللحوم »، ثم نظرت فإذا بالجواد جوادي يدخل الخزانة مسحوباً على الأرض يجرجرونه كالزكيبة ، وإذا به مذبوح يشر الدم الساخن منه ، فوقفت كالمسعوق ، ثم جلست كالمقهور ، ثم صرت أنقل البصر بينهم محاولاً درء الجنون عن رأسي ، ذلك أنهم ذبحوني أنا بذبحهم لجوادي الأصيل ، واعتبرتها مجرد أهانة يمكن أن نتسلى على حسابها بقية الليل ، فقلت لخزعل : « كيف تفعلون هذا الفعل القبيح الشرس . . أنه جوادي . . وكرامته من كرامتي فكيف تذبحونه دون إذني !» اندفع « خزعل » ضاحكاً فأهتزت الأرض وفشخ الآخرون أحناكهم دون صوت ففي صوت خزعل ما يكفي ، وقال خزعل وهو يدلق كوب العرق في جوفه ، « أظننته جوادك ؟ . . يا لك من أبله . . أن الجواد في الواقع ممنوح لنا نحن . . أنت نفسك أكرمت بشخصنا نحن !» . . قلت : « هذا صحيح . . ولكن . . الرجل أهداني جواداً . . فعلى الأقل يصير ملكاً لي » . ضحكوا جميعاً ، قال خزعل أيرضيك أن نكون في حاجة إلى مزة وأنت تملك جواداً بيننا ؟» . قلت : « حاشا لله . . غلبتني يا أمير . . فعلاً . . أنا رجل قليل التربية القومية . . هات كأس من العرق نشرب نخب هزيمتي ـ أقصد نخب أعرتافي بالحق » . بنفسه قدم خزعل كأس العرق أمامي ثم اعتدل فانداح إلى الوراء سحاب كثيف ، وقال : « هيه » . . فعرفت أنه يريدني أحكي ما رأيت . .

انجعصت إلى الوراء وشرعت أحكي ما حدث لقوصون الناصري واحاول قدر الطاقة تجميله وجعله شائقاً ، لكن الفتور كان يتمدد على وجوههم جميعاً بما يعني رفضهم للحديث ، في نفس الوقت يطل الإنتظار من عيونهم بما يعني أنهم في انتظار حديث آخر ، حدسته بفطرتي ، وقال « خزعل » : « كل ما تحكيه عما حدث لقوصون عرفناه عند حدوثه لحظة بلحظة . . ولا زالت أخباره تصلنا إلى هذه اللحظة . . ولكن ما حدث لك أنت في تجربتك مع المماليك السلطانية !» والتمع في عيونهم بريق شرير ، فحكيت لهم التجربة بكل حذافيرها وبمنتهى الصدق والأمانة وهم يهزون رؤوسهم بالتأييد والموافقة ولكن ثمة شيء وفي نبرتهم يؤكد لي أنهم غير مصدقي فيما حكيت ، وأنهم موقنون من أنني أخفي شيئاً جوهرياً هاماً قد حدث لي في كنف المماليك السلطانية ، فعرفت أن من التجارب ما تلحق الإنسان وصمتها وتصبح غير قابلة للمحو مطلقاً ، وقلب العرق كياني النفسي فصرت عصبياً حاد اللسان قليل الأدب أحياناً شأن من يحس أنه مطالب بمسح عار ما عن نفسه . على أن خزعل هدأني وكشف عن سر المؤامرة كسباً لراحة أعصابي ، وكانت المؤامرة تتلخص في أن خزعل أتصل بقوصون الناصري ومازحه بأنه سوف يهديه مملوكاً لطيفاً نادر الوجود ، هدية المملوك مثل هدية السيجارة في عصرنا يقبلها أكبر الرجال وأدناهم بلا غضاضة حتى ولو كانت تفوح منها رائحة الرشوة ، ما أن سمع قوصون بخبر الهدية حتى قبلها في الحال وشكر خزعل عليها ، ثم لما أرسلني إليه كان قد سبقني إلى قوصون من يخبره بأنني مصاب بالداء الفلاني والداء العلاني والهدف من ذلك أن يصطدم سوء التفاهم بيننا فتكون المفارقات مقدمة لفضيحة العصر يمسكها خزعل على قوصون مدى الحياة . . القصد أنها مؤامرة خسيسة . . والأشد منها خسة أن يحكيها فاعلها موضحاً مدلولها بصدق كاتب الترجمة الذاتية ! كان من الممكن بل من المقدر أن أموت في هذه النكتة الثقيلة ، وسألت نفسي : « كيف يمكن أن يضحي بي هؤلاء في سبيل ضحكة فارغة وأنا أقوم بخدمتهم !» . ثم أجبت نفسي قائلاً : « إن من يخدم الموشومين أكلة لحوم البشر لا ينتظر تقربهم منه ، فمهما فعل من أجلهم فلا بد أن يأكلوا

لحمه في لحظة ما حتى ولو كان في سبيل ضحكة » ـ واقشعر بدني فاحسست بالرضاء من أنه قد بقي في جسد يقشعر ، قلت مدارياً إحساس بالقرف : « قوصون هذا داهية ». فقال خزعل : « الست تعرف أصله على وجه الحقيقة ؟! ». قلت : « لا بالطبع ». قال : « أو لا تعرف أتصاله بالملك الناصر محمد بن قلاوون حتى صار ساقية أعظم مماليكه هو ويكتمر الساقي ! ». قلت منبهراً : « ولا والله . . ولكن . . آه » ـ ثم ضحت في هبل فلاحي ـ الهذا سمي الساقي . . قوصون الساقي بكتمر الساقي فلان الساقي فيا لها من عجائب ! ». قال خزعل : « هي ليست عجائب إلا في نظرك بأنه . . هي حقائق هي واقع يحدث ويراه كل الناس فيما عدا الزعر والحرافيش أمثالك ممن يودون العيش فحسب ». قلت له : « بدلاً من أن يمعن سمو الأمير في شتمي وتوبيخي أفضل لو أنه حكى لي قصة قوصون الناصري الداهية الذي ابتلع كل شيء في بطنه ». قال خزعل : « في سنة نيف وسبعمائة حضر قوصون من بلاد الترك إلى الديار المصرية صحبة خوند بنت أزيك خان التي تزوجها الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو غير مملوك . . وقد حدث أن طلع قوصون إلى القلعة في خدمة بعض التجار ، فرآه الملك الناصر محمد ، فأعجبه ، فقال للتاجر : لأي شيء ما تبيعني هذا المملوك ؟ فقال التاجر : هذا ما هو مملوك ، فقال الملك الناصر ، لا بد أن أشتريه ، ووزن ثمنه مبلغ ثمانية آلاف درهم ، وجهز الثمن إلى أخيه صوصون إلى البلاد ، أي بلاد القيماق التي نزح منها قوصون إلى الديار المصرية . . خلو ؟ ». قلت : « حلو ». قال : « اهتم به الملك الناصر وجعله ساقياً ، ثم رقاه حتى جعله أمير مائة ومقدم ألف ، وعظم عند الملك الناصر وحظى عنده وزوجه بابنته وهي ثانية بنت زوجها الملك الناصرلمماليكه في سنة سبع وعشرين وسبعمائة » قلت : « وتعرف التاريخ أيضاً يا سمو الأمير ! لكأنك مؤرخ ». قال : « نعم ، أتظن أننا ما دمنا أسرى هذه الديار كنا غرباءعنها ؟ . . لا يا جميل . . كنا في قلب المنطقة من سنوات وسنوات وكانت أخبار الديار المصرية تبلغنا في التو واللحظة وقد لا تبلغ أهل الديار المصرية أنفسهم إلا بعد سنوات وسنوات ، أيها المساكين يا من تسكنون هذه الديار لن

يكون فيها شأن إلا حينما تتبعون أخبار السلاطين في الكواليس في حينها أيا كانت الحواجز والموانع قلت : « في موضوع قوصون نفسه » قال ضاحكاً : « كان لقوصون عرس حفل أحتفل به الملك الناصر وحمل الأمراء التقادم إليه فكان جملة التقادم خمسين ألف دينار ». قلت : « يا . . ه . . الدنيا حين تجيء لا أحد يولفها ». ضحك خزعل قائلاً : « لهذا كان كلما وقع بين قوصون ويكتمر الساقي منافسة يقول قوصون . أنا ما انتقلت من الأسطبلات إلى الطباق بل اشتراني السلطان وجعلني خاصكياً مقرباً عنده دفعة واحدة ». تذكرت أنني سمعت هذا الكلام من قبل ، وقلت هذا لخزعل فقال أن قصة قوصون معروفة للجميع ، ما خبرته أن الكلام بنصه سمعته من صديقي ابن تغري بردى فقال خزعل »، من أي عصر هو ابن بردى هذا ؟». قلت : « من عصور تالية لعصركم » . قال : إذن فهو الذي أخذ عنا » . . ثم صب لنفسه ولي بعض العرق ورحنا نشرب في برهة صمت مرحى .

وفيما نحن جلوس قدم علينا خبر من بلدة قطها ، وهي بلدة مصرية في الطريق بين مصر والعريش ، يفيد بأن قوصون قبض على رسول من الأمير طقتمر الساقي المصروف بحمص أخضر نائب حلب ، وأودعه السجن ، وكان مع الرسول مجموعة مكاتبات موجهة إلى أمراء الديار المصرية وإلى قوصون بالعتب ، حيث شق عليه إخراج أولاد استاذه الملك الناصر إلى الصعيد وتجهيزه العساكر لأحمد بن الملك الناصر بالكرك . ثم وصل الخبر بأن « ايدغمش » أمير أخوروبك من بعض مماليك أمير علي بن ايدغمش أن قوصون سيكبس عليه بمماليكه فاحترز ايدغمش وأغلظ لقوصون في الكلام وصار يغلق باب الأسطبل السلطاني دون المواكب ويوقف عليه طائفة من الأوجانية وقد تم التصالح بينهما ولكن ايدغمش ـ هكذا تقول الشائعات ـ لم يصف ضميره تماماً . ثم قدم الخبر بأن العسكر الذي أرسله قوصون بصحبة الأمير قطلوبغا الفخري قد نزلت على مدينة الكرك فامتنعت منه واستعد أهلها للقتال وتسلطوا على العسكر بالسب واللعن والتوبيخ . ثم قدم الخبر من دمشق بأن تمر الموسوي قدم من حلب واستمال جماعة من الأمراء إلى طغتمر الساقي حمص أخضر نائب حلب فكتب

قوصون بالقبض عليه وأرسل تشريفاً إلى حمص أخضر فرده بغلظة . ثم قدم الخبر من شطي أمير العرب بأن قطلوبغا الفخري قد خامر على قوصون وحلف لأحمد بن التامر هو ومن معه من الأمراء وانهم اقاموا أحمد سلطاناً ولقبوه بالملك الناصر ، وكانت سفرة قطلوبغا هذه قد كلفت قوصون مبلغ أربعين ألف دينار سوى الخيل والقماش والتحف . . فكتب قوصون إلى الأمير الطنبغا الصالحي نائب الشام بخروجه لقتال حمص أخضر ومعه نائب حمص ونائب صفد ونائب طرابلس وكتب قوصون اليهم بالسمع والطاعة كما أرسل إليهم جميع النفقات ، ثم استنجد الطنبغا بطقزدمر نائب حماة . . فخرج حمص أخضر لملاقاتهم مستنجداً بابن دلفسار ومماليكه ثم حدث الفساد والتنكيل والسحل ، وجاء قطلوبغا من الكرك داعية للسلطان الناصر أحمد فاحتل دمشق وأخذ أموال الأوقاف وأموال الأغنياء ووزعها على الجند وأنعم على الأجناد البطالين والتركمان بالقماش والسلاح وحلف الجميع للسلطان الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون وعمل يرسمه العصائب السلطانية والسناجق الخليفية والكنابيش والسروج الفاشية والقبة والطير وسائر أبهة السلطنة .

وهكذا تواترت أخبار من جانب واحد أما أخبار قوصون فقد بعثنا من يستعجلها ومن يستعجل من ذهب يستعجلها حتى زهقنا وعرفنا مؤخراً أنه جمع الأمراء للمشورة فاتفق الرأي على تجريد أمراء إلى غزة فتوجه برسبغا الحاجب وعلاء الدين علي بن طغربل في جماعة ، لكن الأخبار سرعان ما استؤنفت القدوم مؤكدة أن الفخري قد سيطر تماماً على الموقف، وكتب لقوصون يعاتبه على إخراج أولاد استاذه إلى قوص وقتل الملك المنصور أبي بكر، وأن الإتفاق وقع على سلطنة الملك الناصر أحمد ، ويشير عليه أن يختار بلداً يقيم بها حتى يسأل له السلطان الملك الناصر في تقليد نباتها . ثم قدم الخبر بأن قوصون جمع الأمراء واتفقوا على تجريدات جديدة ليس للقتال هذه المرة بل لمقابلة الأمراء الغالبية على أمره . ثم قدم الخبر بأنه فتح ذخيرة السلطان وأكثر من النفقات والأنعامات حتى بلغت انعاماته على الأمراء والخاصكية ستمائة ألف دينار ، الأمر الذي القى الرعب في قلب ايدغمش فخاف أن يتسلطن قوصون

بهذه الطريقة فراح يجمع عليه أكابر الأمراء واتفقوا على السفر إلى الكرك لمقابلة السلطان الناصر أحمد وإعلان الولاء له. وكانت جلسة استضافة الأخبار توغلت بنا فلم نعد ندري كم بلغ طولها من الساعات والأيام ، إلا أنني هرشت في يدي فانتبهت إلى ساعتي فنظرتها فإذا بنا في ليلة الثلاثاء تاسع عشرين رجب سنة اثنتين واربعين وسبعمائة ، وكنا قد صرنا في زخم العرق وكثافته في حالة يرثى لها ، فقررنا الخروج والتجول في شوارع القاهرة ، فتقدمنا خمسة من الموشومين يتبعهم ثلاثة أمراء مسلحين يتبعهم الأمير خزعل في جملة من الأمراء والخاصكية من بينهم ، أنا ، يتبعنا عدد كبير من الجند المدنيين المدربين على ضرب المطاوي والخناجر ونط الجدران . أغرانا صمت القاهرة الأبدي فتوغلنا في المسير وقال خزعل : «ما رأيكم لو واصلنا المسير إلى القلعة ؟». قلنا : « لا بأس »، ثم واصلنا، فما أن وصلنا القلعة حتى وجدنا الأمراء الأكابر بقيادة ايدغمش قد ركبوا على قوصون وكنا وقت العشاء الآخرة وعلمنا أن قوصون محصور في قلعة الجبل ، وكان المفروض أنهم مسافرون إلى الكرك ولهذا تجمعوا في سوق الخيل تحت القلعة : « الأمير الطبغا المارداني ويلبغا اليحياوي ويهادر الدمرداشي والحاج إلى ملك الجوكندار والجقولي وقماري الحسنى أمير شكار وارتبغا واق سنقر السلاري . . وقد لبست مماليك كل هؤلاء الأمراء واخرجت أطلابهم ، ثم خرج إليهم الأمير ايدغمش بمماليكه ومن عنده من الأوجاقية ووقفوا جميعاً ينتظرون نزول قوصون . طلع النهار ولم يطلع قوصون ، وجاءنا من داخل القلعة من بين مماليك قوصون من أنبأنا أن مماليك قوصون لبسوا واستعدوا للركوب وطلبوا منهَ أن ينزل ويدرك اسطبله ، لكن ايدغمش سرعان ما أمر الأوجاقية أن تطلع إلى الطبلخاناه السلطانية وأخرج لهم الكوسات فدقوا حربياً ثم نادى ايدغمش :

ـ معاشر أجناد الحلقة ومماليك السلطان والأجناد والبطالين يحضروا ومن ليس له فرس وليس له سلاح يحضر ويأخذ له الفرس والسلاح ويركب معنا ويقاتل قوصون .

فانثالت عليه الأجناد ما بين لابس وراكب وماشي وعلى حمار ، أما الزعر

والحرافيش فحدث ولا حرج . قطعان قطعان من القاعة ينتشرون مقبلين من بقع مجهولة ومتجهة في شراسة لا مثيل لها ، وصوت أيدغمش يصيح فيهم : « يـا كسابة ـ أي الذين همهم في الحرب كسب الغنائـم ـ عليكم باسـطبل قـوصون انهبوه». فما أن أتـم جملته حتى هجمت قطعان العامة على الاسطبل لا تبالي بـالنشاب يـرميه عليهم ممـاليك قـوصون من شبـابيك القلعـة ، غيـر أن يلبغـا اليحياوي ـ وكان بيته يشرف على بيت قوصون في القلعة تكفل بعمل مظلة جوية تحمـي العـامة حتى يكملوا نهبهم ، إذ طلع بممـاليك فـوق بيته فتسلطوا على مماليك قوصون حتى اثخنـوهم وتمكنت العامـة من نهب زرد خانـات قوصون وحواصله وأمواله وكسروا باب قصره بالفؤوس ، يـا له من منـظر ، كانت أكبـر وأوسع فرصة شهدتها العامة في حياتها، اختلط الحابل بالنابل، اندسسنا كلنـا في الجموع المقتحمة قصـر قوصـون وصار الجميـع يأخـذ ما يقـدر على حمله ، وقوصون واقف في شباك القلعة ينـظر قائـلاً : « يا مسلمين أمـا تحفظون هـذا المال ، أما أن يكون لي أو يكون للسلطان ». صاح ايدغمش : « هذا شكرانه للناس . . والذي عندك فوق من الجوهر واتحف يكفي السلطان ». حينئـذ هم قوصون وطلب الركوب في الحال . لكن الخاصكية من مماليكـه كسروا عليـه وقـال أحدهم : « يـا خونـد . . غداً نـركب ونقتل هؤلاء »، وقـال آخـر بنفس الخبث : « لا يهمك أيد غمش . . أنه يناوشك مناوشات ثقيلة لا أكثر »، وقال ثـالث : « ولسـوف نتمكن منهم ونعـطيهم الـدرس الـلائق ! ». . فعـرفت أن خاصكية قوصون يتأمرون عليه ويغدرونه حتى يتم فتح بطنه . كل ذلك والناس يذهبون ويعودون لاستئناف النهب في قسوة بالغـة ، وقوصـون يصفق كفاً على كف ويقـول في تهكم : « يا أمـراء ! هـذا تصـرف جيـد ، ينهب هـذا المـال جميعه ». ثم استدار وطلب أحد خاصكيته وقال له : « إذهب إلى ايدغمش وقل ما يلي ». . فذهب الخاصكي إلى ايدغمش وبلغه مقولـة قوصـون : « إن هذا المال عظيم وينفع المسلمين والسلطان فكيف تفعل هذا وتنادي بنهبـه ؟». ثم عاد الخاصكي إلى قوصون يحمل جواب ايدغمش : « نحن قصدنا أنت ولو راح المال وأضعافه ». وكان النهار قد انتصف ودخل في أذان العصر والقلعة لا تزال

مقفلة الأبواب . وعاد قوصون إلى الشباك من جديد وشرد شروداً عظيماً رأى خلاله مماليكه تقاوم العامة ومماليك ايدغمش بآخر ما تملكه من نشاب والعامة تجمع نشابهم وتعطيه لأتباع ايدغمش ، فإذا به يرفع يده في الهواء علامة التسليم . وهنا دخل عليه ملك الجمدار وملكتمر السرجواني ، قال الجمدار : « يا قوصون . . اختر لنفسك موضعاً تقيم فيه حتى يحضر ابن استاذك من الكرك ليتصرف فيك كما يختار ». فأحنى قوصون رأسه علامة الموافقة ، وهنا تقدم منه جنكلي بن البابا وأمير مسعود الحاجب وأرتبغا أمير جاندار فأمسكوا به وقيدوه ومضوا به إلى البرج الكبير بداخل قلعة الجبل ـ نفس البرج الذي سجن قوصون بشتك فيه ، وفيما هو يسير مقيداً جريت خلفه وقلت له : « كم نهب منك يا قوصون ؟» فرد على من بين القيود قائلاً : « حياتي »، ثم عاد فقال : « كان في حواصلي من الذهب النقد اربعمائة ألف دينار عين في أكياس ، ومن الحوائص الذهب والكلفتات الزركش والأواني فشيء لا ينحصر ، وثلاثة أكياس أطلس فيها فصوص وجواهر مثمنة بما ينيف على مائة ألف دينار ، ومائة وثمانين زوج بسط ، منها ما طوله أربعون ذراعاً وثلاثون ذراعاً كلها من عمل الروم وأمد وشيراز ، وستة عشر زوجاً من عمل الشريف بمصر ، وأربعة أزواج بسط حرير لا يقوم عليها لحسنها »، ثم ترقرقت الدموع في عينيه . وإذا بخزعل يقف بعيداً ناظراً فيه بعينين حيوانتين تفيضان بالتشفي ويقول « تعيش وتأخذ غيرها يا قوصون الكلب ». فلهث قوصون صائحاً : «يا ريت !»، فوضعت يدي في أبط خزعل ومضينا . كان من رأي خزعل أن نمر في طريقنا بالصاغة لنعرف سعر الذهب ، وكنت أشعر من فرحته الخفية أنه قد نهب الكثير والكثير ، ولما كنت أنا الآخر قد نهبت الكثير فأنني وافقت على الذهاب إلى حي الصاغة ، فإذا بنا نجد أن سعر الذهب قد انحط انحطاطاً شديداً في لمح البصر حتى صرف الدينار بأحد عشر درهماً بعد أن كان بعشرين درهماً وكان الحي يشفي بالمارة والذهب منتشراً في ايديهم كأنه التراب ، يلهو به الأطفال والشبان كأنه اللعب ، والجواهر الثمينة تنتقل من واحد جاهل إلى واحد أجهل مقابل خياره خضراء أو غدوة أو كوب عصير . وصمم خزعل على دخول أحد الدكاكين ليساوم في قليل

ممامعه على أن يدخر الباقي لحين ، فما أن دخلنا حتى هش لنا صاحب الدكان وفرش لنا الكنبة المصدفة فجلسنا فأمر لنا بأكواب العصير ثم أختفى لبرهة عـاد بعدها يحاول اخفاء توتره ، وإن هي إلاّ دقائق معدودة حتى هجم علينـا الجند وطوقانا ثم أمسكونا ، فقلت لهم : «ماذا في الأمـر ؟» فقال أحـدهم : « أنتما مقبـوض عليكما » قلت : « لمـاذا ؟». قال : « صـدر امر ايـدغمش إلى تجار الجواهر بالتبليغ عن أي أحد يجيء ليبيع الذهب حتى نقبض عليه ». نظرت في الجواهرجي الخسيس بقرف وقلت له : « يعني بتتشطر علينا ؟» وقال الجندي : لا بد أنكما دخلتما في مساومة اباسته. . انهم ـ هؤلاء التجار ـ استغلوا هذا الأمر أبشع استغلال . . تبيع لهم بأبخس الأسعار أو يبلغون عنك . . نحن نعرف كل شيء ولكن ». . ثم شدنا بعنف فضربه خزعل بقدمه فـوقع فـانكسرت رقبتـه ، فطوح فوقه بكل من معه دفعة واحدة ، ثم شد الصائغ من شعـره فكومـه وداس على رقبته ، وبلوح زجاج ضربه في جمجمته فتفتت وتناثـرت ، ثم راح يجمع قطع الجوهر كلها من الفتارين ويضعها في جيوبه ، ثم شدني ومضينا كان شيئاً لم يكن . وقد لاحظ انتفاضي فقال باسماً : « كلهم حشرات سامة يكافأ الإنسان بالحسنة على سحقها»، ثم نظر في عيني ساخراً : « حلوة الحسنـة دي ؟!». فلم أرد عليه مطلقاً . وكان الخبر قد سبقنا إلى الخزانة بأن قوصون قد تم تسفيره إلى الإسكندرية مع مائة فارس ليسجن بها .

الفصل الرابع عشر

لنحن أغلظ أكباداً من الأبل

مضيت وراء الأمير « خزعل » في شوارع القاهرة والذهب يخر من جيوبنا ، والعامة من فرط زهدهم في الذهب ينبهوننا قائلين : « حوش اللي وقع منك »، فيميل « خزعل » أو أنا على الأرض لألتقاط سوار أو خاتم أو عقد فتنكسب من جيبه أو من يديه عشرات الخواتم والقطع النادرة ، وفيما كان الأولاد ورهط كبير من العامة يساعدوننا في التقاط ما يقع منا ويجيئون لنا بقطع فرت بعيداً وأختفت عن أنظارنا ، مر علينا الجند والعسكر يمسكون بناس ضبطوا يبيعون الذهب ، تابعهم « خزعل » بنظرة شرسة نهمة ، ثم أنه حشر القطع في جيوبه ، وداخل عبه وعلق بعضها في رقبته واذنيه ورجليه وأصابعه ويديه ، فصار ترسانة جواهر تمشي على قدمين لاهثة خلف الذين ضبطوا يبيعون الذهب ، لحقت به وهو يقتحم المتهمين في بجاحة منعدمة النظير قائلاً دون أن يعبأ بالجند : « حد عايز يتخلص من تهمته ؟ »، فنظر إليه الجند في استهجان وخوف ونظر إليه المتهمون في عدم تصديق يشوبه التصديق ، قال لهم : « لا تخافوا . . هاتوا ما معكم احفظه لكم وأنجيكم من التهمة ! ». ولم ينتظر الإذن بل مد يده وجرد أحدهم مما في يديه ؛ فأراد جندي أن يمنعه فشقلبه على الأرض بحركة لم نرها ، ثم أنه جرد آخر مما في جيبه ، وضرب جندياً آخر في بوزه أطاره في الهواء ، وجرد ثالثاً ورابعاً ثم أشار لي برأسه أن اتبعني فتبعته والذهب يشخلل في موكبنا برنين وهسهسات مزعجة للغاية .

وصلنا الخزانة فإذا بجو غير عادي يطالعنا من الباب ، ناس مضروبون

وآخرون مهانون وثمة أصوات ترتفع هنا وهناك . وقف « خزعل » صائحاً : « ماذا حدث ؟» . تقدم منه أحد أمراء الخزانة وأنبأه أنه ـ الأمير . أكتشف وجود سوق للذهب في الخزانة فكل نزلاء الخزانة كانوا من بين العامة الذين اقتحموا قصر قوصون واسطبله وكل دياره وأعملوا فيها النهب والسلب والتخريب ، وقد نهض الأمير فتصدى لهذه السوق فور قيامها وصادر كميات هائلة من الذهب كانت في ايدي عامة الخزانة وغوغائهم، فنظر له « خزعل » نظرة فيها مزيج من التنكر واللا تخوين لكنه غطاها بأن أدار بصره لأهل الخزانة قائلاً : « لا بأس مما حدث على أي حال . . فمن وقع عليه الضرب لا يزعجنا ويزعج نفسه بالبكاء ، ومن وقعت عليه الإهانة يتحملها في طيب صدر . . فما فعل الأمير سوى مصلحتكم ولسوف نبيع هذا الذهب ونصرف عليكم »، ثم سحب الأمير من كتفه ودخل به إلى المقصورة ثم اختفيا معاً وبعد فترة طويلة خرج الأمير مضروباً مهاناً حتى النخاع ، ثم خرج بعده « هزعل » وقد تجرد من كل ذهبه وأمسك بيده كأس عرق ، ثم زفر وصاح في تحسر : « والله وخدت السلطنة يا ابن بياض. . بس تستاهل . . خدتها وأنت في الكرك . . وتخلصت من اخطبوط . . هنيئاً لك يا عم ». قلت : « تقصد من بابن بياض ؟» . . قال : « السلطان . . الملك الناصر أحمد بن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون » . قلت : « عجيبة . . ومن تكون بياض هذه ؟» . قال : « أنها كانت مغنية !» قلت : مغنية ؟!» . قال : « نعم . . كانت مشهورة ، وكان اسمها قومه ، وكان بهادر أمي ، رئيس نوبة ، قد أعتقها . . وكان الناس بها مجالس أنس عامرة . . وكانت بارعة في الغناء: قلت : « شيء عجيب والله . . فما الذي أوصلها إلى أن تكون أما للسلطان الجديد أحمد ؟» . قال : « وصل خبرها للسلطان الملك الناصر . . فطلبها . . واختص بها . . وحظيت عنده فولدت أحمد هذا على فراشه . . ثم تزوجها بعد ذلك الأمير ملكتمر السرجواني في حياة الملك الناصر محمد » . قلت : « على فكرة . . أحمد هذا هو السلطان من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون » .

قال : « نعم والملك الخامس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية ». قلت : « كسبنا صلاة النبي ﷺ ».

وبينما نحن كذلك إذ وردت الأخبار بـأن الأمير « ايدغمش » الذي قضى على قوصون وخلع الملك الأشرف كجك من السلطنة بعد خمسة أشهر وعشرة أيام من سلطنته قد بعث بالأمير جنكلي بن البابا والأمير بيبرس الأحمدي والأمير قماري أمير شكار إلى الملك الناصـر أحمد بـالكرك وعلى يـدهم كتب الأمراء يخبـرونه بمـا وقع ويستـدعونـه إلى تخت ملكه ثم جلس مـع الأميـر الـطنبغـا المارداني والأمير بهادر الدمراداش والأمير بلبغا اليحياوي واستدعوا الأمراء فلما حضروا أمر أيدغمش بالقبض على الطنبغا الصالحي الناصري نائب الشام وعلى الأمير أرقطاي نائب طرابلس وسجنا بقلعة الجبل وأمسكوا بعدهما أمراء كثيرين بلغوا خمسة وعشرين أميراً ، هذا وقد خلع ايدغمش بولاية القاهرة على جمال الـدين يوسف والي الجيـزة وقيل أنـه نزل إلى القـاهرة بـالفعل ليـدرس أحوال شوارعها . . حينئذ نظرت إلى « خزعل » وقلت : « أظن مـا بدهـاش . . لازم أقـوم ، أشوف أيـه الأخبار ». فقـال خزعـل : « في ستين داهيـة ». فشكـرتـه ومضيت . .

اجتزت شوارع القاهرة إلى ضـاحية القلعـة فقابلني الجنـد يقبضون على بعض العامة ويمشـون بهم في غلظة وبعدهـا بدقـائق فوجئت بحـوالي عشرين حماراً فوق كل حمار رجل يعطي وجهه لمؤخرة الحمار والحمار يمشي به كأنه في اتجاه مخالف لاتجاه راكبه ، وقد دهنت وجوههم بالقطران والنيلة ، والبسوا الـطراطير ، وخلفهم قـوافل الجنـد يضربـونهم بالمقـارع من حين إلى حين ، فعرفت أنها عملية تشهير ، وعرفت أن جمال الـدين يوسف والي الجيـزة الذي أصبح والياً على القاهرة هو الذي أمر بذلك ، وكانت الطرقات مليئـة بالغـوغاء الذين يبدو أن لا حول لهم ولا طول ، وهم بالفعل كـذلك ولكن في حـالة أن يكـون كل على حـدة ، أمـا حين يتجـاورون فـإنهم يصبحـون كـائنـاً خـرافيـاً كالديناصور ليس من السهل مقاومته ، صاح واحـد من الغوغـاء قائـلاً لي كأنـه صديقي من زمن بعيد : « أرأيت ؟»، فصحت فيه بدوري : « نعم أرأيت ؟»،

فصاح واحدٍ ثانٍ: «أهذا كلام يا خلق؟» وصاح ثالث: «هذا ظلم يا ناس»، وصاح رابع : « لا تقل يا ناس . . قل يا كفره »، وعلق خامس : « لو كانوا هؤلاء أمراء أو أثرياء ما فعلوا بهم هذا الفعل الشنيع »، وعلق سادس : « لا يشقى في هذه الديار سوى الحرافيش والمعدمين أمثالنا »، ثم أن الصوت السادس أنقلب فصار سادس عشر بل سادس مائة أو سادس ألف من الغوغاء لا تدري كيف اجتمعوا هكذا في لمح البصر قادمين من الحواري والأزقة والمنعطفات وأحواش المقابر بالفعل ذلك الكائن الخرافي المجنون ، ولم أكن أعرف هدف الركب الغوغائي الذي دفعني في قلبه سائراً نحو القلعة حتى وقفوا بميدان الرميلة ثم زحفوا حتى لاصقوا القلعة تماماً وصاحوا كأسراب من الغربان : « اطلع إلينا يا أمير ايدغمش ـ نريدك في الحال ». وكيف أن الأمير ايدغمش الذي يقوم بالسلطنة لحين قدوم السلطان سوف لن يعيرهم أدنى التفات ، ولما علمت أن هؤلاء الغرغاء يطلبون خروج ايدغمش ليتكلموا أمامه في حق والي القاهرة كلاماً غير طيب قلت : إن ايدغمش لا بد أن ينكل بهم تنكيلاً ، على الأقل دفاعاً عن هيبته وعن رجله الذي اختاره ، لكنني فوجئت بايدغمش يخرج لهم في شباك القلعة واضحاً للعيان صائحاً في صوت ودود : « ماذا ألم بالمسلمين؟» قالوا جميعاً : « وليت على الناس واحد فوضوياً ما يخلي منا واحداً !»، ـ قال ايدغمش : « ماذا جرى عن جمال الدين ؟». قال الغوغاء : « نزل شوارع ـ القاهرة وقبض على ناس منا وشهرهم ظلماً وعدواناً ثم قادهم إلى السجن بتهمة النهب وهم مثلنا أبرياء . . هل تتصور أن النهب يجيء من طرفنا؟ . . أبداً والله ما يحدث أبداً إنما النهب والسرقة يعرفهما غيرنا ». قال ايدغمش : « هذا صحيح بالقطع » ثم استدار وأشار نحو الداخل إشارات ثم عاد وقال : « بعثت الأوجاقية في طلبه ». قالت الغوغاء : « جازاك الله خيراً ». ثم ما لبث الأوجاقية أن خرجوا من أبواب القلعة فهرولت في أثرهم وهرول الغوغاء خلفنا ولحق بعضهم بنا قائلين أن جمال الدين يوسف موجود الآن بالصليبة بريد القلعة . فتقدمنا الأوجاقية إلى خط الصليبة من شارع خارج باب زويلة ، فإذا بخط الصليبة ملتقى شارع الصليبة وشارع شيخون وشارع الركبية وشارع السيوفية تتلافى كلها في نقطة واحدة على شكل

صليب فعرفت أنه لهـذا سميت بخط الصليبة وهي بجوار الجامع الطولوني مباشرة. بالفعل قابلنا ركب الوالي جمال الدين يوسف متوجهاً نحو القلعة، فاندفع الغوغاء يصيحون : « قوصوني . . قوصوني . . يا من تغارون على الملك الناصر ». . فإذا بقطع الطوب تنهال على الوالي من كل جهة . فلما أيقن الوالي أن الغوغاء مستقتلة رجماً بالطوب أدار دفة الركب واندفع يجري بسرعة رهيبة في اتجاه الجنوب من الأرض التي اقيم فوقها ـ بعد قرون ـ جامع السلطان حسن ، وراحت الجبلية والأوجاقية ترد الغوغاء عن ركب الوالي فلم تفلح ، بل أن محاولاتهم رد الغوغاء حركت في الغوغاء كل المكبوتات فحدث الالتحام بينهم فجرت الدماء غزيرة وصنعت مع تراب الأرض أوحالاً يخوض فيها المتهم والبريء والمسؤول والعبيط معاً . صاح بين العامة صائح : « أتعرفون أين هرب جمال الدين ؟» قالوا : « أين ؟ ». قال : « إلى قصر الطنبغا المارداني . . فإندفعنا جميعاً في اتجاه قصر الطنبغا المارداني فإذا بنا أمام قصر مهيب جميل وإذا بي من فرط التعب أقف مذهولاً أمامه فأرى القصر يتغير حاله حتى تصيبه الشيخوخة ثم يتسلقه العمال والمهندسون ويهدمونه ويقيمون بدلاً منه جامع السلطان حسن الذي لا يزال قائماً حتى الآن في عصرنا في القرن الرابع عشر الهجري . انتبهت فإذا بمماليك الطنبغا يتصدون لنا في قوة وعنف ضرباً بالكرابيج والعصى والنبابيت والسيوف والخناجر والنشاب ونحن نقاوم ونحمل المملوك جماعة ونقذف به مملوكاً آخر وبسيوفهم تطير رقابهم وأنوفهم حتى جاء من يصبح بنا في صوت جهوري متكرر : « يا أهل الديار من عامة وحرافيش يطلبكم الأمير ايدغمش الآن على وجه السرعة للضرورة الكبرى». فأنصاعت إلى النداء مجموعات كثيرة تبعتها مجموعات اخرى حتى إذا ما تبعتهم أخيراً وجدتهم يحتلون ميدان الرميلة ويتسلقون ما فيه من منشآت وأبنية كأنهم نتوءات بارزة في بطن جبل خرافي ، أطل ايدغمش صائحاً : « طلبتكم لأخبركم فيمن يجب أن يكون والياً على القاهرة ». فإذا بالأصوات تصيح خلف بعضها كأنها الصدى المتكرر : « نجم الدين . . الذي كان والياً قبل ابن المحسني . . نعم . . نجم الدين ما نطلب ». فصاح ايدغمش في الحال : « هاتوا نجم

الدين »، فصاح الغوغاء صيحات فرح جنوني وصاروا يؤدون حركات بهلوانية ويفعلون مواقف كأنها المسرح في عصرنا ، حتى أعلن قدوم نجم الدين وأعلن عن تسلمه ولاية القاهرة ، ثم أن نجم الدين نفسه أطل علينا وحيانا بيديه . . فأخذنا نصيح ونهتف : « عاش الملك الصالح الناصر . . عاش الملك الصالح الناصر ». فظهر الارتياح على وجه ايدغمش وظهرت السعادة على وجه نجم الدين ، الذي قال فجأة وبلا مناسبة : « والآن أنا تحت أمركم » فصاح الجميع في نفس واحد : « اعزل عنا ابن رخيمة المقدم . . وحماس رفيقه ». فقال نجم الدين : « ليكن ما تريدون . . ها أنذا قد عزلتهما ». قالت الغوغاء : وأنهما ليستحقان السلب والنهب » قال نجم الدين : « ولقد أذنت لكم في ذلك ». . فإذا بالجموع تندفع كالسيل الغاضب وأنا وراءهم حتى وصلنا إلى شارع سوق السمك وعبرناه إلى شارع خان أبو طاقية حتى وصلنا إلى رحبة كوكاي الواقعة على رأس الشارع حيث دار ابن رخيمة بجانب بيت الأمير كوكاي ، فما أن وصلت أنا حتى رأيت الناس على القصرين كجيوش النمل لا مكان على حوائطهما أو شبابيكهما أو السطوح لقدم . الكل ينهب شيئاً حتى الأبواب وحديد الشبابيك ومقابض الأبواب سلبت ولم يبق في الدارين سوى جدران ملساء يقع منها الخراب والخواء .

نظرت ورائي فوجدت « خزعل » بنفسه بين الغوغاء يسلب وينهب أو بالأصح يشرف على الذين ينهبون لحسابه بلا حساب ، ومن طريف الأمور أنه يصيح من حين إلى حين في وجه الغوغاء يلومها على ما تفعل ويقول أنه شيء مناف للشرف والضمير فكانت العامة تعلن على وجهها تصديقه ثم ما تلبث أن تطلق ضحكاتها في السر ساخرة ، ولما أطمأن الأمير خزعل على منهوباته وأيقن أن شيئاً منها لم يتسرب إلى بائع سريح مشى بجواري في هدوء صامت لكنه قطع صمته فجأة صائحاً في إذني : « على فكرة هذا الرجل لا يصح أن يبقى على أريكة السلطنة أو بجوارها !». قلت : « تقصد من ؟». قال : « ايدغمش !» قلت : « لماذا ؟». قال : « كيف يأتمر بأمر الغوغاء ؟». قلت : « كان الرجل حكيماً فقمع الفتنة وأوقف سيل الدماء ». قال : « ولكنه في النهاية شاور الغوغاء

ونفذ لهم طلبهم . . هذه سابقة لا يجب أن تمر هكذا . . وغداً تسمع أن عقاباً حل به جزاء هذه الفعلة الشنعاء ». قلت : « يا رجل لا تكن مغالياً ». قال : « هذا هو قانون الحياة في الديار المصرية منذ أن انشئت ». قلت : « أجارنا الله وأياك ». قال : « ما مقدار ما نهبت في هذه الهوجة ؟». قلت : « لا شيء والله العظيم . . لكنني جنيت فحسب ». قال : «دعك من الفلسفة . كم من النهائب أخذت ؟». قلت : « لا شيء » قال : « فأنت إذن لا تستحق الحياة بين البشر !». قلت : « كيف يا سمو الأمير ؟». قال : « حين يستحل النهب ولا تنهب تكون ساذجاً . . وحين يؤمر به أو يؤذن ولا تنهب تكون إذن مخبولاً !». قلت : « لكنني ربما أكون رافضاً لمبدأ النهب في حد ذاته ». قال ضاحكاً : « إذا عشت في مجتمع لا يعترف بوجود الله لا يصبح هناك تهمة اسمها الكفر ». قلت : «يا رجل قل كلاماً غير هذا ». قال : « قل أنت كلاماً غير الذي قلته . . دعك من مسألة الرفض مبدئياً والمبدأ فرضياً ومثل هذه السفسطات التي بدأت تفد عليكم من العرب ». قلت : « يا أخي ولا تزعل ، يا أميري خزعل لا تزعل، خلاص، دعني مما قلت كما تقول». قال: « لا أنت إذن لا تطالبنا باحترام جزاء هذا الوقف الذي زعمت أنه رفض مبدئي . . حسن فتكن أنت ممن يرفضون ويتعلقون بأوهام اسمها المبادىء وما أشبه ، لكننا لا نعترف لك أو لغيرك بأن هذه فضيلة يجب أن نشكرك عليها . . مفهوم ؟» قلت : « مفهوم». قال بلهجة ذات معنى : « تعرف أن كل من لا يدر دخلاً للخزانة فهو عيال عليها ». فهمت قصده طبعاً فقلت : « عيال ! . . طب وماله . . عيال عيال . . هو فيه حد راجل في الزمن ده ؟». فدهمتني نظرته الجبارة فقلت مرتعشاً : « أقصد زمني أنا ». صمت على تهديد فارتعدت ، وتذكرت أنني لم أحصل شيئاً على الإطلاق يتيح لي الأستغناء عن الخزانة فقلت أنني يجب أن (الايمها) « قليلاً . . معرفش معني الايمها دي لمؤاخذة - حتى أخلص بجلدي من راثن الموشومين ، وقلت في نفسي أن الأمور حين تصبح مهزلة أو كالمهزلة لا بد أن يزداد عدد المتفرجين بقدر تصاعد الأدوار إلى ذراعاً ، وأهم ومخطىء كل من يتصور أن تفاقم الأمور يمكن أن يتم بمعزل ، كيف يحق الله والتفاقم

نفسه هو تحطيم الفكرة المعزل من الأساس . حازاني خزعل فجأة بعد أن كان قد سبقني بخطوات كثيرة ثم سألني مستدركاً: «قلت في أول حديثك معي أنك لم تنهب ولكنك جنيت . . وأنني لآسف إن كنت قد أسبخت في حقك قبل أن أعرف الذي جنيته . . فما الذي جنيته ؟». قلت : « لقد شغلتني الفرجة . . كنت من بين المتفرجين ». قال مصفقاً كفا على كف : « وكمان بتعترف ؟ . . بتقول أنك كنت قاعد تتفرج . . يا للبجاحة بل يا للوقاحة . ارتعدت مفاصلي خوف « تفاقم » المناقشة فقلت : « أشكرك على كل حال ولكن غداً تعرف أن للفرجة فوائد كثيرة بل فوائد جمة ». قال في اشمئزاز ؟» جمة ؟!» قلت بقرف : « نعم »، قال ببريق عينيه » ماذا ؟. قلت من قلب مرتعب : « أقصد أنك تدين بفلسفة غير التي ادين بها . . أنت من أصحاب فلسفة إن الإنسان يجب أن يصبح ترساً ذكياً يندمج في أي ماكينة تنشط للعمل . . أما أنا فمن أصحاب فلسفة أن الإنسان يمكن أن يظل العمر متفرجاً فيفيد البشرية أكثر ». فشوح في وجهي بحركة من يده تصمني بالخيبة ثم إذا به ينشط فجأة وتتوثب فيه كل الأطراف، وينتقل مسرعاً إلى الجانب الآخر من الشارع الطولوني ناحية الدحديرة التي أغرم بوصفها استاذنا يحيي حقي ، تابعته فرأيت مجموعة من الغلمان يسيرون حاملين حزمة من العصي ذات المقابض الذهبية والعاجية ، وبعض الشمعدانات الذهبية والفضية والمرمرية ، ثم كأنني أتفرج على حلقة من برنامج « عالم الحيوان » في تليفزيون القاهرة : خزعل كأنه حيوان مفترس من فصيلة مجهولة الاسم والنسب على الغلمان انقضاضة يقشعر منها البدن ، وكان الغلمان قد وقفوا مسمرين مخدرين لمجرد رؤيته ، أطار بظفره إذن غلام فصرخ ورمى العصى ، ولوى ذراع غلام آخر فخلعه فرماه وتلقف الشمعدانات ، أما الغلام الثالث فمن تلقاء نفسه وضع ما كان معه من طيب خاطر ووقف صامتاً لا يفعل شيئاً ، مع ذلك أمسكه خزعل من طوقه وطوحه كالكرة ثم شاطه يحلق فنزل الغلام جثة هامدة فوق عربة كارو كانت مقبلة من الصليبة وتهشم رأس الغلام وتناثر علينا ووقف العربجي يصرخ ويولول من هذه المصيبة التي حلت به ومضى خزعل يحمله وجريت

خلفه يأكلني الغيظ والحقد ويسحقني الخوف ، قلت له : « أما كان يكفيك ما فعلته بالآخرين ؟ . . الغلام أعطاك ما معه دون مقاومة ، فكيف بك تعاقبه وحده هـذا العقاب البتـار ؟». لكزني فـرماني بعيـداً وقال : « كـان الغـدر في عينيـه وحده . الغدر والحقد كلاهمـا شعور كلمـا أمعن الإنسان في أخفـائه ظهـر ». قلت : « ولكن لـم العنف إذا كانت الخشونة وحدها أجدى !» قال بنبرة غدر : « اسمع يا ولد . . أنت تعيش في مجتمع أباح النهب والسلب بإذن ومرسوم . . إذن فالأقوى هـو الأنهب والأسلب . . كل نهب وسلب حسب قـوته . . والقـوة كالعطر أو كالتنين لا بد من ظهـورها ». قلت : « جـازاك الله كل خيـر » قال : « نلتقي في الخـزانة مسـاء ». قلت : « بإذن الله » وتـركته وعـدت إلى نواحي الصليبة استقرىء ما حدث فما وجدت شيئاً على الإطلاق ، حتى جثث الغلمان الذين أطاح بهم خزعل تكفل بحملها الغوغاء والحـرافيش وطفقوا يبحثـون عن أصحابها وأصحابها ليسوا بالضرورة من ذوي قرباهم بل الذين يتكفلون بهم .

لم أعرف كم قطعت من الساعات ماشياً في الصليبة وحدي أو مع خزعل لكنني وجدت ركب الأمراء مقبلاً من جهة الساحل في زئيط وفرح عالي الصوت والنبوة، نظرت في ساعتي فوجـدتنا في يـوم الأربعاء سـابع شعبـان. . سنة اثنتين واربعين وسبعمائة . فعـرفت أن الأمراء الـذين كان سجنهم قـوصون في سجن الإسكنـدرية قـد وصلوا بإفـراج من ايـدغمش ، كـانـوا أربعـة وخمسين نفـراً من الممـاليك النـاصريـة بالإضـافـة إلى الأمـراء : ملكتمـر الحجـازي وقـطليجـا الحموي . كان الموكب حافلاً بالطبل والزمر ، وبحثت فيه عن الغوغاء فوجدت نسبـة كبيرة سمحت لي بـالإندسـاس في المركب ثم الاقتـراب شيئاً فشيئـاً من الأميرين العائـدين ، حتى إذا ما تـرجلوا عند القلعـة دخلت معهم القلعة بكـل بجاحة وبرود وهم يظنون أنني في الحاشية . . فما أن دخلنا من باب البيت حتى طالعتنا كوكبة هائلة من الجواري بالدفوف والشبابـات ـ يعني المزمـار البوص ـ وفي الوسط إمرأة بكل معنى الكلمة متينة البنيان تملأ الدنيا رقصاً سـاخناً وتبث النار في فؤاد المغنية فتبث بدورها النار في أكف الجواري فتبثشن بدورهن النار في فؤادي ، قلت فمن هذه التي تعطينا الآن دروساً في الرقص الشرقي ، فقالوا

لي أنها خوند الحجازيـة بنت السلطان الملك الناصـر محمد بن قـلاوون وهي فرحة بعودة زوجها ملكتمر الحجازي . كان محدثي ولداً من غلمان القصر يلبس ملابس السفرجية فقلت له ومن هذه التي تروح وتغدو وتقوم بالخدمة كالفـراشة الحالمة ؟ قال أنها أخت خوند وزوجة بشتك الناصري وهي تساعد اختها بالفرح شماتة في قوصون لكونه قتـل زوجها قبـل تاريخـه هذا . . واجتـذبني على مبعدة قليلة صوت بكاء وعـويل حـراق لعله في نفس الغرفـة فلما نـظرت وجدتـه في الصالة وإذا بسيدة أجمل وأجمل تقطع خدودها من اللطم وتكاد تلفظ روحها من فرط العويل ، قلت للغلام فمن هذه يا غلام ؟ قال هي أخت هاتين الأختين ابنة الناصر محمـد بن قلاوون أيضـاً وزوجة قـوصون وهي تبكي عليـه كما تـرى ، احسست بمشـاعر متضـاربه لكنني قلت : « لا حـول ولا قوة إلا بـالله »، فقال الغلام : « نعم . . أنظر يا أخي إلى الدنيا . . فرح وعزاء ». قلت : « كيف يقام الفرح بجوار العزاء هكذا دون حرج ؟ : قال الغلام : « لأنه كان هكذا منذ وقت ليس بالبعيد . . غير أنه كان بالعكس . . الفرح هنا ـ وأشار إلى المولولة والعزاء هنا ـ وأشار إلى الراقصة ». وقال الغلام بعد برهة : « لو مكثت هنا بعض الوقت يمكن أن تتفرج على فرجة كبيرة ». قلت : « كيف ؟» قال أن الشقيقات الثلاث يعـاملن بعضهن البعض بقوة ورقـة في نفس الوقت . كـل واحدة منهن اثنتـان فواحدة ، الأخت والزوجة وهكذا يدور بينهن حوار له العجب . . هل أنت من حاشية أحدهم ؟». قلت : « لا والله يا ولدي ». فانقلب وجهه في الحال كأنني نصبت عليه نصبة كبيرة وقال : « فماذا إذن تفعل هنا . . وكيف سمحت لنفسك أن تسـدرجني في الحوار؟ ». قلت : « أهـدأ . . لقد تهـت وهـذا كل مـا في الأمر . . لا استدرجتك ولا يحزنون . . عن اذنك ». ثم ودعتـه وانصرفت . . فلما صرت في الخلاء نظرت في ساعتي فوجدت عقاربهـا على مشارف شهـر رمضان فتعجبت من سرعة مرور الزمن وتساءلت أين ذهب ولكنني تذكرت أني مكثت طويلاً بل طويلاً أتأمل في جسد الراقصة ذلك أنها لم تكف عن الـرقص مثلما لم تكف أختها عن العويل. المهم أنني نزلت تحت القلعة فوجدت الدنيا غائمة والشوارع تصب في الميدان أرتـالاً من الغوغـاء تقف في حالـة انتظار ،

فتعجبت وقلت لماذا تقولون هكذا يا معشر الغوغاء؟.. فقالوا عجباً.. قالوا إن الأميرين بلبغا اليحياوي وملكتمر الحجازي تفاوضا في الكلام حتى بلغا إلى المخاصمة وصار لكل منهما طائفة ولبسوا آلة الحرب » قلت : فما شأنكم أنتم تتجمعون هكذا ؟». قالوا : « لنهب بيوت من عساه ينكسر من الأمراء » . فسمرني العجب في مكاني لا أريم . .

الفصل الخامس عشر

مولاي السلطان . . أنا أعرق منك في العبودية

كنت لا أزال اتصعلك في منطقة الصليبية ربما من فرط الذهول مما حدث وربما من فرط الإعجاب مما رأيت عليه المكان : فعلا أرى ملتقى أربعة شوارع تدب فيه الحركة والنشاط بشكل لم أر له مثيلاً في حياتي من قبل ، أربعة شوارع رئيسية تصب في هذه البقعة الصغيرة نوعاً الكبيرة في نفس الوقت إلى حد مخيف ، حتى لتستعجبَ كيف بهذه البقعة الصغيرة اتسعت لكل هذه الحركة الدافقة ، لكنك سرعان ما يداخلك السرور حين تكتشف أن الحركة دافقة ولذا فهي لا تهمد برهة واحدة ، تصب هنا أو ها هنا من المصبات الأربعة وتتلقى منها ما تعمل على صبه من جديد . عجبت أيضاً من طابع الأرستقراطية الواضح على هذه البقعة حتى ليكتسبه كل من يمر فيها فقيراً كان أم غنياً أم شحاذاً ، ما أن يدلف إليها متجهاً إلى أحد المصبات حتى تحط عليه مهابة مفاجئة وتراه يعدل من خطوة كأرستقراطي قديم عريق . وأغلب الظن أن مجموعة القصور المجاورة لبعض الأمراء وهي قصور زاهرة حافلة بإعداد لا حصر لها من المماليك هي التي طبعت هذه المنطقة بطابعها . « حوارجي » أنا من قديم الأزل مثلما أنا طرشجي وحلوجي وكاتب ، طفت بعشرات المئات من الحواري والمنعطفات والأزقة والدروب فلم أجد في حلاوة أو طراوة هذه المنطقة المسماة بحي الصليبة . فجأة قابلت أحد الموشومين يجري وسط رهط كبير يهم باقتحام الملتقى . استوقفته سألته : « إلى أين ؟». . جذبني من يدي بأصبع واحدة وانطلق يجري قائلاً : « أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ».

قلت : « ما لهم ؟». قال : « وصلوا من قوص ونخف الآن لاستقبالهم ».
قلت: « بصفتكم ماذا؟ » قال: « بأي صفة كانت. . لقد سبقنا الأمراء بالخيول لهم وللقادمين . . وها نحن نلحق بهم إلى بر الجيزة ». نظرت فوجدتنا في يوم الخميس سابع شهر رمضان من نفس السنة المذكورة . وكنت أود لو أذهب معهم ولكنني وجد ت عدد العامة يفوق الحصر ، ولم أصدق أن هذا كله ولاء ، فمع أنني أثق في ولاء العامة بشكل مطلق إلا أنني أتردد كثيراً في تفسير علاقتهم بضعف الأمراء والحكام . وجدت خاناً صغيراً في أول الشارع النفيس بفتح أبوابه للمسافرين ببيعهم ماء الورد وبعض العصير والمشروبات الأخرى ، فجلست فيه أطل على الشارع وأرقب وفود العامة التي صارت تتزايد وتتكاثف حتى صارت تنضغط في بعضها وتتوقف نهائياً . ظلت كتلة الأجساد متوقفة تماماً لبرهة طويلة كما تتوقف ارتال العربات خلف بعضها على مشارف الإشارات . . وخيل إليّ أن ثمة طارئاً حال دون وصول القادمين أو وصول المستقبلين ، فتلقفت رجلاً مقبلاً من الشارع وقلت له : « ما الأمر ؟». فقال : « لا شيء . . أولاد الملك الناصر محمد الذين كان قوصون قد نفاهم إلى قوص وصلوا إلى القاهرة ». قلت : « أقصد ماذا حدث لهؤلاء الناس الذين يزحمون الشوارع ؟».
قال : « أنهم عائدون بالضيوف الكبار». قلت : « هل هم ذاهبون أم عائدون ؟». قال : « أنهم عائدون ». فقمت فلم يستوقفني جرسون لتذكيري بالحساب لأنه لم يكن هناك جرسون من الأصل ثم أنني شربت كوباً من الخروب قال صاحب الخان أنه على حسابه الخاص باعتباري وجهاً جديداً ، فشكرته وانصرفت : فلما سلكت لنفسي طريقاً بين الاجساد اكتشفت أن هذه الأجساد كانت مجرد حواجز أو سواتر بشرية في حين يغشى نهر الشارع بعشرات المئات من العامة الدهماء والزعر والحرافيش يمشون خلف موكب الأمراء وأولاد السلطان . فرجحت أن تكون هذه الحواجز والسواتر من الأمن المركزي التابع لزمنهم ولكنني استهجنت هذه الخاطرة ومضيت في قلب النهر مع الزعر فكنت أرى من حين لآخر بعض الموشومين يختلطون بالدهماء ويصيحون مثلهم وبنفس الحماس بل أشد يقولون : « والله زمان ». . « شرفتوا دياركم ». .

« مصير الحي يتلاقى ».. « الظلم لا أقدام له ».. . . « الطيب في أبيهم مكث لهم في الأرض ».. وهكـذا إلى أن وجدت أننـا قد صـرنا في القـرافة ، وإذا ببعض العامة يتوقفون فيتوقف معهم آخرون عنـد مقبرة أنيقـة ، صاح واحـد : « هـذه تربـة جركتمـر». وقال آخـر : « هذه تـربة الـذي قتـل استـاذنـا الملك المنصـور ». وكنت أعرف أن أولاد الملك المنصـور جاؤوا إلى القـرافة لـزيارة مـوتاهم وكنت أحب لـو رافقتهم ولكن منظر العـامـة أثـار هيـاجي ، إذ رأيتهم يهجمون على التربة ويفتحونها بأيديهم وبقطع حديد وفؤوس، ثم أخرجوا كل ما فيها من أشياء حتى أخربوها وجعلوها كوم تراب ، قلت من العجب والله يا أولاد شلبي مـا أعرف إن كنتم تثأرون لأستاذكم أم لأنفسكم بـل لا أعـرف إن كنتم تثـأرون حقـاً أم هي مجـرد رغبـة في البحث عن أشيــاء تقيم الأود ، ثم أنني انصرفت عنهم ومضيت فلحقت بركب الأمراء وهو يترجل تحت القلعة يتقدمهم الأمير رمضان بن الملك الناصر ، وكان في أستقبالهم « جمال الدين يـوسف » والي القاهرة سابقاً ، الذي تقدم من الأمير رمضان وانحنى على ركبتيه وقبلها . فرفسه رمضان برجله وسبه قائلاً : « أمشي يا حيوان . . اتنسى ونحن في الحراقة عند توجهنا إلى قوص وقد طلبنا مأكلاً من الجيزة فقلت خذوهم وروحوا إلى لعنة الله ما عندنا شيء !». حينئذ كان العامة قد وصلوا إلى حيث تقف وشاهدوا طرفاً مما حدث فانتهزوا الفرصة صائحين وهم يشيرون إلى جمال الدين يوسف: «هذا قوصوني بالله مكنا من نهبه . . فأشار رمضان بيده أن انهبوا بيته . .

وهنا تدافعت الجموع تدوس فوق بعضها دون رحمـة ، تجري كـأفراس الرهان المحقونة واندفعت أجري في أثرهم حتى وصلنا إلى ناحية جامع الظاهر بالحسينية . كان بيت جمال الدين قائماً في الجهة الغربية من ميدان الظاهر فيما بين الميدان وشارع الخليج المصري ـ بور سعيد الآن ـ وفيمـا نحن نخترق بـاب الفتـوح دهمنا رجـال بالسـلاح لا حصر لهم عـرفنـا أنهم أخـوة جمـال الـدين والاديشة ، فصرنا نردهم بالأجساد ويضربوننا بالسلاح حتى سقط منا العشرات وسقط منهم الأحاد وكلما سقط قتيل أو جريح استؤنفت الشراسة من جديـد أما بدافع الانتقام لو بقاعدة : « خليها خل ». ساعات طويلة والقتال دائر بين العامة

منا وبين أخوة جمال الدين والأديشة حتى فوجئنا بقوافل الجند تهبط علينا من كل فج وعرفنا أن ايدغمش هو الذي أرسلهم لنجدة جمال الدين . وأن هي إلا دقائق حتى نزل إلينا « نجم الدين » والي القاهرة بنفسه في رهط من الجند صاروا يطيحون فينا شمالاً ويميناً واختراقاً حتى سقط منا مئات وسقط منهم عشرات ، سقطوا من فرط الإعياء فحسب . فلما تكاثر عدد قتلانا صرنا نتبعثر في كل مكان متسللين أو جماعات فمن وقع في يد الجند أخذوه أسيراً لتقديمه للمحاكمة .

عدت جرياً إلى الخزانة قبل أن يتجرأ أحدهم ويقبض عليّ للتحري ، فلم أجد « خزعل » هناك ولم أعرف أين ذهب ، وقيل لي أنه ربما يكون مشتركاً في المفاوضات الدائرة الآن بين الأمراء الذين جمعهم ايدغمش في ميدان الرميلة أو ميدان صلاح الدين بالقلعة وقدم لهم نسخة اليمين المحضرة فإذا هي تتضمن الحلف للسلطان ثم للأمير قطلوبغا الفخري وإذا هم معرضون عن حلف اليمين لهذا السبب . فقد لا يجب أن يفوتني هذا المشهد وخرجت أنشد رؤيته فقابلني خزعل ضاحكاً وقال إن هذا المشهد كان منذ مدة وأنهم الآن في انتظار قدوم السلطان من الكرك . وكان لا يزال يضحك فقلت له علام الضحك يا خزعل يا أميري ؟ فقال أن الجميع ها هنا ـ يقصد الأمراء ـ داخوا الدوخات السبع في التراسل مع السلطان واسترضائه وهو يمكر بهم ويتدلل عليهم وأخيراً . . ثم همس في اذني : « وصل ثلاثة رجال على رأسهم أبو بكر البازدار ليبشروا بقدوم السلطان وبأنه يأتي ليلاً من باب القرافة وأنه أمر بأن يفتح له باب السر حتى يعبر منه ». فقلت لخزعل : « هل أنت متأكد من هذه المعلومات ؟» قال خزعل ضاحكاً : « ربما كنت الوحيد الذي يعرف أن ايدغمش يجلس الآن في هذا الباب بصحبة الطنبغا المارداني في انتظار السلطان ». . كانت ساعتي تشير إلى ليلة الخميس ثامن عشرين شهر رمضان من سنة اثنتين واربعين وسبعمائة . قلت لخزعل : « إذا كنت صادقاً فيما تقول فأنني يهمني أن أرى هذا المشهد ». قال : « تعال »، ثم جذبني ومضينا نحو باب القرافة ودفع خزعل كل من صادقه حتى وصلنا إلى باب السر المذكور من القلعة ، وكان ايدغمش يجلس مع الطنبغا المارداني فعلاً وفي توتر زائد عن الحد ، لكنه حين رأى

خزعل تحسس مقبض سيفه غير الموجود فعرفت أنها حـركة عصبيـة يخفى بها توتره . قال « أيدغمش » بلهجة الأرستقراطي الذي يتلاشى ولداً نذلاً فيخـاطبه بود زائد عن الحد : « عايز أيه دلوقت يا خزعل . . ثم أيه اللي عرفك الدخول من هنا وفي هذا الوقت بالذات ؟ . . هه . . ثم انتفت منادياً ـ تعالوا خذوا هذا الوغد من هنا . . لا تجعلوا الذباب الأزرق يعرف له طريق جره « وكان واضحاً أنه يتكلم بجدية شديدة جداً وضع فيها أنه كان يمثل تمثيلاً متقنـاً جداً . ولكن خزعل انضغط في نفسه بإرادته كأنه يمثل هو الآخر وقـال : « يا مـولاي أنا لـم أجيء إلى هنـا إلا بالشـديد القـوي ، ثم أنني قصـدت خيـراً لا شـراً »، قـال ايدغمش كأنه يرى خزعل لأول مرة : « ماذا وراءك ؟ »، وكان الإهتمام والخوف من المجهول واضحين على كل قسماته فيما هو يخـالسني النظر في تـوجس ، مال خزعل قليلاً على ايـدغمش وهمس في أذنه : « لا تنـزعج . . هي مهمـة كالتي أجيء لك بمثلها دائماً ، أو أبعث لك بمثلها دائمـاً ». صرخ ايـدغمش فيه بحقد شديد ثم أمر بالقبض علينا ، ففي الحال هبط علينا الأديش فأمسكونا وسلمونا للجند الذين عادوا فسلمونا للخشداشية الذين سحبونا إلى حجـرة نظيفـة وأمـرونا بـالارتماء فيهـا فارتمينـا وقد جعلنـا وثيـر الفـراش نحس بغـايـة التعب ، ولدهشتي كان « خزعل » لا يزال يضحك ، وأن هي إلا برهة وجيزة حتى أقبل ايدغمش واتجه من امامنا نحو حجرة أخرى ما أن فتح بابها حتى عرفنا أنها دورة المياه دخلها وأغلق على نفسه لبرهة ثم خرج ثم مر أمامنا عائداً ولكنه توقف برهة واستدار إلينا مشيراً إلى خزعل في غيظ ، فلما ذهب إليه خزعـل ماثـلاً قال لـه أيدغمش : « يا جلف يا جاهل . . ما الـذي فعلته . . كيف تتحـدث في أمور كهذه هكذا دون تحفظ . . هيه . . قل الآن . . مـاذا وراءك بالضبط ؟». قـال خزعل : « السلطان الناصر أحمد . . على وشك المجيء بعد برهـة وجيزة ». قال ايدغمش : « أعرف يا غبي . . وصلني ». قال خزعل : « ولكن لم يصلك أنه في الطريق بعد برهة وجيزة . . أنت جالس منذ ساعات طويلة ولا تدري شيئاً ولولا رجالي أنا ما تمكنت من نظر الأماكن البعيدة ولا جئت بالأخبار البعيدة ولا حققت شيئاً من الآمال البعيدة !». زغد ايدغمش في صدره بحركة سوقية ولولا

إدراكه بأنه سوف يحتاج إليه لثقب روحه وفطسها ». في هذه اللحظة تقدمت أنا وبكل تواضع قلت له : « يا مولاي لا تزعل من أميري خزعل . . فهو يحبكم ويتمنى لكم كل خير وإلا يرضيه إلا رضاكم ». نظر إليّ في دهشة وقال : « من هذا؟». قال خزعل : « هو هديتي لك » أعاد ايدغمش النظر فيّ : « أوه . . مملوك جديد أهلاً به على كل حال . . ما صفاته . . أقصد ما مميزاته ؟ . . أقصد هل هو متعب أم مريح ؟». . قال خزعل : « هو كل ما تتخيل . . ولد مصروف عليه تقله . . أهله علموه ودخلوه مدارس ودولته صرفت عليه الجلد والسقط والآخر سابتهم يتصرفوا في الحياة ذي ما هم عايزين . . أهو بقى . . اللي راح بلده بيسموها أمريكا . . واللي راح يغسل الأطباق مش عارف فين . . واللي واللي . . صاحبنا ده بقى ـ وأشار إليّ ـ سرح في الزمن المصري . . غاوي نكد بقى . . فوقع في ايدينا . . هنياً لك يا عم . . تأخذ من وراه فايده لما تشبع ». كل ذلك وايدغمش لا يكف عن النظر إلي كأنني أعجوبة وأخيراً زغد خزعل مرة أخرى وقال له : « انصرف . . دعه لي وانصرف في ستين كسحة ». فاندفع خزعل يدب في القلعة إلى أن تكفل خشداشي صغير أخرجه من باب القرافة .

أراد ايدغمش أن يجريني في تقديم القهوة فأمرني بذلك فتوجهت إلى المطبخ البعيد وصنعت فنجاناً على الطريقة التركية أتبعته بآخر ثم عدت إلى ايدغمش في جلسته في مدخل باب السر . وضعت القهوة أمامهما وانتظرت لبرهة وجيزة ولكن البرهة لم تنته إلا ودخل علينا رهط من الرجال يزيد عن العشرة ، فاندفعنا ناظرين متحسبين . قال الطبغا المارداني : « أنهم من أهل الكرك ». وقال ايدغمش : « ولا بد أن السلطان معهم أو من ورائهم » ثم أننا جميعاً وقفنا وأقبلنا على المقبلين نسلم عليه ، كان بينهم رجل قد تلثم وعليه ثياب مفرجة ، تأمله ايدغمش قليلاً ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى وسلم عليه سلاماً خاصاً للمرة الثانية بعد أن كان قد سلم عليهم كلهم ، لكن الرجل المثلم لم يهتم بأخذ إنما بكل صلافة وعجرفة أشار إلى رجاله قائلاً : « اتبعوني »، ثم دخل فدخلوا جميعاً وراءه ولكن ما أن دخل آخر رجال الملثم حتى أغلق الباب

خلفه فعاد ايدغمش والطنبغا الماردانى في كسوف بال يصفقان كفا على كف ، وقد إزداد حرجهما حينما لمحوا بعض الأمراء مقبلين وقد رأوا طرفاً من الحادث . جلس ايدغمش في مكانه فجلسوا كلهم جلسة غير معتن بها ثم انخرطوا جميعاً في تفكير عميق . ووجدت أنه ايثاراً للسلامة على أن اختفى فدخلت وسألت الخشداشية عن موضع نومي فدلوني عليه فنمت حتى الصباح لم أتقلب . وصحوت على يد تلكزني برفق فإذا بأحد الخشداشية يسألني عن سر صنعتي الحديثة المبهرة في طريقة تقديم القهوة للضيوف . ضحكت منه طبعاً لأنني حين قدمت القهوة لم أفعل أكثر من أنني قلدت أي جرسون في أي كشك في الديار المصرية في القرن الرابع عشر الهجري فما بالك لو قلدت جرسونات الشيراتون أو الهيلتون أو الميريديان أو ما شاكل ذلك من الفنادق العالمية ! فلما أصرت ملامح وجه الخشداشي على وصفي بالإبداع سخرت منه قائلاً له الحقيقة ، فاندهش غاية الدهش وقال : « عجيب أمركم والله . . لقد عاشرت ها هنا وها هنا أشد الناس وأعرقهم في العبودية فما رأيت مثلك في تقديم القهوة ». سخنت النار في اذني وصحت فيه : « اخرس يا قليل الأدب ». قال آسفاً) « أنا لم أشتمك هكذا . . أنا أبالغ في تفخيمك . . أن منطق الحياة عندنا أن تكون ما أنت كائن باتقان ، واتقانك واخلاصك بل وشرفك في العمل أن تمعن فيما أنت كائنه ، أن تكون عبداً بحي سيدا بحق مخاتلاً بحق رعديداً بحق سفاحاً بحق . . أن تتطور وأنت من نفس النوعية حينئذ تصبح سيداً في المجتمع بشكل ما ! ». الحق كان يلزمني وقت طويل لفهم هذه المقولة ، ولكنه لم يمهلني بل هزني قائلاً بحسم : « قم قم . . لقد أهداك ايدغمش إلى السلطان الناصر أحمد . . فانهض فوراً لتقدم له القهوة ». ولم أكن قد نمت ما يكفي لأن أصبح نشطاً ، فقد كنا في مبدأ النهار والشمس لم تشرق بعد ، لكنني نترت جسدي عن السرير وأوقفته وصرت أهزه وانشطه بحركات بهلوانية والخشداش يتابعني في بلاهة وخوف ، ثم أنني لحسته بالقلم على قفاه بسرعة فلما انتبه من صدمة الوجع وجدني اسير بجواره دون أن ارفع يدي مطلقاً فاختشى أن يتهمني ولكنه في ذعر شديد أسرع الخطى قائلاً : « العفاريت واردة مع

السلطان يـا للشؤم »، ثم اختفى ، في حين مضيت أنـا إلى حجـرة المـطبـخ وصنعت القهوة وانطلقت بها أطوح يدي بالصينية مثل جرسونات المقاهي البلدي وادندن بأغنية مجنون لأحمد عدوية : « مجنون مجنون مجنون سيبـو . . و . . نـ . . ي . . ي . . رحت لهـا البيت قالـوا مجنـون . . ع البـاب دقيت قـالـوا مجنون » . ثـم اصطدمت في الطريق بناس لا أعرف كنههم لعلهم أمراء أو خفراء أو حقراء كلهم من وارد القلعة وساكنيها واكتشفت أنني من الدرية بحيث لـم تفقد يدي توازنها ولـم تنكسر الفناجين ، فكان كـل من يراني يتـوقف ناظـراً إليّ في بهجـة حتى صرت فـرجة ، ولـولا انتـظار السلطان للقهـوة لامتعت جمهـوري بـالكثير ، لكنني طمـأنتهم بأنني سـأعود حـالاً ثم دلفت من الباب إلى مجلس السلطان ومضيت بخطوات عسكرية رياضية جنائـزية خنفشـارية والسلطان ومن معه من أهـل الكرك ينظرون إليّ باسمين ضاحكين ، فعز عليّ أن أحرمهم من المتعـة فحملت الصينية بعـد أن كنت وضعتها واستـدرت عائـداً إلى الباب ثـم استدرت ثانية عائداً إليهم بها مكرراً نفس المشهد فضجـوا كلهم بالضحـك ، فأصابتني متعة لا حد لها فحملت الصينية من جديد وكررت نفس المشهد وهم يتابعونني في بهجة عظيمة فضجوا بالضحك ولكن وقوفاً وتبـادلوا المصـافحات السريعة اللاسعة كأنها حوار منطوق ، فلم تسعني الدنيا من الفـرح وتمسرحت رغماً عني وحملت الصينية وكررت المشهد فصاروا يفعلون أشياء شديدة البذاءة يعبـرون بهـا عن انبسـاطهم أقلهـا بـذاءة أنهم صـاروا يتحككـون في بعضهم ويشخـرون ويخـرجـون ألسنتهم ومـا إلى ذلـك ، فـرأيت أن البســاط يتسـع لمداعباتي أنا الآخر فدخلت فيهم وأنا أحمل الصينية ما أزال ، وصرت أضربهم بمؤخرتي تارة وكتفي تارة أخرى وربما بقدمي أو بحزامي وأفعل حركات بهلوانية أشد بذاءة وقلة حياء وهم خوف سقوط القهوة والماء عليهم يتمايلون ويتراقصون ويتـراعشون كـأصبع من خلق الله ، وفي النهـاية وضعت الصينيـة وشرعت في الإنصراف حيث تذكرت أن عندي « نمرة » أخرى مع الجمهور الذي تركته في الردهة الخارجية ، إلا أن الرجل الملثم ، أقصد الذي كان مثلما بالأمس والذي لا يزال يرتدي ملابس العربان وهو السلطان شدني من طرف ثوبي قـائلاً بكـل

أربحية : « لا . . أنت مكانك هنا فتعال ـ وجذبني ـ أجلس ». فجلست وأنا أتحشر بينهم في ود وابادلهم التصافح السريع وأبدي أعجابي بالسلطان المرح اللطيف دون حرج . .

دخل رجل أقبل نحونا لحظة أن كان السلطان المرح يضحك لقطع ضحكته قائلاً : « ماذا وراءك يا أبا بكر ؟». ثم مال على هامساً : « هذا أبو بكر البازدار حاجبي الخاص ». قال البازدار دون أن يفعل أي حركة تدل على أنه حاجب سلطان بل كأنه مجرد صديق : « ذلك الرجل الذي طلبته اليوم . . جاء »، فشوح السلطان المرح بيده في قرف وضاع كل المرح من وجهه وهيأته فكأنه تلثم من جديد وقال : « يو . . و . . ه . . طلبته دون أن أطلبه . . أقصد طلبته وأنا لا أطلبه . . المهم . . أدخله ». قلت : « مين هوه ده يا بوحميد ؟» قال : « ذلك المدعو ايدغمش ». قلت : « أيدغمش ؟». . القائم بالسلطنة حتى تعود إليها؟ . . الذي حمى هذه الأريكة في غيبتك؟». لكزني بحركة ذات معنى فهمت منها أنه يعامل هؤلاء بالأسلوب اللائق . بعد برهة دخل ايدغمش فانحنى على الأرض وقبلها ، فطيب السلطان خاطره وقال له : « أنا ما كنت اتطلع إلى الملك وكنت قائماً بذلك المكان . . فلما سيرتم في طلبي ما امكنني إلا أن أحضر كما رسمتم ». فقام ايدغمش وقبل الأرض ثانياً ثم قال : « بعد إذن مولاي السلطان سوف أكتب عنه إلى الأمراء الشاميين أعرفهم بقدومه إلى مصر وأنه في انتظارهم ». فشوح السلطان بيده في فروغ بال فلم يوافق ولم يرفض . فنهض ايدغمش وقد اعتمد الموافقة . .

ما أن خرج ايدغمش حتى انفرجنا بالضحك وطلب السلطان بعض المأكل والمشرب وطلب مني أن أسليه قليلاً ريثما ينتهي من مهمته ، فصرت أقلد لهم عادل إمام وعبد المنعم مدبولي وأمين الهنيدي واغنى مثل نجاح سلام غناء يدخل على فريد الأطرش وشفيق جلال والكحلاوي كله ماشي ، ولم أكن انتهيت إلى هذه المهمة التي يقصدها السلطان ولكنني انتبهت فجأة فوجدت قد انتحى جانباً بأحد الكركيين القادمين معه، فتصنعت عدم المبالاة وبالغت في التقليد والضوضاء حتى مر وقت طويل جداً بحسب بالأيام أو بالساعات لست

أذكر ، ولكنني فوجئت ذات لحظة صباحية هادئة والسلطان في إحدى مهماته مع الكركيين بحاجبه يدخل ويزف إليه نبأ قدوم العيد ، فقال السلطان، وهو يشرب العرق : « عيد ماذا هذا ؟» قال البازدار : « عيد الفطر طبعاً ». قال السلطان : « كل عام وأنتم بخير . . أهلاً وسهلاً هذا العيد ولكننا مشغولون الآن ولسنا متفرغين له ». قال البازدار : « الناس في انتظارك في مسجد القلعة ». قال السلطان : « لم ؟». قال البازدار : « لكي تؤدي صلاة العيد ». قال السلطان : « لكي تؤدي صلاة العيد ». قال السلطان : « لا صلاة ولا عيد . . عيد ماذا يا رجل هل نحن فارغون . . إحنا فاضيين ؟ . . روح روح أجري ». . فخرج البازدار ولكننا سمعنا من بعيد لغطاً قادماً من الخارج ، فصفق السلطان فدخل البازدار ثانية فقال له : « ابعث لي بالطواشي عنبر السحرتي مقدم المماليك ونائب الطواشي الأمساعيك ». فخرج البازدار وبعد برهة دخل الشخصان المطلوبان وقبلا الأرض بين يدي السلطان فقال لهما : « يا مقدم المماليك وأنت يا نائبه . . اجلسا من الآن على باب القلعة وامنعا من يدخل عليّ ». قال مقدم المماليك : « والأمراء يا مولاي ». قال السلطان : « لا أمراء ولا زفت . . أنا مشغول ». قال مقدم المماليك : « ولكنهم لا بد أن يقدموا التهاني لكم بالعيد ». قال السلطان : « لست في حاجة إليها ». قال مقدم المماليك : « والسماط عادة الأباء والأجداد لا تنقطع ». قال السلطان وقد تزين : « كل أمير يعمل سماطه في داره ». قال مقدم المماليك : « السمع والطاعة » ، ثم انصرف مع نائبه . بعد برهة دخل الحاجب البازدار وأبلغ أن رجلاً يدعى الحاج علي يطلب المقابلة للأهمية . صرخ السلطان : « حاج علي من وأنا لا أريد مقابلة أحد ». قال البازدار : « إنه الحاج علي إخوان سلار ». قال : « لا أعرف أحد بهذا الاسم ». قال البازدار مبتسماً : « الحاج علي هو اسمه . . أما إخوان سلار هذه فهي لقبه وقد حرفته العامة في مصر فأصبح هو نفسه ينطقه كما تنطقه العامة . . الصنعة في الأصل اسمها : « خوان سلار ، وهي فارسية ومعناها مقدم الخوان »، قلت أنا : « سفرجي يعني ». فلم يرد عليّ . وقال السلطان : « حاج علي إخوان سلار هذا حين يأتي بطعامي عليك أن تتسلم

الخوان منه وتقدمه إليّ وعليه أن ينتظرني في الخارج حتى نعيد إليه المـاعون » .
فمضى البازدار ليبلغ هذا . ومضيت أنا أخترع العاباً مسلية تتيح للسلطان المرح
جوه أكثر جنوناً وسعادة .

الفصل السادس عشر

أفراح الغوغاء . . وأحلام الأمراء

استهواني جو المرح في حضرة السلطان أحمد بقدر ما استهواه فعلي المجنون ، فعلمت أن شرارة الجنون قد التحمت باختها وانطلقت تبحث عن وقود . كان السلطان لا يمل من المرح ولا يكف عنه لحظة واحدة ، وكنت لا أمل من التهريج ولا أكف عن الهذر ، وكلما أمعنت في التهريج والهذر حصلت على لقب العبقري ونظر إلى الجميع نظرة تقدير عامرة . ذات لحظة طلب السلطان طبيباً ، وكان يجلس بجواره شاب من أهل الكرك وبقية الكركيين قيام ، فدخل عليه الرئيس جمال الدين ابن المغربي رئيس الأطباء وطفق يستمع إلى شكاواه ويتحسس مواضع آلامه فلا يجد شيئاً يدل على المرض ، فنظر إليه وإلى الكركيين ووصف له ما يلائمه ، فضحك السلطان عالياً كما ضحك الطبيب ثم انصرف وبينما نحن نضحك من فطنة رئيس الأطباء ونعجب من تحرره الكبير في وصف الدواء إذا بلغط كبير جداً يرتفع في الأفق ثم يقترب ويتضخم . قمت ونظرت من الشباك فوجدت الأمير ايدغمش والحاج آل ملك والجاولي والطنبغا المارداني يستقبلون وفوداً تحت القلعة تكاد تسد الأفق ، عرفنا من بينهم الأمير سيف الدين قطلوبغا والأمير طشتمر الساقي حمص أخضر وجميع أمراء الشام وقضاتها والوزراء ونواب القلاع ، وكان ثمة من ينصب الخيم تحت القلعة ويستقر فيها . استدرت إلى الداخل وقلت للسلطان بجدية : « طبعاً سعادتك دلوقت حتاخد الدوا وتنام لك شوية». قال السلطان وقد نسي : « دواء ماذا ؟». قلت : « الذي وصفه لك رئيس الأطباء . . يجب أن تدوم عليه حتى يستريح

رأسك من الوجع . . قال السلطان : « إلى أين تريد أن تذهب ؟». قلت : « إلى تحت القلعة للفرجة على هؤلاء الضيوف ». قال : « أنزل ولا تغب أكثر من دقائق معدودة ». قلت : « سمعاً وطاعة » ثم نزلت .

رأيت المنطقة التي تحت القلعة وميدان الرميلة قد احتشدت بالخيم كأنهم جميعاً من الفرق الصوفية التي تزور الموالد ، فلما اخترقت بعضها وجدت أن كثيراً منها تشبه القصور المتنقلة من الداخل وقلت طبعاً هي جديرة بأمير كأيدغمش أو غيره من نواب الشام ، ورأيت جواً غير طبيعي ، قطلوبغا الفخري يتنقل من خيمة إلى خيمة وفي أثره عدد من الألاديش ، فمشيت وراءه كالمخبر السري أحاول معرفة ماذا يحدث ، ولو كان قطلوبغا الفخري هذا من رواد مقهى ريش أو أي تجمع ثقافي لاتهمني على الفور بأنني من مخابرات الحكومة . وكان ايدغمش يمشي في أثر الفخري حتى دخل معه خيمته والتوتر الشديد واضح عليه ، في اثرهما دخل حمص أخضر غاضباً ، ثم دخل الأمراء كلهم وأتخذوا مجلسهم في خيمة الفخري ، وقال حمص أخضر : « اسمع يا فخري . . فضك من الموضوع الذي في رأسك ولا تعرضنا لشيء سيء أرجوك ». وقال ايدغمش : « نحن ما صدقنا وصل السلطان فكيف نفعل معه حركة غدر ؟». وقال الفخري في غضب شديد : « قد استهان بنا وبكل المقدسات فكيف نسكت عليه !» وقال أحد الأمراء لم أعرف أسمه : « نحن في نظره ناس بلا قيمة أو مركز !» وقال الفخري : « كيف يأتي إلى هنا متنكراً في ملابس العربان ثم يتفرغ لمداعبة الكركيين ويختص بهم وفوق ذلك يقيم أبا بكر البازدار حاجباً له . . هذا شيء لا يجب أن يمر هكذا دون محاسبة . . إن كرامتنا كلنا كأمراء أصبحت مهددة بالأنهيار إن لم تكن قد أنهارت بالفعل ». وهنا شعرت أن ايدغمش قد أحمر وجهه وأصفر وارتعب ثم قال : « يعني ماذا تقصد يا فخري . . أراك تنكر على السلطان كل أفعاله ونحن معك ربط نكر عليه أشد منك ولكن قل لنا ما العمل ؟». قال الفخري : « توافقون على خلعه ورده إلى مكانه ». قال طشتمر حمص أخضر : « ماذا قلت يا فخري ؟ . . نخلع السلطان ونعيده إلى الكرك ؟ كيف . . والله لا يكون هذا أبداً أبداً . . تكلم يا

أيدغمش . . تكلموا يا أمراء ». قال ايدغمش : « لا أوافق الفخري ». وقال أحد الأمراء متحسباً : « ولا أنا أوافقه ». وقال أمير ثان : « ولا أنا »، ثم الثالث أصوات الأمراء متداعية مترددة : « ولا أنا . . هذا عيب . . هذا عار . . ليفعل السلطان ما يشاء . . كيف إذن يصير سلطاناً إن لم يفعل ما يشاء . . اخلعوا انتم هذه الأفكار من أدمغتكم ». وكان الفخري يتابعهم بغيظ وحنق شديدين فما أن صمتوا عن التعليقات حتى عاجله حمص أخضر قائلاً : « أرأيت يا فخري ؟ . . ها أنت ذا ترى أن كل الأمراء لا يوافقونك على أفكارك المتطرفة . . ومن ثم فقد أصبحت الآن صوتاً وحيداً . . ولكننا لن نسكت عليك إلا أن نفضت من ذهنك هذه الفكرة نهائياً فماذا قلت ؟». تفكر الفخري قليلاً ثم قال : خلاص . . أنتم أحرار . . لقد ظننت أنكم يمكن أن تثأروا لكرامتكم ولكنكم . . . ». هنا قاطعه حمص أخضر في عنف مما كشف لي عن قوة هذا الرجل : « كرامتنا لم يحدث لها شيء يا فخري . . فحذار أن تفكر هكذا مرة أخرى ». فصمت الفخري تماماً . وهنا ارتفع بعض اللغط خارج الخيمة، فانتبهوا جميعاً ثم خرج ايدغمش وغاب قليلاً ونحن نتبادل النظر في قلق . وأشار أحد الأمراء نحوي قائلاً : « من هذا ؟». فقلت على الفور : « أنا من مماليك السلطان ». قال الفخري بلهجة ذات معنى : « كركي أنت ؟». قلت له بكل جرأة : « اخسأ ». . قال الفخري مستنكراً : « أخسأ ؟!». . ما معنى « أخسأ ». قلت له « يعني أخص عليك يا فخري ». وقال حمص أخضر : « يعني أنه يعاتبك ولكن بشدة على اتهامك له بأنه كركي ». قال الفخري منبسطاً : « أنت إذن صديق لنا أهلاً وسهلاً بك ». وهنا دخل ايدغمش قائلاً : « لقد حضر الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد وقضاة مصر الأربعة وأنضم إليهم قضاة دمشق الأربعة . . فهيا بنا ». فنهضوا جميعاً وعدلوا ثيابهم وتهندموا جيداً ثم تقدمهم ايدغمش يليه حمص أخضر فبقية الأمراء حتى دخلنا القلعة وصعدنا إلى السلطان حيث يجلس مع الكركيين يتناول الدواء الذي وصفه له رئيس الأطباء . وقف ايدغمش برهة في مكانه وهو في غاية الحرج والكسوف يعطي للسلطان فرصة ارتداء ثيابه على عجل ، وأغلب ظني أن السلطان كان قد نسي أن أمراً

هاماً سيحدث الآن أو أنه سيتم مبايعته هذه اللحظة التي بدونها لا يكون سلطاناً ولا حتى أي شيء سحب السلطان عباءة حريرية طرحها على جسده العاري وأحكم اغلاقها وساعده أحد الكركيين على لبس خفه الذي كانت أحدى فرديته غائبة ، وقلت لنفسي : ألم يكن من الواجب أن ينتقل هو إلى مجلس السلطنة بدلاً من استدعائهم في مجلسه الخاص على هذا الوضع ؟ ألم يكن يستطيع شد ستارة ؟ ولكنني سخرت من نفسي ودلفت وراء آخر الأمراء . . فلما دخلت فوجئت بأن الغرفة التي كنت أرى فيها السلطان عارياً ليست هي الغرفة التي دخلناها وأن أحداً من الأمراء تبعاً لذلك لم ير شيئاً مما رأيته أنا ، وإذا بالحجرتين متصلتان بوصلة سحرية أسدلت على السلطان دون أن يحس أحد فإذا بالأمراء وايدغمش وأنا كلنا في غرفة أخرى هي على الأرجح مجلس السلطنة ، فعدت أسخر من نفسي قائلاً أن مجلس السلطنة يتجاور مع مجلس اللهو البذيء ولا يفصلها سوى ستارة سحرية فيا لها من أعاجيب ، وأن هي إلا برهة وجيزة وحدثت موجة من الظلال كثيفة تحركت خلالها أشياء وأجساد وأصوات ثم صمت كل شيء فجأة فإذا بالسلطان متربع فوق الأريكة في المواجهة كأنه هكذا منذ سنوات طويلة . تقدم الخليفة الحاكم بأمر الله ـ وهو على فكرة غير الحاكم بأمر الله المشهور ـ وبايع السلطان بالسلطنة . فما أن انتهى حتى قام الأمراء والقضاة فقبلوا الأرض بين يدي السلطان على العادة . . ثم قام السلطان على قدميه فتقدم الأمراء وباسوا يده واحداً بعد واحد على قدر مراتبهم . . ثم جاء الخليفة أيضاً . . ومن ورائه قضاة القضاة ، قاضي القضاة الأول، قاضي القضاة الثاني، قاضي القضاة الثالث. . ثم حدثت موجة صمت في انتظار تشريف قاضي القضاة الرابع ، ولكنه لم يتقدم بل لم يظهر في المجلس على الإطلاق ، اتضح أن قاضي القضاة « حسام الدين الغوري » فأين هو ؟ ربما لم يحضر من منزله قال القضاة وقضاة القضاة جميعاً وفي نفس واحد أنهم رأوه اليوم بينهم وأنه طلع معهم للأجتماع في جامع القلعة (بلغت وقفة السلطان وزحف الحرج على كل الوجوه بنسب متفاوتة وخشي الجميع وعلى رأسهم السلطان أن يكون تخلف قاضي القضاة حسام الدين الغوري يعني موقفاً

مضـاداً من السلطان . نهض ايـدغمش بنفسـه فكنت أسـرع منـه في الخـروج والجري إلى جامع القلعة ، نحن المصريين وخاصـة أبناء شلبي نحب الفـرجة حباً يقترب من الجنون ومع ذلك ـ يقولون ـ لا ينشأ عندنا مـا يسمى بالمسـرح وهم ربما لا يعرفون أن هذا راجع إلى أن حياتنـا نفسها مسـرح كبير يحب أي عبقرية تلفيقية ، تكاد عرباتنا تقف في الطريق تماماً وينزل ركابها للفرجـة على مصيبة حدثت لعربة سابقة في الطريق تهشمت فيها العربة بركابها . .

كان جامع القلعة على مهابته قد صار كعش الزنابير يشفى بالغوغاء ولكن في ثياب تنتمي إلى القلعة . زعيق وصراخ وعويل وصياح ودوشة كبيرة ، خناقة مصرية أصيلة ، وكـان ابن تغري بـردى يقف بباب المسجـد يحكي ما حـدث ويستمع إليه رهط من أبنـاء عمومتي فيهم نجيب محفـوظ وحسين فوزي وعبـد الرحمن الشرقاوي . . وحسن إبراهيم حسني وسعاد ماهر وستنانلي ليبول ـ على فكرة هو آخـر ابن عمنا من بني شلبي برضة بس على خواجاتي شـوية ـ المهم أنضمت إليهم استمع إلى ما حدث وأراه رؤية العين : كان القضاة مجتمعين في الجـامع حتى يؤذن لهم على العـادة ، وكان من بينهم قـاضي القضاة « حسـام الدين الغوري » الذي اندمج في التسبيح والتعبد وإذ هو كذلك حتى زحف نحو بـاب الجامـع ذلك المـدعو « بـالحـاج علي إخـوان سـلار » ـ أي الحـاج علي السفرجي ـ وصار يتابع قاضي القضاة لبرهة ثم اختفى وعاد ثانية ومعه واحد من مساعديه في المطبخ صار يثير له نحو قاضي القضـاة ويقول : « هـو ذا . . هو ذا »، فقال مساعده : « ماله ؟». قال السفرجي : « هو ده أللي جاب ذاغي . . وكفر سيئاتي !». قال مساعده : « أنه قاضي القضاة حسام الدين الغوري وأنت سفرجي السلطان . . فما بالك به أو ماله بك ؟!». قال السفرجي : « أعرف أنه زفت الطين . . ولذا فحقدي عليه شديد !». قال مساعده : « هل أضر بك في شيء ؟». قال السفرجي : « تحاكمت عنده أنا وزوجتي منذ مـدة . . فجاء في صف الملعونة بنت الملعونة . . وأهانني ». قال مسـاعده : « هـا . . والآن ما دورنا نحن ؟». قال السفرجي : « هذه فرصتي . . سوف أربيه وانتقم منه فهل تكون معي ؟». قال مساعده : « طبعاً . . أنا معك ظالماً أو مظلوماً !». ثم أنهما

اختفيا برهة طويلة كان قاضي القضاة خلالها قد تأهب للنهوض ليلحق بزملائه الذين طلعوا بالفعل للقاء السلطان . . فما أن وضع قدمه على عتبة الجامع خارجاً حتى أدركه مساعد السفرجي ومعه جمع هائل من صبيان المطبخ والأوباش يحملون أسلحة قوامها الشوك والملاعق والسكاكين وغطيان الحلل والمغارف الكبيرة والكسرولات بالإضافة إلى العصي والنبابيت. . هجموا عليه هجمة شرسة لم ينجه منها إلاَّ كونه كان يغيب في الأحضان التي تهاجمه فيصعب تناوله بحرية ، لكنهم أحرقوا عمامته في حلقه وقطعوا ثيابه وصاروا يضربونه بالنعال ضرباً مبرحاً وهم يصيحون : « يا قوصوني ! يا كافر يافاسق ! .

وكان ابن تغري بردي قد انتهى من حكاية ما حدث حين انفرجت ضحكة نجيب محفوظ كأنها القنبلة المسيلة للبهجة والوهج . فيما راح عبد الرحمن الشرقاوي يمصمص بشفتيه ويصفق كفاً على كف كفلاح حكيم لم يفقد القدرة بعد على الاحتفاظ بعقله . أما حسين فوزي فقد أخذ يخالس النظر ويقفز كالفراشة الخبيثة وينادي الولد زعبله من بين الأوباش ويهمس في أذنه همسة تنتهي بقرصة حارقة ، وحين ارتجت القلعة لم أعرف أن كان يفعل ما حدث أم من آثار ضحكة نجيب محفوظ الداوية في أنحاء القاهرة ، وكان صوت قاضي القضاة حسام الدين الغوري لا يستغيث في أيديهم صائحاً: «يا مسلمين. . كيف يجري هذا على قاض من قضاة المسلمين ؟!». وإذا بعلم دار يهبط علينا في صحبة من المماليك نزلوا ضرباً في الأوباش والسفرجية حتى نفذوا من بينهم وخلصوا قاضي القضاة من أيديهم وهو أقرب إلى خرقة بالية ، وكان ايدغمش قد أرسل مجموعة من الأوجاقية طلبوا قاضي القضاة وحملوه في محفة عظيمة إلى منزله ، فيما نشط المماليك في جر الأوباش والقبض على جماعة منهم سلموهم إلى ايدغمش الذي أمر بضربهم أمامنا وأمام الجميع حتى تمنينا لهم الموت ، فلما أسأمني تعذيب الأوباش على فعلهم خرجت اتمشى قليلاً بحثاً عن هواء غير ملوث بالدم ، لكن جميع الأوباش والعامة خارج القلعة كان لا يزال يتكاثر كأنه نهر النيل في خلافته ، فدفعني إلى الموج في مساره فإذا بنا عند بيت قاضي القضاة حسام الدين الغوري في الصالحية ، وكان الأوجاقية قد وصلوا به

لتوهم ، فوجدوا أن العامة والأوباش قد سطوا على البيت فجردوه من كل محتوياته وخلعوا أبوابه وشبابيكه لكنهم ويا للعجب « طرمخوا » ـ أي تغافلوا ـ عن أهل المنزل من سيده وأولاده فتركوهم يهربون إلى دور الجيران بل أن بعض العامة المهاجمين تطوع بنقلهم ومساعدتهم على النجاة من الغوغاء ثم عاد ليشارك في السلب والتخريب ! . ومن المؤكد أن ايدغمش كان يدرك أن شيئاً كهذا سيحدث فأرسل في أعقاب الأوجانية جمعاً من الجند والبطالين تمكنوا من كف العامة والأوباش عن فعلهم . .

انتهى الأوجاقية من مهمتهم وأطمأنوا على وصول الطبيب وتركوا بعض الجند في حراسته ثم اتجهوا نحو المركبة المنتظرة ، عرفتهم بنفسي فسلموا على ودعوني للركوب معهم ، فلما نزلوا أمروا السائق بتوصيلي إلى القلعة فكان . فكرت في استغلال السائق وقد ظهرت له أهميتي أن يوصلني إلى الخزانة لمعرفة أخبارها على الأقل ، ولكنني خفت أن يستبقيني خزعل ويحرمني من الرفاهية التي آلت إلي أخيراً بفضل قدرتي العظيمة على التبريج والمهارشة ، فأمرت السائق بالتوقف ثم بحثت في جيبي عن نقود انفحها له فما وجدت سوى أشياء تشبه جراب الحاوي ، وقلت لنفسي أن جراب الشريد لا يحوى إلا حصيلته من التشريد وهي حصيلة لا تصلح للبقششة. صعدت إلى القلعة واقتحمت جناح السلطان في جرأة وتبجح والكل ينظر لي في حسد . دفعت الباب فأنفتح ، فتكررت في الحال أنني لم أتجهز بالدخلة المناسبة فتوقفت برهة أفكر ثم دفعت الباب بظهري ودخلت بظهري مقلداً صوت القطار ، ثم درت دورة حول نفسي مطرقعاً بأصابعي في مرح وفي نهاية الدورة هبطت جالساً على أحد الكراسي دون أن أراه ، ولم يكن ثمة كرسي فنزلت بجسدي على الأرض متكوراً وهممت صائحاً اتحسس رأسي وأصيح من الألم ، وإذا بالحجرة خالية تماماً ، فصرت أنظر في الزوايا لعلهم اختبؤوا فيها نكاية في لكنني لم أجد أحداً . فخرجت منكسراً إلى الردهة وسألت واحداً ممن قابلتهم وأنا داخل أين السلطان ؟ فقال أن السلطان في موكب . . قلت له : « فلماذا لم تقل لي بابجم ؟». قال : « ولماذا أقول لك ». ثم انزوى بعيداً وانطلقت أجري حتى

لحقت بالموكب تحت القلعة ، وكانت ساعتي تشير إلى يوم الخميس ثالث عشر من شوال من السنة المذكورة اثنتين وأربعين وسبعمائة . أدركت الموكب بعد أن بدأ وعرفت أن العربة جاءت بي من طريق آخر ، كان السلطان واقفاً في صحبة فلما اقتربت منه وجدته جالساً وبقية الأمراء والقضاة وقضاة القضاة والخليفة والأوجاقية والخشداشية وجمع من الالاديش والمماليك في موكب آخر . . ولحظة أن دخلت كان السلطان قد خلع على سائر الأمراء قاطبة ، وشاهدته وهو ينعم على الأمير طشتمر الساقي حمص أخضر بعشرة آلاف دينار وعلى الأمير قطلوبغا الفخري بما حضر معه من البلاد الشامية وهو أربعة آلاف دينار ومائة الف درهم فضة . . ثم أن السلطان طلب الوزير نجم الدين ورسم له أن يكون يوسف البازدار ورفيقه مقدمي البازدارية ومقدمي الدولة . وكان هذا هو الخبر الوحيد الذي لم أجد له استحساناً على الوجوه أبداً ، فعرفت أن السلطان قد طوق الدولة باثنين من أحط الرجال على الإطلاق . وقلت لنفسي أن القرى الكبرى في حاجة دائمة إلى أحط الرجال لحمايتها في أحط المواقف والأفاعيل ، وكنت أتصور أن السلطان سيمتعض من الأزورار الذي حدث بفعل الخبر الأخير ولكنه لم يقم لأحد وزناً ، بل وضع ذراعه في ذراعي ودفعني فمضينا ومن خلفنا الحاشية ، ورغم هذا الشرف الكبير الذي أنعم به السلطان عليّ فإنني قد أحسست بلزوجة ملسة فدهمني شعور بالتقزز فدبرت للانفصال من ذراعه في لياقة ورقة ثم سبقته نحو المجلس ورأيته يتوقف في احتجاج ويشوح للحاشية بعنف وجلافة أن غوروا من وجهي فارتدت الحاشية عائدة إلى الوراء حتى اختفت .

استقبلنا الكركيون أنصاف عراة ، وكانت أجسادهم النحيلة المخنثة تثير في أعماقي شعوراً بالقرف لا حدود له ، ولم أكن أعرف هل هم السبب في أفساد شخصية السلطان أم أن السلطان هو الذي افسدهم ، لكنني كنت أعرف وأتأكد أن كلاهما أشنع من الآخر في الفسق وأقوى فكانهم أكفاء وانداد في الجنون . ما أن جلس السلطان على الحشية المبطنة بريش النعام حتى جيء له بالكؤوس والأطباق الفرعية ، وجيء له بالآلات الموسيقية . . وأتضح أن الكركيين لا يتفنون التفنين فحسب بل يتقنون العزف على كل الآلات الموسيقية

الشائعة كما يتقنون كل شيء ، وليس من المؤكد أن كل من انتسب إلى مدينة الكرك هكذا فلربما كان بين هذه المدينة رجال ورجال ، ولكن المؤكد أن هذه الشرذمة فحسب هي من تربية البلاط الخاص وتسويته . لم يكد السلطان يبدأ المجلس وتنفرد ملامحه وتنبسط حتى البازدار الحاجب وقال أن طشتمر الساقي حمص أخضر جاء حسب الموعد . فبدا على السلطان أنه لم يكن يذكر هذا الموعد ، وفكر في النهوض لملاقاته في الغرفة الأخرى ، ولكنه نظر إلى نفسه فرآها خلعت معظم الثياب، وشوح له الساقي الكركي تشويحة معناها « قولوا للضيف ده ما يقرفناش ». فهبط السلطان ثانية في مجلسه وقرر عدم الإنتقال ، لكنه قال للبازدار : « أدخله »، فخرج البازدار وبعد برهة دخل حمص أخضر ، فراقبته وهو يقترب وأحسست في نظرته ترحيباً مزيفاً بما يحدث ، ترحيباً يخفي بداخله حقداً مريراً وغصة تريد أن تنطلق لتدمره وكان يبدو على السلطان أنه يعرفه حق المعرفة فلم يمن حتى بالنظر إليه ، فلما صار حمص اخضر في مواجهته تماماً انحنى وقبل الأرض بين يديه ، ثم باس يد السلطان وقدمه ، فأمره السلطان أن يبوس قدمه فقال : « حدث يا مولاي : فقال السلطان : « لقد أخطأت وقبلت قدم هذا الكركي اللطيف . . إن قدمه دخلت بين اقدامي فجأة »، فقال الكركي اللطيف : « تقول أخطأ يا مولاي . . اخص عليك » ولكزه في كتفه ، فأهتز السلطان وتمايل ضاحكاً وقال : « يكفي أنك حصلت على قبلة سلطانية يا ولد »، ولدهشتي أو لعدم دهشتي كان حمص أخضر يجامل الكركي ضاحكاً ، فقال السلطان : « وإكراماً لحمص أخضر على موقفه منك فقد خلعت عليه باستقراره في نيابة السلطنة بالديار المصرية . . فقم يا حمص يا أخضر وتوجه الآن وباشر بالنيابة ». فأنهال حمص أخضر على يدي السلطان وقدميه لثماً وتقبيلاً وشكراً ثم نهض ومشى خارجاً تكاد خطواته تقول : « يا أرض اشتدي ما فوقك قدي ». وكانت ساعتي تشير إلى يوم السبت خامس عشر من شوال . وقام الكركي اللطيف وتحزم وانبرى الألاتية عزفاً وشخلعة وانغاماً لا حد لعذوبتها ، تحار أن كانت تركية أم فارسية أن أندلسية أم صحراوية أم نهرية ، أغلب الظن أنها مزيج من كل هذه ، حتى ليعجز الوقور الصميم عن الاحتفاظ

بوقاره معها ، فصرنا نصفق للكركي اللطيف ونشاركه في مجلسنا بهز الأرداف والمناكب والحواجب والرؤوس والصدور ، كانت برهة طويلة فقدت فيها دماغي كله ، وحين تعب الكركي اللطيف وانهد جالساً استؤنفت الشرب فنظرت في ساعتي فوجدها تشير إلى يوم الإثنين سابع عشر . وهنا اعتدل السلطان في جلسته وأزاح عن وركه كركي آخر كان يتوسدها ، وصفق قائلاً : « لنعمل شيئاً الآن في سبيل الله » . . وهنا دخل البازدار الحاجب ، فاستجلسه السلطان وقال في شعور قوي بالتشفي : « طبعاً تعرف ذلك الملعون عبد المؤمن عبد الوهاب السلامي ». قال البازدار : « طبعاً . . وإلى قوص اللعين . . هو في السجن » . قال : « أتعرفه بأنه ، فقط ، وإلى قوص ؟!». قال البازدار : « المجرم اللعين . . قاتل مولاي السلطان شقيقكم حين نفي إلى قوص ». قال السلطان : « أعجبتني . . نريد الآن أن نخلص ضميرنا أمام الله ونفعل فيه فعلاً يستحقه عن جدارة ». قال البازدار : « ما تأمرون به يكون ». قال السلطان : « أبحث عن أحقر نجار في القلعة . . وقل له يحضر لنا مسامير جافية شنيعة غليظة ، وإن لم يجد سوى المسامير الملساء أجعله يحفر فيها رؤوساً مدببة . . أفهمت ؟». قال البازدار : « نعم يا مولاي »، ثم نهض ومشى ، ونهض السلطان في أثره وقال أنه سيخلد الآن إلى نوم قليل يستعيد به لياقته في المساء ، ثم وضع يده على كتف الكركي اللطيف فإذا بيد كركي آخر تدفع الكركي اللطيف من تحت يد السلطان وإذا بكركي آخر يقف مكانه ، فلما نظر السلطان في وجهه بإندهاش متلذذاً أطال الكركي النظر في عيني السلطان بقوة فأبتسم السلطان في امتثال وهز رأسه بالموافقة فأنطلق الكركي يجري نحو حجرة النوم وهو يأتي بحركات كيدية لبقية الكركيين . .

رميت الكركيين بنظرة اشمئزاز لم يعبؤوا بها وخرجت. نزلت من القلعة إلى الميدان إلى الشوارع فاقتاداتني قدمي إلى البيمارستان المنصوري ، وأغلب الظن أن تياراً من الجمهور كان يتدفق نحو البيمارستان في صمت مشحون فدفعني معه . رأيت ما لا يمكن أن يحتمل الإنسان رؤيته مطلقاً ، فكيف هؤلاء يرونه كل يوم كأنه حادث عادي أليف ، والرجل التعس عبد المؤمن بن عبد

الوهاب السلامي وإلى قوص سابقاً يحضره مخفوراً بـالجند مـربوط الـذراعين خلف ظهره ، كان الإطار الخشبي الكبير الـذي يحوي صليبـاً بداخله قـد أعد وارتكن على البـاب ، وجيء بعبد المؤمن بثيـاب السجن فسلم للنجـار الـذي أمسكه من كتفيه كلوح من الخشب وقاسه على الإطار ثم دفعه جانباً فتلقفه الجند ففك النجار الإطار الخشبي ووسعه قليلاً ووضع تخشينة هنا وحفر حفرة هناك ثم جـذب عبد المؤمن وأمسكـه ووضعه على الإطـار فجاء محكمـاً ، فطلب فـك ذراعيه ففكت ، وتركت كل يد في يـد جندي على رفـع الذراع ووضعهـا على القائم الخشبي فدق عليها النجار حتى غطست في محفرها وعبد المؤمن يصرخ من أعماق أعماقه ويتبول ويتبرز على نفسه فيكون جزاؤه بصقة من هنا أو صفعة من هناك ، ثم سحب النجار مسمار يحتاج إلى عتلة تدق فوقه ، غزره في كف عبد المؤمن بضربة واحدة ثم فعل هكذا بالكف الأخرى ، ثم غرز مسماراً في منتصف الذراع وآخر في المقابل ، ثم هبط وغرز مسماراً في مشط القدم ، وآخر في المقابلة ثم أرتفع وغرز مسماراً في كل من الفخذين والحقوين ، ثم اعتدل واقفاً وبدأ الدق على المسامير لتقيبيها وكـان الجسد قـد تحول إلى قـالب من اللحم يصـرخ بأعلى صـوت طالبـاً ذرة واحدة من الـرأفـة ولكنـه كـان يـطلب المستحيل ، وكنت أعجب كيف يمكن أن تبقى في هذا الجسد ـ بعد كل هذا ـ روح تستطيع فعل شيء ! . فجأة جيء بالجمل الذي أناخ أمام الجسد المسمر فتقدم الجند وحملوه وربطوه فوق سنم الجمل . وتلقف الجمل الأمر بالنهوض فنهض وشرع يسير وخلفـه موكب هـائل من التعسـاء ، وصممت على أن أظل بالموكب حتى النهاية فإذا به يستأنف السيرا عوداً على بدء لمدة ستة أيام كاملة والـروح لم تفارق الجسـد بعد ، بـل كان بالأمر ـ جسـد عبـد المؤمن ـ يسقط الكلمات عبر القوائم الخشبية على الأرض مفادها اعترافه بكل جرائمه ومن بينها أنه وثب على النشو ناظر الخاص وضربه بالسيف ولما سقطت عمـامته عن رأسـه ظنها رأسه ! وأنه قتل الملك المنصور أبا بكـر بن الناصـر محمد بقـوص بأمـر قوصون . وفي نهاية اليوم السادس القى بالقائم الخشبي على قنطرة السد فظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنني فوجئت بأن هناك أمراً بأعدامه وقـد نفذوه بالعمل فوق القنطرة وتركوه وانصرفوا فهجمت عليه الكلاب وقد أصابها السعار .

الفصل السابع عشر

فماذا يفعل النهر في القلوب اليابسة

كنت قرفان إلى حد لم أشعر به من قبل أبداً ، ومنظر الكلاب المسعورة وهي تنهش في جثة عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلامي وإلى قوص لا يريد أن يفارق خيالي . في الواقع كنت أندهش غاية الدهشة من كلابنا فهي كما أعرفها طيبة جداً ومتسامحة وسرعان ما تألف الغريب وتذب عنه العدوان وتسهر في حراسته حتى وأن حياها يضربها ببوز حذائه في بوزها ، فإذا بها تخفي بداخلها كل هذا القدر من الشراسة ، وإذا بي دون تفلسف أحس كأنها هي مزيج من مزاجين في الديار المصرية : الشراسة من الأمراء والطيبة من الدهماء والغوغاء ، ثم قلت لنفسي أن الأمراء يفعلون هكذا ببعضهم البعض حتى وهم أحباء ، ثم أنني بصقت في الشارع بصوت عال وبمنظر لا يليق بمملوك سلطاني محترم . وكان الطريق قد وصل بي إلى حي بين القصرين ورأيت نفسي أمام قصر بشتك الناصري الذي جاءت الأخبار ذات يوم بأنه قتل بثغر الإسكندرية فوقفت أتأمل القصر صائحاً : ترى أي مصير ينتظرك يا قصر بشتك ؟. فصاح شخص بجواري وهو يزغدني : «اسمه بشتاك يراجل . . قصر بشتاك». فنظرت فيمن لكزني فإذا بي في قلب لحظة من القرن الرابع عشر الهجري استمرت لبرهة سريعة رأيت خلالها الممثل إبراهيم الشامي يسرع الخطى في اتجاه بيته في الخرنفش وفريقاً من الزملاء يدلفون إلى محل الكوارع الشهير هناك، ثم سرعان ما اختفت هذه اللحظة السريعة قبل أن أتمكن من اصطيادها والصعود عليها إلى الزمن الذي ولدت وعشت فيه . ما أن تقدمت خطوة أو بعض

خطوة إلا وفوجئت بخزعل أمامي خارجاً من الخزانة التي كانت في برهة القرن الرابع عشر جامع الحسين . وقفت مسمراً في مكاني لأنني لم أكن اسعى للخزانة ولا للتشرف برؤية أميرها خزعل بعد أن ارتقى مستواي وأصبحت مملوكاً سلطانياً يشار إليه بالبنان . وكانت الأحزان تظلل قصر بشتك ـ أو بشتاك ـ الناصري بجلال مهيب كان وكنا هاماً جداً من أركان الكون قد انهار وسقط، وزوجته الجميلة بنت السلطان محمد بن قلاوون وشقيقة السلطان المرح أحمد تطل من أعلى شرفة فيه وقد أضاء وجهها وسط طوق السواد ، والدماء التركية تصبغ وجهها باللون البمبي الفاتح ولا تطغى على ملامحها التترية التي ورثتها عن أمها بنت ملك التتار « أزبك خان »، شدني الأشفاق الشديد عليها وهي تطل بنظرة كبيرة تحاول رؤية عرشها المنهار ، لقد قتل زوجها « بشتك » بثغر الإسكندرية خلال سجنه ، سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصر صاحب اقطاع يعمل بمائتي الف دينار في كل سنة ، والذي أنعم عليه أستاذه الملك الناصر محمد في يوم واحد بألف ألف درهم ، وكان راتبه لسماطه في كل يوم خمسين رأساً من الغنم وفرساً لا بد من ذلك ، وكان كثير التيه فيما أخبرني الصديق ابن تغري بردى يوم أن عرفني به ، لا يحدث مباشريه إلا بترجمان له جامع عند قنطرة درب الجماميز وحمام في سويقة العزي ومئذنة جامعه في مدخل درب الجماميز لا تزال حتى القرن الرابع عشر الهجري أعلى مآذن القاهرة وأفخمها « الطريف أن هذا الجامع معروف لدى سكان القرن الرابع عشر الهجري بإسم جامع مصطفى باشا فاضل لمجرد أن والدته الأميرة الفت هانم قادن أمرت بتجديده حيث كان مجاوراً لسراي مصطفى باشا الذي آب إلى مدرسة تسمى الخديويه » ولعل المئذنة أخذت منه الكثير فقد كان يوم رأيته أهيف القامة حلو الوجه وكان السلطان لشدة قربه منه يسميه في غيبته بالأمير فحسب ، حتى أن أقطاعه كان سبع عشرة أمرة طبلخاناه أكبر من اقطاع قوصون ، رغم أن قوصون هو الآخر مات مقتولاً في نفس الدفعة إلا أن الحزن على بشتك له جلال خاص ، هكذا قال وجه زوجته بنت السلطان وهي تتوارى من جديد خلف فتحة المشربية . ثم ما لبثت درفة الفتحة أن زحفت بدفعة غير مرئية وغير غاضبة

فأغلقت فتحة المشربية وفتحت في دماغي ستاراً على المستقبل فرأيت جامع الحسين من جديد ولكن على مبعدة ورأيت شارع الأزهر والأزهرِ والحارة المجاورة له وفريقاً من العامة يتقافزون ويلوحون بالمطاوي ويمزعون وجوه بعضهم البعض ويغرزونها في القلوب والصدور والبطون والظهور ، وعرفت أنها مجزرة شبه يومية تحدث ها هنا بين عديد من الفئات لا تعرف حقيقة أي منها على وجه اليقين ، فالفكهانية أو القهوجية أو السمكرية أو الحلاقين أو الصياع أو الهاربين من أحكام كل أولئك لا ينبغي أن نصدق أنتماء أي منهم لأي من هذه الفئات فلا بد أن يكون له أخرى ، وجاءت شرطة يسمونها البوليس فتقافزت هي الأخرى هنا وهناك وناورت وغابت في الداخل قليلاً ثم خرجت ممسكة ببعض السابلة قيل إنهم كانوا يشترون المخدرات، وفيما كانوا يسيرون بالمقبوض عليهم في اتجاه عربتهم الهوندا كان تاجر المخدرات يقف أمام طابور المدمنين يبيعهم سم الكلام قبل أن يبيعهم سم الكيف ، فصفقت كفاً على كف وقلت يا للعجب ، وإذا بلكزة تذيقني الألم وتردني إلى الزمن المسبوق ، نظرت متأوهاً فرأيت « خزعل » يسير بجواري ويستعد للكزي مرة أخرى فيما نتوجه نحو حي فاطمة النبوية ، قلت بلطف رغم الألم : « يا أميري خزعل أنت تعرف أنني لا أحتمل مزاحك الثقيل هذا ، ثم صرفت اهتمامه بسرعة قائلاً : «أرأيت ما كان يشغلني منذ برهة ؟ . . لقد صعد بي الحنين إلى عصري فرأيت مشهداً من زمنه ». قال خزعل مشوحاً : « لست في حاجة لرؤية زمنك فيكفيني زمني وهو يحتاج إلى عشرة أعمار لكي تستوعب ـ بالكاد ـ كيفية التعامل معه . . لكن قل لي أنت كيف تسير بجواري هكذا وتكلمني قائلاً مزاحك الثقيل وما شابه ذلك من سلوك ينقصه الأدب والاحتشام !». قلت ضاحكاً من خوف ومن شر : « العفو يا أميري فما أنا بمستطيع ذلك . . أنت أميري وتاج رأسي وإن كنت تطاولت عليك فأعف عني فما قصدت ». قال خزعل بلهجة ذات معنى : « أم تظن نفسك قد صرت مملوكاً سلطانياً يحق له التعالي علي . . إن كنت تظن ذلك أنت مخبول وضيق الأفق لسببين ، الأول أني أنا الذي أهديتك للسلطان ، والثاني أن سلطانك نفسه يكاد يكون مملوكاً لي بعض مماليكي !». اعتدلت في

مشيتي وأظهرت الاحترام في الحال تصديقاً مطلقاً لما يقول ، فبأعتباري طرشجياً قديماً أصبحت حلوجياً بالحداثة ، أي أنني شربت ماء اللفت حتى شفيت من داء الحكيم لقمان فصرت بذلك آخر حلاوة ، ولهذا فأنا أصدق الواقع بشكل مطلق قبل تصديقي لأي أحد أو لأي قول في الدنيا أصدق صاحب المقهى البلطجي بائع المخدرات حين يسب ديك الجميع ويهدد بأن يجعل حساده وعزاله يضاجعون النملة ، واصدق الذي اختلس دماء عشرات الملايين من الناس ولا يزال يرتع في الخلاء يعيش عيش الأباطرة ، وأصدق أمي وهي «تزعم» أنها عجزت عن شراء روشتة الدواء وأولادها يتفسحون بالعربات في المصيف ، أصدق طفلي وهو يقول لي : « ابقى اشتري لي طيارة وفيها مدفع ». وأصدق طفلتي حين تقول : « اشتري لي عروسة ناطقة يا بابا ». أصدق كل هذا فكيف لا أصدق قول خزعل ؟. وقلت لخزعل : « طبعاً يا أميري نحن نفهم قدركم ». قال خزعل بخبث لم أدر ما موجبه : « وإن كنت لا تعلم فأعلم أن الحكم الحقيقي بين أهل الديار المصرية هو القوة المجردة ، والقوة المجردة لا منطق لها على الإطلاق ، هي ضد المنطق في الواقع ، ربما كان لها منطقها الخاص ، أنت أقوى فأنت السيد حتى ولو كنت في زي الخدم . . قوتك ها هنا قوامك الذهب والمماليك . . أنهب ذهباً واشتر مماليك تصبح سلطاناً وأي سلطان . . وأنا من غير ذهب ولا مماليك صرت سلطاناً مثلهم لأني سيطرت على من لا مماليك لهم ، من ليس لهم مماليك لا بأس من أن يصيروا مماليك فمن ذا الذي يستملكهم دون أن يدفع فيهم أجراً ؟. . أنه أنا . . حيث العب بهم وأنتقم لهم من ظالميهم ، واستخدم في انتقامي ناساً منهم ليضربوا اخوتهم وأهليهم وذوي قرباهم ، بل أنني إن شئت قتل رجل سلطت عليه أبنه بعد أن أملأ رأسه الضيق بشرائط توفد في اذنيه ليل نهار أن أباه عدوه الدود . . أنهم مركزك يا ابن شلبي ولا تتكبر عليّ وإلا نفيتك من كل العصور !» ففهمت مركزي بالفعل ومشيت بجواره لا أرفع رأساً ولا أرسل بصراً ، وكان القرن الرابع عشر الهجري يدخل في عيني طوال سيرنا في الشارع للحظات خاطفة وإن الصمت خلالها إلى أن قطعة خزعل قائلاً : « أعلمت بانعامات السلطان ؟ أم

أنك صرت مملوكاً سلطانياً لا يشغل باله بمحاولة معـرفة أي شيء ؟». قلت : « والله يا خزعل يا أميـري إن السلطان المرح أحمـد بن قلاوون فـرجة مـا بعد فرجة ، مسرح وحده وسامر وحـده ». قال خـزعل : « إذن فـأعلم أنه . . » ثم صمت كأنه يغـريني بشيء هام يـدخره لي ثم عـاد فقال : « خبـر سوف يلعب برأسك وتفرح به ». قلت : « ماذا ؟». قال : « الحاج آل ملك الجوكندار طبعاً تعرفه ». قلت : « ومن ذا الذي لا يعرفه خاصة نحن سكان الخزانة ؟». قال : خلع عليه السلطان بنيابة حماة عوضاً عن تقزدمر الحموي . . ففي داهية بعون الله ذلـك الذي وقف ضـدنـا . . ثم أن السلطان خلع على بيبـرس الأحمـدي واستقر في نيابة صفد عوضاً عن اسلم الناصري ، وعلى أي سنقر فاستقر نائب غزة ، وعلى الأمير قـطلوبغا الفخـري بنيابـة دمشق وعلى الأمير ايـدغمش أمير أخور بنيابة حلب ، وعلى قماري أمير شكار أمير أخور عوضاً عن ايدغمش . . وقد استقر أحمد شاد الشر بخاناه أمير شكار ، واستقر افبغا عبد الواحد في نيابـة حمص . . هذا وقد سافر ايدغمش بالفعـل متوجهـاً إلى نيابـة حلب كما سـافر قطلوبغا الفخري ومعه من تأخر من عساكر الشـام وكان في وداعـه الأمير نـائب السلطنة وجميع الأمر ، حيث مد له سماطاً عظيماً ألم تحضره؟». قلت : « هذا شيء غريب والله كيف لا أعرف هـذه الأخبار » ثم عـدت فقلت : « إن اهتمام الإنسان بأهله وعشيرته يمنعه من متابعة أخبار علية القوم ». فقال خزعـل كأنـه يتغاضى عما في كلامي من أدعاء أسأمه : « ألست تحب رؤيـة نائب السلطنـة حمص اخضـر في ثوبـه الجديـد ؟ أقصد في حـالـة التسلطن ؟». قلت : « يـا ليت ». قـال خزعـل : « اتبعني ». فتبعته دون اعتراض وهو يستـطرد قائـلاً : « تعلم طبعاً أنه بدأ يستنفر العامة وأهل الديار ». قلت : « لم أعلم بعد ولكني أشعر أنه نفس القبيلة ». قال : « أي قبيلة تقصد ؟». قلت : « تلك التي ينتمي إليهـا كـل متـطلع جسـور جـرىء لا يحسب إلا مصلحتـه الشخصيــة ومجـده الشخصي وتاريخه الشخصي على حساب الديـار وأهلها والضـميـر ورجالـه ». وكنا قد صرنا بحذاء مجلس النائب حين زغدني خزعل قائلاً : « انظر ». فنظرت فـرأيت عشـرات من المنتـظرين يجلسـون في صمت ملول أو يلحقــون بمن

يتصادف مروره من الأمراء . كانوا جميعاً يحملون الهدايا من مختلف الأشكال والأنواع . ولما اعترضنا أحد مماليك النائب قال له خزعل أنه سوف يقابل نائب السلطنة الآن وعلى المملوك أن يدخل ليبلغه ذلك . فتناثرت التعليقات هامسة خافتة شأن ما يحدث للشعب المصري في كل موقف : « يريد أن يدخل في التو !! » . . « ماذا لو عرف أنني انتظر لليوم الرابع » . . « اسمع يا هذا إن كنت ستقدم شكوى عليها تأشيرة السلطان فأنه لن يحفل بك بل سينكل بك . . موت النائب ومعه من يجيء له بشكوى سبق أن عرضت على السلطان » . . « السلطان نفسه أصبح يزيح الشكاوي عن كاهله » . . « واقعتك سوداء لو تصورت أن حمص أخضر يقبل الواسطة »، كل ذلك وخزعل ينقل بصره وراء التعليقات دون أن يطرف له جفن ، وكان المملوك قد دخل على نائب السلطنة وخرج يقول لخزعل : تفضل يا سيدي »، فشدني خزعل من يدي ودخل وسط ذهول الجميع ومنهم الخبيث الذي يعني الكثير . .

نهض نائب السلطنة بالقاهرة طشتمر الساقي حمص أخضر في احترام وتبجيل غريبين تماماً على حمص أخضر ، لهذا الذي رأيته يركع ويقبل قدم السلطان وقدمه الفرعية الكركية المتسللة بين قدميه ، والذي كان من الواضح أنه عريق جداً في الرياء واحتمال كل المكاره ، يصبح من الغريب عليه أن يقف هكذا وقفة سلطانية متقنة . الإحترام أكثر المشاعر الإنسانية قدره على كشف هويته على الحقيقة ، إن كان الاحترام أصيلاً في المرء فأنه لا يقبل الركوع مطلقاً مهما كانت الأسباب . احترام نائب السلطنة لخزعل جعل خزعل يبدو كأنه السلطان الحقيقي ، وهكذا جلس بنفس جلافة السلاطين ووضع ساقاً على ساق فيما كان نائب السلطنة يعالج الجلوس بعده وجوه كأنه يبحث بينها عن الوجه الذي يلائم شخصاً كخزعل ولحظة كلحظته . ما أن جلس واستقر وأمر لنا بالتحية حتى انفتح الباب ودخل أحد الأمراء فلم يحفل به نائب السلطنة ، فلما تقدم منه الأمير وسلم شوح له نائب السلطنة بغلظة مدهشة تشويحة أخذت شكل السلام وطلب الأمير اذنه ليهمس فيها بشيء فأفهمه نائب السلطنة بنظرة جانبية حادة أنه ـ الأمير ـ قد تجرأ أكثر مما ينبغي ، فارتسم الكسوف على وجه الأمير

وغطاه بابتسامة عريضة وأصر على طلب إذن حضرة النائب فقربها نحوه تقريباً رمزياً ، حولها تجاهه فقط بحركة مسرحية فقال الأمير من كسوفه أنه سوف يمر بعد وقت ليقول ما يشاء ثم تفضل بتحيتنا ـ فوق البيعة ـ وانصرف ، وبعدها صفق نائب السلطنة فدخل الحاجب فوبخه توبيخاً بذيئاً وأمره بالا يزعجه بدخول واحد من « هؤلاء » ـ يعني الأمراء ، فأحسست كأنه يتكلم عن فئة من الخارجين على القانون . وبدا على الحاجب أنه يريد أن يقول شيئاً ويتحرج من وجودنا ، فشجعه طشتمر على الكلام فقال بابتسامة شاحبة : « هل أخبرك الأمير بالخبر ؟». قال طشتمر النائب : « لا لم يقل لي شيئاً . . ما الخبر ؟». تردد الحاجب قليلاً فنهره النائب صائحاً : « تكلم »، فقال الحاجب في تعثر أن المدعو «ناصر الدين» المعروف بفأر السقوف قد توصل إلى الكركيين حتى استقر أمام السلطان يصلي به الخمس وناظر المشهد النفيس عوضاً عن تقي الدين علي بن القسطلاني خطيب جامع عمرو وجامع الفعلة وخلع عليه السلطان . هنا هب طشتمر الساقي حمص أخضر نائب السلطنة بالديار المصرية وصرخ قائلاً كأنه طعن في القلب : « بغير علمي ؟! . . بغير علم طشتمر يفعل السلطان هذا ؟! . . كيف ؟ . . اسمع يا هذا . . جهز لي عدة نقباء أشداء . . وأبعث بهم إلى ذلك المدعو بفار السقوف وقل لهم ينزلوا الخلعة من عليه ويسلموه إلى المقدم إبراهيم بن صابر ». فانحنى الحاجب في تسليم وانصرف ومر وقت أمضاه طشتمر الساقي حمص أخضر نائب السلطنة في استدعاء ناس واستقبلهم على مبعدة ويدور الهمس بينهم وبينه ، وأخيراً عاد الينا وما أن جلس حتى أنبأنا الحاجب بقدوم المقدم إبراهيم بن صابر بنفسه ، الذي دخل في الحال وانحنى في تبجيل ثم قال أن كل شيء على ما يرام ، وأنه قد اقتحم على ناصر الدين المعروف بفار السقوف مجلس امامته ، ثم نزع منه الخلعة فقال نائب السلطنة في سعادة : « حلو ». فقال المقدم أنهم ضربوا فار السقوف ضرباً مبرحاً أحاله إلى جثة هامدة . فقال نائب السلطنة وهو يجز على أنيابه في سعادة شريرة : « جميل ». فقال المقدم أنهم الزموا فار السقوف بحمل مائة الف درهم فلما ضربه ابن صابر لم يجد معه سوى أربعين ألف درهم فأخذوها وأطلقوا سراحه

ونهبوا عليه بعـدم طلوع القلعة مـرة أخرى . فصـاح نائب السلطنـة : « فعلت خيراً » . . ثم صرفه بإشارة سريعة .

لم يعجبني طشتمر الساقي حمص أخضـر وأحسست بكآبـة ، فالمـرء لا يستطيع أحتمال خزعل وطشتمر معاً في لحظة واحدة ، فعلت على إذن خزعـل وعمست فيها بأنني على موعد مع السلطان ضروري وهام ، فشرح في رأسه أن أذهب في داهية ، فسلمت عليه وعلى طشتمر وانصرفت مسرعاً أتخذت طريقي إلى غرفة السلطان مباشرة فما أن رآني حتى نحى عنه كركياً صغيراً شقياً وهتف قائلاً : « كنت فين من الصبح ؟» فأخبـرته بصـراحة فهـز رأسه وأمـرني بإتخـاذ مجلس الساقي فاتخذته وصـرت أسقي السلطان وأسامـره وأبث الحيويـة والنشاط في المجلس ومع ذلك لم يبد على السلطان أي سرور مما أدهشني فقلت له : « فيه أيه يا بو حميد . . شكلك مش هو النهاردة ». قال : « فعـلاً » ثـم صفق فدخل الحاجب البازدار فسـأله بشيء من القلق : « أين مقـدم المماليـك عنبر السحرتي والأمير آق سنقر السلاوي ؟». فقال الحاجب أنه أرسل يستعجلهما ، ثم خطف كأساً دلقه في جوفه وانصرف . وبعد برهة دخل عنبر السحرتي وخلفه آق منقر السلاري فركعا وقبل الأرض بين قدمي السلطان وأتخذا مجلسهما بأمر السلطان فسألهما هل أخبركما الحاجب بما هو مـطلوب منكما ؟ . قـال عنبر : « نعم وقد أعددنا لكل شيء عدته ». فقال السلطان : « ثمة شيء آخر . . ذلك أني أمركما باستدعاء مماليك بشتك الناصري ومماليك قوصون الناصري وبـأن تنزلوهم بالأطباق من القلعة وأن يعطي كل منهم أقطاعـاً » قال عنبـر : « أينوي مولاي السلطان أن يضمهم إلى مماليكه ؟». قال السلطان : « نعم لقد ضممتهم بالفعل . . أما الأمر الذي حدثكما بشأنه حاجبي فهو قائم كما هو دون تعديل ». فأحنى كل منهما رأسه موافقاً فصرفهما السلطان بإشارة سلطانية عريقة . ثم أن الجلسة طالت وطالت وكدت استنفـد مدخـراتي من حفلات السمـر الطلابيـة ونكت العامة والأشقياء حول كافة الأمور ثم إذا بالحاجب يدخل ويعلن للسلطان أن الوقت قد حان ، فنبض السلطان ونهضنا جميعاً معه وسار فسرنا في أعقابـه حتى وصلنا إلى قاعة مد السماط بالقصر فعرفت أن ثمـة « عزومـة » ستقام وأن

السلطان كـان مشغولاً بضيـوف لا شك قـادمين . فلما اتخـذنـا مجلسنـا على السماط بجوار السلطان صار الأمراء يتوافدون على السمـاط واحداً وراء الآخـر وكان السلطان يبتسم فلاحظت ابتسامتهـا يشوبهـا الكثير من الخبث والتشفي ، فملت على أذنـه هامسـاً : « ايه الحكـاية بـالضبط يا أبـو حميد؟ . . شـايفـك بتبتسم ». أتسعت ابتسامة السلطان وقال فيها يمعن في تأمل حركة الداخلين : « أنظر ولاحظ ». فنظرت فلم الاحظ شيئاً وقلت هذا السلطان فقال أنه يضحك عن سذاجة النظام الذي اتبعه طشتمر الساقي حمص أخضر في فترة نيابته، حيث منع الأمراء أن تدخل مماليكها إلى القصر ويسط من باب القصر بساطاً إلى داخله كمـا كان في الأيـام الناصـرية الأولى فصـار الأميـر لا يـدخـل إلى القصـر إلا بمفرده .قلت له : « وما المضحك في الأمر يا بو حميد يا مولاي ؟». فقال أن طشتمر الساقي حمص أخضر نائب السلطنـة في القاهـرة سوف يتلقى الضـرب بنفس السلاح الذي وضعه ». قلت : « كيف ؟». قال « سـوف ترى ». ثم أن طشتمر دخل بعد برهة ومعه ولداه ، فسلم على السلطان فرد عليه السلطان ورماه بنظرة تخفي كثيراً من الأسرار الشفافة. وحدثت موجة من النظرات ضاعتَ فيها نظراتي ولكنني رسوت بها على رجل قوي البدن ظهر في الأحتفال فجأة وأحدث ظهوره هذه الموجة من النظرات الغامضة ، لقد عرفته ، أنه كشلي السلاح دار أحد المماليك السلطانية ، صار يلف ويدور حول المدعوين إلى أن تم كل شيء فتقدم السلطان وبدأ الطعام فبدؤوا على أثره واندمجوا في الطعام بصورة مذهلة حتى لم يبق على السمـاط سوى بقايـا ، وكنـا ننتـظر واقفين في أمـاكننـا لصق السماط حتى يؤذن لنا بالتقدم لغسل ايدينا ، وكانت نـظراتي قد أخـذت تتابـع حركة كشلي السـلاح دار الذي اختفى فجـأة لبرهـة وجيزة . وفيمـا أبحث عنه فوجئت بطشقر ينتفض فزعـاً وإذا بذراعين قـويتين جداً تـطبقان على كتفيـه من خلف ظهره قبضاً عنيفاً . تسمرنا جميعاً في أماكننا بعقد الذهـول السنتنا ونحن نرى كشلي السلاح دار وقد تمكن من القبض على طشتمر وتقييده تمامـاً ، ثم تقدمت جماعـة من المماليـك فأخـذوا من طشتمر سيفـه وقيدوه بـالحبال كـأنه جوال ، ثم فعلوا نفس الفعل بولديه وجروهم إلى الخارج . وهنا صفق السلطان

المرح بيديه في إعجاب كبير وضحك ضحكة سوقية جاوبتها ضحكات الكركيون المخنثة ، ثم أشار للضيوف قائلاً هيا أغسلوا أيديكم ولسوف نغسل المكان من قذارة هذا الطشتمر الذي تجاوز كل حد .

وتقدمنا واحد وراء الآخر فغسلنا أيدينا بواسطة الطشت والأبريق وأعداد هائلة من الطشوت والأباريق كلها من الذهب يتولى القيام عليها مماليك صفسار. فما أنتهينا من غسل أيدينا حتى جلسنا من جديد في أماكننا نستقبل الحلوى ، وإذا بأمير مسعود الحاجب يقبل نحو السلطان فيقبل الأرض بين قدميه فيسأله عما به فيخبره أنه أي أمير مسعود ـ نزل في عدد من المماليك السلطانية فأوقع الحوطة على بيت طشتمر وقبض على مماليكه وسجنهم . فعلق السلطان طرباً وضحك الكركيون وعاكسوا أمير مسعود معاكسات خارجة استجاب لها عن طيب خاطر وإن كان الشرر قد طق من عينيه حين أمعن أحد الكركيين في المزاح السخيف فقرصه في مؤخرته . طلب السلطان من الأمير الطبغا المارداني والأمير ارنبغا والأمير صلاح أن يقوما الآن ومعهما من أمراء الملك خاناه والعشرات نحو خمسة عشر أميراً ومن المماليك السلطانية نحو ألف فارس ويتوجهوا للقبض على الأمير قطلوبغا الفخري . فقام الأمراء المذكورون في الحال ومضوا لتنفيذ الأمر . ومال نحوي السلطان وهمس متمنياً أن ينجح هؤلاء في مهمتهم وأن ينجح كذلك آق سنقر في مساعدتهم، ثم نهض إيذاناً بانتهاء اللقاء . . وسحبني من يدي فوضعت ذراعي في ذراعه وتجاوزنا القصر إلى ناحية غربية علمت أنها الحظائر السلطانية وتعجبت كيف يدخلها السلطان ولكني تذكرت أن السلطان المرح لا يستنكف فعل أي شيء . استقبلنا الأمير المختص بشؤون الحظائر قائلاً : «كله تمام يا مولاي» . فأجابه بفرح : « عال عال . . لعلها حصيلة وافرة » . قال القائم بشؤون الحظائر : « لا بأس بها على أي حال » . وأشار فدخلنا لنرى عدداً هائلاً جداً من الأغنام والأبقار وصل عددها إلى أربعة آلاف رأس من الأغنام وأربعمائة رأس من البقر . قال السلطان : « أهذه أغنام أبي ؟ ـ قال القائم بشؤون الحظائر : « وأغنام قوصون جمعناها كلها معاً » . قال السلطان : « عليك أن تجهزها كلها للسفر إلى الكرك . فرد القائم

بشؤون الحظائر : لسوف يقوم الأولاد بحملها وقد أعددنا لكل شيء عدته ». ثم تجولنا في الحظائر وفي الأحواش لنشاهد قوافل من الطيور بمختلف أنواعها ، ونوافل من الخيول والهجين وحمر الوحش والزراريف والسباع». قلت : « هل سيسافر كل ذلك إلى الكرك ؟». قال السلطان : « نعم ولن تبقى على ريشة واحدة ». قلت : « كيف ؟». قال القائم بشؤون الحظائر : على رؤوس الحمالين والسقائين ». قلت : « إلى الكرك؟». قال : « وإلى آخر الدنيا لو أردت ». قلت : تشكر يا أمير ». ثم أن السلطان اصطحبني إلى حجرة الذخيرة ووقف أمامها لبرهة فقلت لنفسي : « ترى ماذا بفكر السلطان وماذا عساه يفعل بهذه الذخيرة » .

الفصل الثامن عشر

فلتسبحوا جميعاً في بحر الهوى . .
ولتشربوا جميعاً من آبار الخسة . .

كنت أظن أن خزانة الذخيرة التي توقفنا عندها تحوي ذخيرة من التي نعرف أنها تغذي الأسلحة بالنيران العاملة ، فلما تقدم أمينها وفتحها تبينت أنها تحوي الكثير من الذهب والفضة فقلت ما أحلاها من ذخيرة . وقال السلطان المرح في جذل وغبطة : « أهذا كل ما جمعه أبي في مدة سلطنته ؟». وقال أمين الذخيرة كأنه يواسيه ويغبطه في نفس الآن : « كان يرحمه الله كريماً لا يمسك يده عن فعل الخير . . ولهذا لم يترك سوى هذه الثروة القليلة . . ستمائة ألف دينار من الذهب والفضة . . وهذا الصندوق المملوء بقطع الجوهر ». قال السلطان : « جهزها كلها في لفة واحدة وابعث بها إلى الآن على الفور ». قال أمين الذخيرة : « سمعاً وطاعة يا مولاي ». ثم أن السلطان تركه ومضى يصفر بفمه ويطرقع باصبعيه على ايقاع النغم ، ومضيت أنظر إليه في بلاهة من فرط الأعجاب بهذه السبهللة .

اخترقنا بهواً عريضاً أفضى بنا إلى مجلس السلطان الخاص ، فعجبت كيف يمكن الدخول إليه من هذا الباب الذي لم أكن عرفته من قبل رغم ترددي على المجلس عشرات المرات ، كان الكركيون يلعبون النرد ، ويزاطون في غرفة مجاورة دخل البازدار الحاجب في أثرنا فاستدار إليه السلطان قبل أن يستقر في مجلسه وقال له : « عليك هذه المهمة يجب تنفيذها الليلة ». قال البازدار الحاجب: « فليأمر مولاي ». قال السلطان المرح أحمد بن قلاوون: « لقد تتبعت جواري أبي وعرفت كل اخبارهن واحدة واحدة ». قال البازدار الحاجب

وهو يكاد يحسد السلطان على مهارته : « كيف يا مولاي . . أنا نفسي تعبت من التجسس عليهن وشغلت كل جهازي وبالكاد أستطيع الألمام بأخبارهن ». قال السلطان وهو يدفع إليه بورقة صغيرة: « هذه أسماؤهن فاستدع كلاً منهن على حدة . . قل لكل منهن أنني أدخل عليها الليلة ». قال البازدار الحاجب وهو يخفي في بحيرتي عينيه نظرة ماكرة : « تدخل عليهن كلهن الليلة ؟ . . وأظن أن مولاي يمزح فاقع المزاح لو قال أنه يدخل على واحدة فكيف به وهو يزعم الدخول عليهن في ليلة واحدة ؟» قال السلطان المرح وقد تجاهل هذه النظرة عن عمد : « هذا ما سوف تقوله أنت . . عليك أن تقوله فحسب وليس عليك ضمان الفعل ». أخذ البازدار الحاجب يطيل النظر في عيني السلطان المرح يبحث فيهما عن شيء غامض مجهول والسلطان يعلق في عينيه نظرة سخرية خجل ، فراح البازدار يعيد قراءة الورقة كأنه يطيل زمن الوقوف وأخيراً قال : « ولكن يا مولاي . . هذه القائمة تضم بعض الجواري . . أن جواري مولاي بلغ عددهن عدداً مهولاً ». قال السلطان المرح : « أعرف . . ولكن أريد هؤلاء فحسب . . أنهن أكثرهن تمولاً ». عندئذ شيع له البازدار نظرة خبث كأنه يقول له : « فهمتك يا نمس »، ثم استدار وخرج . ثم دخل الكركيون يدفعون كرسياً عباسياً ذا عجل صغير يزحف وفوقه القوارير والأكواب ، وأتخذ الساقي مجلسه المعتاد وأخذ يصب ويقدم للسلطان وهو يجرع في شرود صبياني تتخايل فيه ملامح الشقاء لكزه أحدهم في ود ، وداعب الآخر شعره ، وقال الثالث لكنه سمجه ، وقلت أنا كل النكت التي حفظتها من سلطان الجزاز وحسين الفار وحمادة سلطان ، وصرت أرسل النكات كالقذائف السريعة المتتالية فلا يضحك أحد فعرفت أنني كنت محقاً تماماً حين لم أكن أضحك على هذه النكات اثناء سماعها في شوارع قاهرة القرن الرابع عشر الهجري . ولم أعرف كم مضى من الزمن علينا ولكن السلطان تزحزح فجأة عبس في وجوهنا ثم أمرنا بالإنصراف . فلما نهضت متأهباً للإنصراف خلف الكركين استبقاني السلطان قائلاً : « أبق معي لأمر هام »، فجلست ثانية فبادرني قائلاً : « هل لك في النساء ؟!». قلت : « لا والله يا مولاي ». قال : « زهد أم عجز ؟». قلت : « لعلهما معاً يا

مولاي ». قال : « إذن فأنت تصلح للمهمة التي أريدك فيها ». اقشعر بدني لدى استماعي لهذا الكلام وتخيلي فكرة الإنفراد بجواري السلطان الكبير ، وقلت : « ما هي المهمة يا مولاي ؟». قال السلطان : « سأطرحها عليك ولكن بعد أن تجيبني على هذا السؤال : « هل تأخذك بالنساء شفقة؟ . . أقصد هل تتعاطف معهن ؟». قلت : « احياناً ». قال : « أعلمت أن حواء تسببت في خروج آدم من الجنة »، قلت : « نعم وهي تتسبب كل يوم في خروجي من هدومي ». قال : « إذن فاستمع إليّ فأنك مجهز لهذه المهمة خير تجهيز ». قلت : « أتريد مني أن اخلصك منهن ضرباً بالسيف ؟». قال : « لست حانقاً عليهن إلى هذا الحد ». وهنا دخل البازدار وأبلغ أن الجواري قد اقبلن عن طيب خاطر وأن واحدة منهن لم تر الأخرى بعد وكان منهن لا تزال تعتقد أن السلطان راغب فيها وحدها . قال السلطان بكل بساطة ومرح «أدخل أحداهن ».

فاختفى البازدار الحاجب وبقيت أتكهن ما الذي يريده السلطان بالضبط إلى أن دخلت هيفاء تبارك الخلاق فيما خلق ، يدهش المرء كيف تنسجم هذه الزهراء الرقيقة الفياضة بالعطر مع سلطان أكرش مثل المرحوم ، كانت قد تزينت أبهى زينة ولبست كل ما عندها من حلى ، وفيما كنت أنا مشغولاً بإرسال الصلوات على النبي واللهج بقدرة الخالق العظيم كان جلالته يفحص يديها وصدرها وقدميها فحصاً دقيقاً ، ثم أشار إلى « شلته » بجواره آمراً أياها بالجلوس فجلست فصار يجلس على كتفيها وينظر في حليها نظرات يجاهد أن يجعلها تبدو عابرة ، ثم صفق فدخل البازدار الحاجب فقال به : « أدخلها حجرة النوم »، فنظرت الجارية إلى العبد لله في خجل حقيقي وبدا عليها الإرتباك الشديد لكن البازدار الحاجب رفعها بإشارة من أصبعه فنهضت فسحبها واختفى ، فنظر لي السلطان قائلاً : « أعرفت مهمتك ؟». قلت وقد ارتعدت : « لا لم نتفق عليها بعد . . » فقال السلطان المرح : « عليك أن تخلع عنها حليها قطعة قطعة حتى الخلاخيل في قدميها لا تتركها ». قلت من فرط الشعور بالغيظ : « ثم ماذا ؟». قال : « ثم تتركها وترجع إلى بالحلى ». قلت وقد انتويت أمراً : « لا بأس . . ولكن إذا غبت عليك فلا تقلق » .

نظر نحوي في توجس : « ألا هذا . . مسألة الركنة عندها مرفوضة إلا ريثما تنزع عنها حليها ». قلت : « ولكن نزع الحلي يقتضي حيلة وسياسة وصنعة لطافة ». هز أصبعه في وجهي مهدداً : « صنعة اللطافة هذه أيضاً هي الأخرى مرفوضة ». قلت : «هذه بكل أسف هي شروطي يا مولاي ». قال : « إذن فاسترح »، ثم نادى أحد الكركين فدخل فأمره أن يدخل إلى حجرة النوم وينزع عن الجارية كل ما عليها من حلى ، فسأله الكركي : « وإذا كان في ثيابها بعض الحليات الذهبية ؟» فقال له : « إخلع ثيابها أيضاً وهاتها ». فأمتثل الكركي وذهب يفعل دون أي مناقشة . .

بعد وقت قليل جاء الكركي يحمل بين يديه مالاً يقل عن أقة أو أكثر من الذهب والجوهر وعلى كتفه فستان محلى بالقصب وكانت بعض الحلى مخضبة بالدماء فعرفنا أن الكركي قد استعمل القوة في نزع الحلى من اليد أو الأذنين أو القدمين أو الصدر وإن الجارية قاومته بشدة . حياه السلطان على شجاعته وسأله عن الجارية فقال الكركي أنه سربها من سلم سري يقضي بها إلى ردهة تفضي بها بدورها إلى الخلاء .

ثم أن السلطان طلب البازدار فدخل عليه فطلب منه الجارية الأخرى فدخلت فصار السلطان ينظر إليها باحثاً عن الحي فلم يجد شيئاً على الإطلاق فأشاز ولوى بوزه في قرف مع أن الجارية كانت من أجمل وابهج من رأيت في حياتي . قال السلطان وهو ينظر إليها في غيظ : « أين حليك يا أمرأة . . أقصد كيف تقابلين السلطان هكذا دون أن تكوني متزينة بكامل ما عندك من حلى ؟». قالت الجارية وفي صوتها عشم ابليس في الجنة : « أطال الله عمر مولاي . . ما عندي من الحلى شيء . . طول عمري فقيرة تعسة الحظ يا مولاي ولكنني أشعر أن الحظ قد تبسم لي هذه الليلة . . فمنذ أهداني أحدهم إلى مولاي المرحوم وأنا أنتظر دوري في الحظوة ولكنه فارق الدنيا قبل أن يجيء على الدور فلم أكن محظية من محظياته أبداً ولهذا حرمت من اقتناء الحلى ». وكانت الجارية ترسل كلامها ساخناً صادقاً مبتهجاً يلسع قلبي والسلطان يتابعها في قرف

واشمئناط شديدين ، فما أن انتهت من كلامها حتى شوح بيده في وجهها قائلاً: « حسناً إذهبي الآن إلى دارك ولسوف أطلبك في ليلة أخرى »، ففاضت الدماء في وجهها واعتلته صفرة الموت ، فقلت أطيب خاطرها : « يقصد مولاي السلطان أنه قد حزن لوضعك ولذا فهو يؤجل لقاءه بك حتى يكون في حالة أنسب ». فلم تصدقني واستدارت منكسرة تتمنى أن تنشق الأرض وتبلعها .

وصار السلطان يصفق كفاً على كف من الغيظ ويقول : « كيف هذا . . أما أن المعلومات التي وصلتني عنها كاذبة وأما أنها خبيثة واعية ». وصفق فدخل البازدار الحاجب بجارية ثالثة ليس فيها من الجمال شيء ظاهر للعيان ولكنها مثقلة بالحلى كأنها معرض جواهرجي ، وكثرة الحلى على الجارية معناها رضاء السلطان عنها فحدثت نفسي بصوت عال قائلاً « كيف لمثلك أن تكون محظية لدى السلطان وأمامه نساء أجمل ؟». فقالت الجارية بلهجة ذات معنى : « كان مولاي يعرف أن الجمال الداخلي أعمق وأدوم من الجمال الظاهري فالأول جوهري والثاني شكلي »، فكأنها القمتني حجراً .

أشار السلطان بذقنه إلى البازدار فأقتادها إلى حجرة النوم وركض الكركي خلفها مثل كلب ونيس . وما لبث أن عاد بعد مدة وهو مهدود القوى يحمل الحلى الذهبية .

وهكذا ظللنا ساعات طويلة نشهد هذه العملية الإجرامية والسلطان لا يكف عن الاستمتاع كلما نظر في حصيلة الجواهر والحلى التي تكومت بجواره وارتفعت . ثم أن السلطان طلب السقيا فجاءه الساقي وظل يصب له من جديد والسلطان غارق في صمت مريب ، فصعب عليّ ، فاقتربت منه وملت عليه هامساً : « مالك يا أبو حميد . . فيه أيه بالضبط ؟». فقال خلال شروده الطويل : « مفيش يا أبو شلبي . . بافكر في الدنيا ». قلت له : «لأ . . فيه حاجة شاغلاك . . أيه الموضوع ؟». قال السلطان : « الأمراء أولاد الأبالسة . . أولاد النحاس ؟».

قلت : « ما لهم ؟». قال في غيظ مكتوم : « يتنكرون عليّ ». قلت :

« كيف ؟». قال : « إن حروب الفخري دليل قوي على ذلك ». قلت : « ما تاخدش في بالك . . الأمراء طول عمرهم كده ». فأخذ السلطان يتلوى من الغضب ويجرع الكأس مرتين ، مرة حين ينتهي الساقي من ملئه ومرة حين يبقى فيه آخر رشفة ولو كانت نقطة واحدة يمسح على أثرها شفتيه ويقذف بالكأس أمامه فيتلقفه الساقي بدربة هائلة ليملأه من جديد ، وكان الجوع التاريخي الكامن بأعماقي يدفعني إلى التسلي بالمزة المنتشرة أطباقها على الصواني دون أن تكون بي رغبة في الأكل أو الشرب .

ويبدو أن المزة وحدها فعلت في رأسي ما يفعله الشراب في رؤوس الشبعانين من نشوة فقلت له : « اسمع يا أبو حميد . . عاوز نصيحتي ؟ . . قابل السيئة بالمعروف والشر بالخير . . يا بخت من بات غالب ولا باتش مغلوب ». فضحك السلطان حتى استلقى على قفاه وقال : « تجلس جلسة السلاطين وتتحدث « أحاديث الزعر والحرافيش ! . . تجلس على مائدة الشبعانين الأقوياء وتتحدث حديث الجياع الضعفاء ! هون عليك . . سوف أسامحهم ولكن ليس بناء على فلسفتك العرجاء ، إنما بسبب آخر ». ثم صفق فدخل البازدار الحاجب فبادره قائلاً : « يا بازدار . . مر ذلك المدعو أخوان سلار أن يجهز لي أوزا مشوياً بعدد الأمراء . . وعند الظهيرة من صباح الغد أبعث لكل أمير أوزة مشوية لحد داره ! ». قال البازدار الحاجب : « سمعاً وطاعة » ثم مضى ثم ارتد عائداً : « ولكننا الآن على وشك الظهيرة يا مولاي . . لقد سهرتم حتى جنكم الليل ثم أسلمكم للصباح وأنتم لا تشعرون ». قلت : « والله لم أشعر بحق . . ولا أدري إن كان اتصال الليل بالنهار على هذا النحو قائماً في القلعة أم هو عابر . . لكنني أدرى بحق أن الليل ها هنا يشبه النهار ولا فرق بين النهار وجنح الظلام ». قال السلطان : « وفر فلسفتك فنحن نصنع الليل حين نبغي السهر . قلت : « ولكن السهر يطول ويطول ». قال : « فماذا وراءنا غير السهر ؟». قلت أفي هوى المحبوب تسهر ؟». قال : « في هوى الهوى . . ربما كان محبوبي الأصيل هو الهوى . . أعشق بجنون . . فتحت أمواجه كم يعاشر المرء ويلتقي . . ما هذه الدنيا سوى بحر من الهوى . . إن كنت أنجبت أطفالاً

فعلمهم كيف يسبحون في بحر الهوى . . إن كنت علمتهم غير ذلك فما أتعسهم وما أبأسك . . أتدري لماذا قبلتك مملوكاً سلطانياً ؟ . . لكي أتفرج عليك بكل بساطة . . لكي أرى عن قرب كيف لا يزال هناك بعض المخلوقات المتخلفة تشغل أنفسها بفلسفات وقيم وأمجاد وقضايا تاريخية وأوهام لا معنى لها ولا قوام ! . . أنظر إلى الأهرامات خلف ظهرك واضحة للعيان تراها جثثاً ميتة تقول لك بالفم المليان عش حياتك كما ينبغي وبهوى . . لا تقل لي كرسي السلطنة وعرش آمال الشعوب ، فقد عشت السلطنة أباً عن جد وراقبت كل شيء ودرست كل شيء وجاء لي الناصر أبي بعشرات الأساتذة والمعلمين والمربين والمدربين والوصفاء من مختلف بقاع الأرض . وضعوا بين يدي الكتب والأحبار والأقلام والأوراق ، ووضعوا بين يدي كل تجاربهم وأنواع حياتهم في بلادهم ، ووضعوا بين يدي كل أحلامهم وأحزانهم وأفراحهم ، كذلك وضعوا كل مخازيهم ونقائصهم ، كانت مخازيهم ونقائصهم تتفوق تفوقاً مطلقاً على فضائلهم حتى أنها ـ نقسائصهم لافضائلهم ـ هي التي أوصلتهم إلى رحاب القصور السلطانية ليمتعوا أنفسهم وأهليهم ، كان السلطان الأكبر يظن أن البلاد البعيدة ترسل النور والترقي فما أرسلت سوى البذاءة ، نصف السلاطين ورباهم رعاع وسوقه تنكروا ـ بفضل مخازيهم ونقائصهم ـ في زي رجال أفذاذ ومربين مهرة . . لم تنج طفولة سلطان من بصمات مخزية ، لكن الخزي سرعان ما تحول بقدرة قادر إلى فضيلة توصل صاحبها إلى القمم !» . .

أخذني الذهول من هذه الفلسفة الشيطانية وصرت أرقب السلطان المرح في بلاهة فيما أقول أرضاء لغريزة النفاق فحسب : « لو كانت هذه فلسفة ابيك أو جدك لما بقيت السلطنة تحت أقدامكم حتى الآن » ضحك السلطان المرح من سذاجته وقال : « مخطىء من يظن ذلك . . هذه فلسفة كافة السلاطين يا عبيط . . لكن الأمر يختلف من سلطان لآخر حسب قدرة كل منهم على الإختباء وراء قناع . . أشهد أنني أنحدر من سلالة تجيد الأختباء وراء أقنعة صلدة لا يمكن كسرها بالحراب أو حتى بالبارود : « حماية البلاد . . حماية الخلافة . . حماية الشعائر . . حماية الأقوات . . حماية الرفاهية ، التي لم توجد قط إلا في

قصورهم ، حماية الأخلاق ، حماية لا أدري ماذا . . ها . . ها . . ها ها ها ها ها . . ي . . أنا في حقيقة الأمر ، ولو دققت ، تجدني أصلبهم جميعاً قناعاً ، وقناعي صلب لأنه ـ ربما ـ ليس بقناع : أنني أحمى الهوى وحرية الهوى . . نعم من حق كل الكائنات أن تحيا على هواها وأن تعيش في رغد ورفاهية أما كيف يحدث ذلك فهذه ليست مسؤوليتي ، ليست مسؤوليتي على الإطلاق ، فإذا كنت أنا صاحب النظرية والمنادى بها فكيف أكون مسؤولاً عن تحقيقها وهي هدف كبير تعجز عنه كل سلاطين الأرض مجتمعة ، هل تصدق أن سلطاناً واحداً مهما اوتى من قوة يستطيع حمل مسؤولية شعب برمته ؟ أنه بالكاد يستطيع حمل مسؤولية اسرته ، فما بالك بي ، أنني احتاج إلى من يعاونني في تحقيق رفاهيتي وأنا سلطان ».

انتبهنا فإذا البازدار لا يزال واقفاً يتأمل السلطان مثلي بنفس الإندهاش مما أدهشني أكثر ـ بنظرة خبيثة تقدم البازدار خطوة قائلاً : « ها أنت ذا يا مولاي قد ظللت تحكم حتى جاءت الظهيرة ولم تقل لي ماذا نفعل في أمر الأوز ». قال السلطان : « ابعثوا لكل أمير أوزة مشوية من الآن ، وكلمة مع كل أوزة موجهة مني إلى أميرها ، أي كلمة حتى ولو كانت : كل عام وأنت طيب . . على أن يتم ذلك من الآن ودفعة واحدة حتى تكون كل أوزة مستقرة على مائدة الغداء في بيت كل أمير ! ». قال البازدار : « سمعاً وطاعة » ثم انصرف . « أهي على سبيل الصدقة يا مولاي ؟ ». قال السلطان : « لا يا عبيط . . هي على سبيل الطعم . . لقد دعوت الأمراء للمجيء ذات مرة فتخاذل نصفهم وترهل نصفهم ، وكنت أنوي الإمساك بهم ليلة الأمس لولا أن الجاولي تأخر عن الخدمة . قلت : « وهل تظن أن الأوز سيجيء بهم ؟ ». قال : « طبعاً لا أظن بل اعتقد . . أن الأوزة أمر استدعاء أقوى من أي أمر سلطاني آخر . . كل أمير سوف يظن أنه وحده صاحب الحظوة بالأوزة . . فلا بد أن يجيء ليقول لي كلمة نفاق أو كلمتين . . أن الأمراء كلهم رعاع وتربية نخاسين ، ولكنهم ينظرون إليّ بعين مشمأنطة لماذا ؟ لا أنني خلعت برقع الحياء في نظرهم وهم قد الصقوه بوجوههم حتى أنه ـ برقع الحياء ـ يعوقهم دائماً حتى عند الإختلاء بزوجاتهم ، أنه يصبح جزءاً لا

يتجزأ من شخوصهم العفنة ويضيقون به ولذا فهم يحقـدون عليّ لأن وجهي لا يطيق لبس البراقع ! . . وأنا أفهمهم وأعرف كيف أعاملهم وبـأي أسلوب ، أن أول درس في التربية السلطانية هو الشرب من آبار الخسة لاطلاقها عند اللزوم . البعض نجح في اخفاء الخسة والبعض لا ينجح وكلاهما في الحـالتين سلطان متين !». قلت : « وهـل ستقبض على كـل الأمـراء يـا مـولاي ؟». قـال : « طبعاً ». . يجيء متخماً بالأوزة المشوية فيجلس بجواري فإذا به دون أن يدري قد وقع في الحبس . . إن هروب الفخري لن يمر بسلام أبـداً ». وبينما نحن كـذلك إذ دخـل البازدار الحـاجب ينبيء عن قدوم « يكـا الخضري » فـانتفض السلطان واعتدل وابتدت عليه بشائر توتر مجنون وقال : لا بد أنه يحمل اخباراً عن الفخري . . كنت أعرف أنه هو الوحيد الذي سيلاحقه في العريش وغزة . . أدخله فوراً يا بازدار». فاختفى البازدار ودخل « يكـا الخضري » فقبـل الأرض بين قدمي السلطان وقبل قدميه ثم اعتدل واقفاً وفي حركة مسرحية أبلغ السلطان نبأ القبض على سيف الدين قطلوبغا الفخري . فجن السلطان فرحاً وطلب منه الجلوس فجلس فأمر له بالشراب فقدم إليه . ثم دخل البازدار من جديـد يعلن قدوم بعض الأمراء للسلام على السلطان . فنبه عليه السلطان أن يتلقى كل أمير بحفاوة بالغة وأن يصرفه بعد أن ينبه عليه بضرورة الطلوع إلى الخدمة في الغد . فلما تأهب البازدار للخروج استوقفه ثانية وأمـره أن يكتب بحمل الفخـري إلى الكرك . فلما تأهب البازدار للخروج استوقفه ثالثـة وأصدر لـه أمراً بـأن يخرج الأمير طشتمر الساقي حمص أخضر مقيداً في محاره ـ مركب يشبه الهودج ـ ومعه جماعة من المماليك السلطانية موكلون . فتأهب البازدار للخـروج ثم ارتد من نفسه متوقفاً كأن السلطان قد استوقفه للمرة الرابعة لكنـه انتظر بـرهة وجيـزة ثم انصرف . وهنا مال السلطان على أذني وقال : « الآن تغير موقفي من الأمراء . . لن أقبض عليهم فقد شفي غليلي بالقبض على الفخري ».

ازداد زحف الليل حتى دخلنا في كهف الخمول والتعب فإنصـرف « يكا الخضري » ونهض السلطان متجهاً إلى غرفة نومه وبقيت جـالساً مـع الكركيين نلعب النرد . صرت أغلبهم واحداً وراء الآخر رغم ضعف مستواي في اللعب ،

ذلك لأنهم كانوا يلعبون بنصف انتباه أما النصف الآخر فقد انصرف إلى حجرة نوم السلطان فلربما يطلب أحدهم ، من تقاليدهم أن المغلوب يتنازل للغالب عن دوره في مرافقة السلطان ولكنني رفضت هذا التقليد واقترحت عليهم أن يقوم الغالب بضرب المغلوب بالكف على وجهه ، فأن غلبه مرتين ضربه لكمه ، فإن غلبه ثلاث مرات ضربه حتى يتعب من الضرب ، وهكذا نفست عن غيظي المكتوم ورحت أضرب الواحد منهم لكمة ترديه على الأرض والآخر كلما يلسع صدغه حتى تعبت من الضرب واستراحت نفسي وكانوا هم أيضاً قد تعبوا من اللعب وليس في أعينهم ثمة نوم . قلت هذه فرصة أجعلهم فيها يحدثونني عن مدينتهم الكرك هذه التي تعلق بها السلطان إلى حد الوله ، فأخذ كل منهم يصف لي جزءاً ، واحسست أن أحداً منهم لا يعرف شيئاً عن مدينته فقلت كيف بحق الله لا تعرفون شيئاً عن مدينتكم ؟ . قال واحد : « ومن قال أنها مدينتنا ؟» وقال ثان : « نحن ولدنا فيها فحسب ». وقال ثالث : « وأباؤنا ليسوا من هذه البلاد ». أخذتني الدهشة وخطر لي أن أعيد اللعب معهم بشروط جديدة تتيح لي أن أضربهم بالنار مثلاً ، وكانوا على وشك الموافقة لولا أن دخل علينا السلطان مرتدياً ثيابه فانتفضنا واقفين فأمر الكركيين بتجهيز أمتعتهم والإستعداد ، ثم قال أنه ذاهب لملاقاة الأمراء . وأشار لي فتعلقت بإبطه بينما انصرف الأمراء في سرعة .

مضينا إلى حيث يجتمع الأمراء فاستقبلونا بترحاب تتصاعد منه رائحة الأوز المشوي . فحياهم السلطان وبشرهم بالقبض على الفخري فتصاعد لغطهم واعجابهم . وتقدم السلطان من الخليفة الذي كان موجوداً فسلم عليه وأخبره بأنه قد ولاه نظر المشهد النفيس عوضاً عن ابن القسطلاني ، وطلب منه أن يسافر معه إلى الكرك ، فقال الأمراء جميعاً وفي نفس واحد « الكرك ؟ . . الكرك ثانية ؟ . . فقال السلطان : « وثالثة ورابعة » فصمت الأمراء ونظروا إلى بعضهم البعض . فقال السلطان أنه رسم لجمال الكفاة ناظر الجيش والخاص وللقاضي علاء الدين علي بن فضل الله كاتب السر أن يتوجها معي إلى الكرك ، فلم يعلق الأمراء بشيء . فعاد السلطان يقول أنه أمر ثمانية من المماليك

السلطانية وخلع عليهم على باب الخزانة وخلع على الأمير شمس الدين أق سنقر السلاري وقرره نائب الغيبة وخلع على شمس الدين محمد بن عدلاني باستقراره قاضي المفكر وخلع على زين الدين عمر بن كمال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر البسطلعي واستقر به قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية عوضاً عن حسام الدين الغوري . ثم أنه أعطى إشارة البدء بالرحيل فخرج من القلعة موكب فخم ضخم فيه كل شيء كأنه سفينة نوح العظيمة . من قلعة الجبل ركب السلطان وركب معه الأمراء وجيء لي بفرس سلطاني ركبته مثلهم وبدأنا المسير تحت حراسة مشددة حتى إذا ما اقتربنا من قبة النصر خارج القاهرة توقف السلطان عن المسير فتوقف الأمراء وترجلوا وصاروا يقبلون يده على مراتبهم ثم رجعوا عنه ، فنزل في الحال عن فرسه وجيء له بصرة ملابس فكها فإذا بها ملابس العربان وهي كاملة مفرجة وعمامة بلثامين ، تولى الكركيون مهمة الباسه الثياب التنكرية . فلما انتهى أشار للأمراء بالإنصراف فأنصرفوا جميعاً ما عدا الأمير قماري والأمير ملكتمر الحجازي والأمير أبو بكر والأمير عمر ابنى ارغون النائب وبغض المماليك السلطانية والكركيين ومملوكين اثنين . وكنت آخر من أنصرف إذ تقدمت منه وهو بملابس العربان تعانقنا فنزلت دموعه على خديه ونزلت دموعي على خدي من ألم الفراق ، وظللت ارقب الركب وهو يختفي ويتحول إلى نقطة باهته وسط سحب الغبار الكثيفة .

الفصل التاسع عشر

البكاء ساعة الضحك . .
قدر مصري أصيل

حقاً أن دمعة المصري قريبة لا شك في هذا ، سريعاً ما تهطل الدموع من عينيه خاصة في لحظات الفراق حتى ولو كان المفارق شخصاً بالغ السوء والإنحلال كالسلطان المرح أحمد بن قلاوون ، كنت في الواقع أريد أن أودعه قائلاً : « في ستين داهية ربنا لا يردك ولا يرزأ الديار المصرية بأمثالك مرة أخرى »، لكنني بدلاً من ذلك عانقته والأدهى من ذلك بكيت ! هل بكيت من ألم الفراق حقاً ؟ أم بكيت بغريزة النفاق التي تأصلت فينا حتى النخاع نحن بني شلبي المساكين المعدمين ؟ واقع الأمر أننا معشر الشلبية من المصريين نضحك ونرسل النكات اللاهية ونحن تحت وطأة الظلم ، ونبكي حين يندحر هذا الظلم ، فكأنما حبنا للعشرة والمودة اقوى من حبنا للإنتقام ، يقول المثل الذي أرسله أجدادنا الخانعون : « أصبر على الجار السيء فلربما تجيء مصيبة تمسحه أو ينزاح هو من تلقاء نفسه ». وقد تكفل الواقع المصري التاريخي بتطبيق هذا المثل في الديار المصرية تطبيقاً حرفياً لا يخيب ولا يخطىء على مدى الأزمان ، فكل جيران السوء من سلاطين وأباطرة وأمراء وغزاة قد قام الزمن وحده بتصفية الحساب معهم ، فسلط بعضهم على بعضهم ، وقد نظن أو يظن غيرنا أننا انسحبنا من الساحة وتركنا الزمن لوحده في مواجهة الخصوم . . لا بل لقد دفعناه دفعاً إلى الإنتقام لنا ، أن سألني أحدكم كيف ذاك يا طرشجي يا حلوجي فسوف أترك الكتاب عن يميني والتفت قائلاً له : « لا أعرف »، ولكن ثمة سلوك من جانبنا كمصريين لعله سري أو لعله كامن في لا وعينا حتى أننا

نسلكه دون أن ندري وهـو سلوك يفسر معنى تـرك الإنسان خصمـة للزمن ، إن معناه بكل بساطة ترك الخصم أي التخلي عنه وعن مساندته أو تعضيده أو تأييده على الحقيقة وإن بدا في سلوكنـا الظاهـري غير ذلـك ، فإذا مـا وجد الخصم العنيد القوي أن ليس في مواجهته أحد طغى وتجبر وطلع بنفسه إلى شاهق يهوي منه مكسوراً محطماً ، لكن ـ يسألني أحدكم أيضـاً ـ لماذا دون غيـرنا من أهـل الأرض اكتسبنا هذه العادة ؟ يقول لكم الطرشجي الحلوجي بقلب كبير أننا طول عمرنا لم يكن لنا بالسلطة شأن ، فثمة من يصارع السلطان دائماً ولكنه من غير أهلنـا ، أنه من الأمـراء ومن البـاحثين عن السلطان ، ويتصـارع أهـل السلطة والسلطان ما شاء لهم الصراع أما نحن فنبقى بعيداً كأن الأمر لا يعنينا وهو بالفعل لا يعنينا ولكننا حين تمتد يد إلى الـرغيف الذي بـأيدينـا فأننـا حينئذ لا نخشى الطراطير ولا نهاب الطرابيش .

تكررت المرئيات في ناظري من خلال الدموع التي هي غير ذي موضوع ، ثم أن المرئيات صارت تكتسب لوناً كـآبيـاً ويتبـاعد بـريق الأبهة عنهـا ليعلوها صدأ شديدة الزوجة والكتامة وله رائحة الرطوبة ، فتباطأ الخطو وآب كل شيء إلى سكون فإذا بي راجل وكنت من برهة أمتطي صهوة جواد سلطاني عـريق ، اختفى ركب الأمراء الذي كان في وداع السلطان أحمد بن قلاوون أمام بـوابـة القصر خارج القاهرة في طـريقه إلى الكـرك ، أختفى تمامـاً واختفى كل شيء ولكن المكان لم يختف على الإطلاق مما جعلني أتشبث به للوثوب إلى لحظة واعية ، ها هي ذي بوابة النصر لا تزال واقفة شامخة وإن علاها الصدأ ، ولكن روح الحياة غادرتها تماماً ولم يبق سوى روح التاريخ وحدها ، وكانت الساحـة الموصلة للبوابة كأنها تنين خرافي والبوابة في فتحتـه ، وثمة عـربة كـارو واقفة على اليمين فوقها كلوب شاحب وأقفاص البلح الأمهات وصعيدي ذو شارب كبير غليظ يجلس واضعاً ساقاً على ساق يدخن الجوزة وبجـواره ابنه يـرمي له الحجـر المعسل وزوجته تنيم طفلين وتداعب ثلاثة وحماره يأكل من زكيبة معلقة في رأسه ورائحة الصنان تختلط برائحة التبن بـرائحة الـرطوبـة برائحـة البلح برائحـة عرق زاخم ، ومخازن لا بد أنها ملك لواحد من ملوك المال في شـارع المعز ، وقـال

صاحب الكارو عندما رآني واقف حائراً مذهولاً : «دي بـوابة النصـر يا خـواجة»، فضحكت قائلاً له أن الخواجة ليس في حاجة إلى معرفتها إنما أنا مصري ولذا لا أعرف شيئاً عن تاريخ مدائني العظيمة ، ثم أنني نظرت عبـر البوابـة التي تشبه الفسقية فرأيت طريقاً يكـاد يكون زراعيـاً ويكاد منـظره على البعد يقنعـك أنك سوف ترى الخلاء الفسيح منـطرحاً أمـامك ، حـاولت البحث عن أثر لمـوكب السلطان أحمد الذي اندفع خارجاً منذ برهة فلم أجد سوى سيارات تمر مسرعة كالقذائف ، عبـرت البوابـة إلى الشارع فصـرت في عرف الخـريطة التـاريخية القـديمة خـارج القاهـرة تمامـاً ، ووالله وبالله وبحق جـلاله وغنـاه لقد داخلني الإحساس بالخوف كأنني قد لفظتني المدينة أو كأنني تسربت هرباً منهـا، فصرت أمشي بجوار السور الهـائل الارتفـاع الذي ينتهي في أعـلاه بكرانيش وفتحـات يداخلني شعور بالرهبة كأنني أحتمي به منه ، هو سور شـاهق الإرتفاع يصـافح نظر القادم من آخر الدنيا ليقول له قف مكانك وأحفظ مركـزك وإلا اصطادتـك عيونه الصقرية المتخفيـة ، أبتعدت قليـلاً عن السور إلى نهـر الشارع المسمى بشـارع البنهاوي وكنت أعـرف أن حي البغالـة على يميني وسور القـاهرة على يسـاري ولكن لا أدري لماذا خيـل إلي أنه الفـراغ عن يميني وأنـه الأمـان عن يساري ، فأنحزت من جديد إلى السور وقد داخلني شعور غـامض بأن البـوابة سوف تغلق بالضبة والمفتاح بعد برهة ، هكذا قال لي منظر البوابة التي أخذت تقترب هي بوابة الفتوح طبعاً على مبعدة أمتار قليلة من بوابة النصر ، منظر البوابة يقول إنك إن خرجت منه فليس من السهل أن تدخله ثـانية وإن دخلتـه صرت في مأمن تام ، حـودت يساراً ودخلت من البـوابة وهي بكـامل قـوتها على جـانبيها جداران سميكان جداً ومذخرفان بنقوش معقدة أمسكت الجـدار بيدي الإثنين من بروز له فإذا به باب البوابة الحديد قد التصق بصـدغ الباب ورسـخ في الأرض رسوخاً .

عرفت أن الزمن قد هرم فوصل بي إلى القرن الرابع عشر الهجري الذي ولدت فيه وعشت ، وأن الزمان الهرم لا يستطيع أن يضفي على الأبنية الراسخة ظلاله الكـريهة أبداً فهي وليدة زمن صبي مليء بالشباب .

وكان السلطان المرح أحمد بن قلاوون لا يزال عالقاً بذهني فتذكرت أنني كنت منذ وقت قليل أتمنى أن يزايلني ذلك الزمن البعيد لأصعد إلى زمني فلما وجدتني فيه عاودني الشعور والقرف والخواء والضياع بل أطبقت الكآبة على صدري وقال صوت بداخلي مفسراً هذه الكآبة أن من عاش القاهرة في أوج ازدهارها لا قبل له باحتمال رؤيتها على هذه الحال . انحزت يساراً فإذا بالبرج الذي كنت أراه خارج السور وأتصوره أحد أبراج القاهرة القديمة هو أحدى مئذنتين جميلتين عظيمتين لجامع يمتد من لصق بوابة الفتوح على مساحة هائلة والمئذنتان متقابلتان أحدهما في أوله والثانية في آخره ، أمام المسجد رحبة تستقل عن الشارع تتسع لثلاثة آلاف من المصلين قبل أن تدلف إلى باب الجامع الذي يشبه باب غار سحري يؤدي إلى لحظة خالدة صافية ، عرفت أن هذا هو جامع الحاكم أو الجامع الأنور الذي أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله وأطلق عليه الجامع الأنور قياساً على الجامع الأزهر وكان هدفه فيما يقول صديقي « ستانلي ليبول » أن يسحب البساط من تحت الجامع الأزهر الذي صار معقلاً لأهل السنة وجامعة تنشر تعاليمهم ويضعه ـ البساط ـ تحت الجامع الأنور ليصير جامعة جديدة لأهل الشيعة والمذهب الفاطمي .

تسمرت في مكاني واقفاً وأنا أرى العمل قائماً على قدم وساق ، وثمة ناس يقومون بالعمل ليسوا أبداً من الفواعلية الذين تعرفهم بلادنا وليسوا كذلك من الخواجات إنما هم طائفة تلبس القميص والسروال الأبيضين النظيفين وطاقية شبيكة بيضاء أيضاً ويضفرون شعر ذقونهم ، عجبت من نظافتهم قبل غرابتهم وكيف يتعاونون فيقومون بعمل لا يقوم به سوى الأنفار المؤهلين لذلك قوة ابدان وغلظة أيدي . اثنان اثنان يحملان مقطفاً مليئاً بالطوب أو التراب أو الحجارة رائحين عائدين ، والسقالات منتشرة على الجدران والعمران يطل من داخل الجامع الأنور، وعرفت أن هؤلاء هم الباكستانيون الذين أخبرتنا جرائدنا وصحفنا بأنهم يتطوعون بإحياء هذا الجامع من جديد على نفقتهم الخاصة، هم على وجه التحديد طائفة تسمى البهرة لها نسب عقائدي وثيق بالمذهب الشيعي من إحدى فصائله والله أعلم ، من بينهم المهندس والطبيب والعامل والمدرس

والأستاذ والمتصوف ولكنهم جميعاً يرتدون نفس اللباس ونفس الروح السمحة ونفس الطاقة المحركة ، ثمة شاب نظيف يقف على مبعدة بيده حقيبة ، رأيت في نظراته ترحيباً بتطفلي فبادلته بعيني نفس الترحيب والتدبر على ما يفعلون ، وأحببت أن أبلغه مشاعري تجاه التفاني في العقيدة والصدق في حملها إلى أقصى الحدود ، اقتربت من الشاب قائلاً : « سلام عليكم »، فرد عليَّ بلهجة أعجمية لكنها سليمة النطق : « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته »، طريفة ولذيذة وجميلة هي الحروف العربية حين يتلوي بها لسان أجنبي وينساب رغماً عنه مع موسيقاها المرنة المحملة بالمشاعر المكثفة . قدمت نفسي إليه فيما أسلم باليد قائلاً : « محسوبك ابن شلبي »، فهز رأسه مستقيماً فقلت : « الحنفي المصري »، فهز رأسه يطلب مزيداً من الاستفهام فقلت : « الطرشجي الحلوجي » فانبهم على وجهه وجمدت ملامحه فعرفت أنه لا يعرف اللغة العربية فسألته كم لغة يعرف فأشار بأصابع ثلاثة وردد أسماء الاريه والانجليزية واللاتينية ، فسألته هل يقرأ القرآن ؟» فقال : « القرآن الكريم من فضلك »، قلت : « من فضلك أنت »، قال أنه يقرأ بعض آياته بقدر الإمكان لكنه قال ذلك بالإشارة وحدها ، أثناء ذلك مر علينا كثير من الباكستانيين يهزون رؤوسهم بالتحية في وداعة خرافية، والشاب الذي يكلمني تطل من عينيه أسئلة كثيرة ورغبة ودود تريد أن تتصل على الوجه الصحيح ، فعجبت كيف يحدث الاتصال وعدم الاتصال في نفس الآن وقلت أن عصرنا هو عصر العجائب ثم عدت فقلت أن التاريخ المصري برمته سلسلة لا تنتهي من العجائب ولذا فإن العصور غير متصلة على ساحة الوجدان وإن بقي منها في المجتمع عمود فقري هو على التحديد النظام المملوكي ، إنه كقطعة العظم المختفية بداخل اللحم كلما اجتثها ساطور التاريخ نبتت من جديد وتعددت لتصبح هي العصب الحقيقي .

فجأة تغير منظر الباكستانيين ومنظر الشارع كله فصار نظيفا وجديدا وآثار الجامع بأبهة عظيمة ورأيت أكثر من ثلاثة آلاف رجل يقبلون من شارع المعز نحو الجامع . قلت : « أهي مظاهرة ؟» رد على واحد من خدم المسجد يقف في استقبال المواكب الكبيرة : « أنه أمير المؤمنين فأوسع أوسع أو أدخل إلى

الصلاة . . أنه العزيز بالله نزار بن الخليفة المعز جاء يصلي أول جمعة في مسجد بعد اتمام بنائه ». نظرت فرأيت العزيز بالله نزار يركب جواد وبجواره جواد آخر يركبه طفل صغير عرفت أنه أبنه المنصور الذي سمي فيما بعد الحاكم بأمر الله ، وكانت مظلة الخليفة مطروحة على المنصور وحده ، نظرت في ساعتي فوجدتنا في يوم الجمعة لأربع خلون من شهر رمضان سنة أحدى وثمانين وثلاثمائة ، فما أن وصل الخليفة نزار إلى باب المسجد حتى ترجل وخلع حذاءه وسلمه لأحدهم وكذلك فعل ابنه المنصور ثم تدفق الجمع وراءهما وأن هي برهة وجيزة حتى اكتظت الساحة الأمامية بالآف المصلين يجلسون في خشوع تتصاعد منهم رائحة النظافة ، وتداعى إلى سمعي صوت العزيز بالله نزار وهو يخطب الجمعة فأخذت أبحث لنفسي عن مكان يتيح لي الاستماع جيداً ولكن الزحام تكاثف وراح يدفعني إلى الوراء كلما خطوت إلى الأمام . وغشيت عيناي فما نظرت شيئاً ولكنني حين فتحتهما وجدت زحاماً من نوع آخر غير كثيف قوامه عشرات من المعممين والمطربشين ولابسي الحلل الثمينة ، ميزت من بينهم الوزير يعقوب بن كلس وزير الحاكم بأمر الله وكان يتفرج على منظر الجامع الذي تضخم حجمه وزيد في بنيانه وعلق على سائر أبوابه ستور ديبقية عملت له وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربعة وكثير من فتايل فضة وفرش جميعه بالحصر التي عملت له ونصب فيه المنبر وتكامل فرشه وتعليقه ، تمسحت في الجموع الواقفة تتفرج كأنها تقدر بناظريها حجم المدفوع في تكملة الجامع . وقال الوزير يعقوب بن كلس إن الجامع بلغت نفقاته خمسة آلاف دينار. نظرت في ساعتي فوجدتنا في ليلة الجمعة سادس رمضان سنة ثلاث واربعمائة ، ثم تكهرب الجو فجأة وإذا بشخص أزرق العينين حاد الملامح نحيف القوام لولا بذلتها الفاطمية المطرزة بالذهب والدر والياقوت لقلت أنه أحد ممثلي السينما العالمية لكن مظهره ورهبته والخوف المحيط بركبه كل ذلك قال أنه الحاكم بأمر الله ، لم يكن في الشارع سوى صوت خطواته يرن على الأرض المبلطة بالأحجار وثمة من يتقدم من العامة فيقبل يد الخليفة ويعطيه ورقة مطوية يضعها الخليفة في جيبه ويمضي . استقبله الواقفون على رأسهم الوزير يعقوب . فقال

الحاكم أنه إذن لمن بات في الجامع الأزهر أن يمضوا إليه ، ثم اختفى بداخل الجامع وصار الناس يخرجون من الجامع بكتبهم ويقولون لبعضهم أنهم يتوجهون إلى الجامع الأزهر للحاق بالدرس الفلاني ، وآخرون يقبلون قائلين لمن قابلهم أنهم قادمون من الجامع الأزهر للجامع الأنور، وكان هؤلاء وأولئك يتوقفون برهة طويلة لمعاينة الوضع الجديد حيث انتقل باب الفتوح إلى الخارج وبعد أن كان الجامع خارجه صار بداخله، فلما استدرت لأنظر مثلهم فوجئت بفنان يقف على سلم طويل وبيده حقيبة ملآنة بآلات دقيقة كالفرش والأقلام . وتلفت حوالي فوجدت الجمع غير الجمع والملبس غير الملبس ووجدت الفنان يكتب على البدنة التي تجاوز باب الفتوح : « أن ذلك بني سنة ثلاثين وأربعمائة في زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش »، فنظرت في ساعتي فوجدتنا في نفس السنة المذكورة . تراجعت إلى الوراء بعض خطوات ثم اقتحمت الجامع من الداخل فوجدت به فسقية كبيرة تمتلىء بمياه النيل فقلت من الذي بناها يا رجال ؟ فقالوا أنه الصاحب عبد الله بن علي بن شكر ، فلما ابتعدت عنها لأتأملها من بعيد صارت تتقلص ويعلوها الغبار وإذا بأنفار من الفواعلية يقبلون نحوها بالفؤوس ويعملون فيها هدماً وتقويضاً فصرخت فيهم: « من الذي أمركم بهذا ؟». قالوا : « قاضي القضاة تاج الدين بن شكر ». قلت : « فلماذا هذا يا رجال ؟». قالوا : « لتوسيع الساحة حيث كثر عدد المصلين » وقال آخرون : « بل لأنها جميلة وتستلفت أنتباه المصلين وتستحوذ عليه ولذا وجب هدمها ». وقال بعض ثالث : « بل هدمها ليكتمل جمال الساحة الكبيرة »، ووجدت عدد المدافعين يوازي عدد المهاجمين لمن هدم فخفت من احتدام التناقض وخرجت فإذا بالملابس قد تغيرت أشكالها بعض الشيء على أجساد المارة والمعروضات قد نقصت في حوانيت الشارع واختلفت معالم الحوانيت وأضيف إلى الجامع قطعة زائدة أذهلني مرآها لأن بعض أبراج صغيرة لكنائس صغيرة أيضاً كانت ترتفع من هذه القطعة الزائدة ومنظرها غير متوافق أبداً مع منظر الجامع الأنور ، لاحظت تذمراً واضحاً على وجوه المارة فوقفت صائحاً : « ما هذا العبث ؟ صحيح أنه عبث يليق بالديار العصرية ولكن ما هو بالضبط ؟!». قال واحد من

المارة : « هذه القطعة الزائدة بناها الخليفة الظاهر ابن الخليفة الحاكم ولكنه لم يكملها ». قلت : « حسناً ـ ومن جاء بهذه الكنائس ؟ ». قال : « هو أيضاً منه لله تسبب في وجـودها ». قلت : « كيف بحق الله ؟ ». قـالوا : « لقـد حبس فيهـا بعض الفرنج الذين أسرهم فعملوا فيها هذه الكنائس ؟ ». صفقت يداً على يـد وقلت ضاحكاً من المرارة : « هذا والله شيء طريف . . كيف يحبسهم ها هنـا ويسمح لهم بذلك ويستمر كـل شيء كما هـو ؟ »، ثم قلت : « إن التوافق بين المتناقضات في الواقع المصري قديم إذن « ورحت ألف وأدور حول هذه القطعة الزائدة الدخيلة على هذا النسيج المنفرد وإذا بي أرى الدنيا قد تغيرت وجنـوداً تـرتدي الـزي الأيوبي وهيـاجاً يقتـرب في مقـدمهم ورجـالاً يحملون الفؤوس والكريكات وفي حراسة الجنود ينهالون على هذه القطعة كلهـا هدمـاً وتقويضـاً فاقتربت من الجنود وقلت : « من الرجال ؟ ». قالوا : أنهم جنود الملك الناصر صلاح الدين . قلت : « تخية له على غيرته ». قالوا : « نعم هو رجل شاطر لا يعجبـه الحال المـائل ». قلت : « طبعـاً . . وأظنه سـوف يلحق هذه القـطعـة بالمسجد بعد بنائها من جديد ؟ ». قالوا : « لا . . سوف يبنيهـا اصطبـلات ». فما أن أتموا كلامهم حتى صار زمنهم يتقادم ويمعن في التقادم وأرتال من الخيل وركائب الغلال تقبل وتدخل . وبينما أبحث عن حانوت يقـدم لي دكة خشبيـة استريح فوقها من التعب المفاجىء إذا بالأرض تترجرج كأنني أقف فوق السلم الكهربائي في محل عمر أفندي في القرن الـرابع عشـر الهجري ، حـاولت أن اتماسك ولكن الأرض صارت تسحبني بالمكان وتتقدم بي وإذا كل شيء يترنح ويتهاوى وإذا بالرعود تقصف السماء والمنشآت والبشر ، وأدركت أن زلزالاً حل بـأرض مصر والقـاهرة واعمـالها ، رجف كـل ما عليهـا واهتز للحيـطان قعقعة وللسقوف فرقعة ، دارت الأرض بما عليها وخرجت عن مكانها . تخيـل الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض فهربـوا من أماكنهم وخـرجوا عن مسـاكنهم وبرزت النساء حاسرات ، كثر الصراخ والعويل ، انتشـرت الخلائق فلم يقـدر أحد على السكون والقرار لكثرة ما سقط من الحيطان وخر من السقوف والمآذن وغير ذلك من الأبنية ، وفاض ماء النيل فيمـا غير المعتـاد ، وألقى ما كـان في

المراكب التي بالساحل قدر رمية سهم وانحسر عنها فصارت على الأرض بغير ماء ، هكذا قال لي المقريزي بالحرف الواحد وهو ، يقبل من الجمهور المذعور، اجتمع العالم في الصحراء خارج القاهرة وباتوا ظاهراً البحر بحرمهم وأولادهم في الخيم . خلت المدينة وتشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم ولا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل ، قام الناس في الجوامع يبتهلون ويسألون ، يسألون الله سبحانه ، عدت أنظر في ساعتي فوجدتنا في يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة سنة اثنين وسبعمائة ، فلما هدأت الأرض من روعها دخلت الجامع الأنور على حذر فرأيت أنه سقط كثير من البندنات فيه وخرب أعالي المئذنتين وتشعثت سقوفه وجدرانه ، وكانت ليلة الخميس قد مرت والجمعة أيضاً قد مرت ونحن نبتهل أمام الجامع حتى حضر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ومعه القضاة والأمراء فأمر بترميم ما تهدم منه وإعادة ما سقط من البدنات، وقال إنه قد جعل له عدة أوقاف بناحية الجيزة وفي الصعيد وفي الإسكندرية تغل كل سنة شيئاً كثيراً ، وأنه قد رتب فيه دروساً أربعة لأقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ودرساً لأقراء الحديث النبوي وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة فرتب في تدريس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي وفي تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي ، وفي تدريس المالكية قاضي القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكي ، وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين اجواني ـ وفي درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارتي . وفي درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان . وفي درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي . وفي التصدير لإفادة العلوم علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي ، وفي مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب ، كما أوصى بعمل خزانة كتب جليلة وتعيين عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن ومعلم يقرىء ايتام المسلمين كتاب الله عز وجل ، ثم أمر بحفر صهاريج بصحن الجامع ليملأ في كل سنة من ماء النيل ويسبل منه الماء في كل يوم ويستقي منه الناس يوم الجمعة . .

صممت على البقاء لرؤية ما يتم وإذا بموجة من الذعر تدب بين العمال والفواعلية الذين شربوا في ترميم الجامع ، كان الصباح المذعور قادماً من البناة الذين يرممون المئذنة التي هي من جهة بـاب الفتوح ، طلعت أجـري نحوهم وصعـدت اليهم بواسـطة السقالات فـأريت العجب العجاب : فقـد ظهـر لهم ـ للبناة ـ صندوقاً في تضاعيف البنيان ، أخرجه الموكل بالعمارة وفتحه فـإذا فيه قطن ملفوف على كف إنسان بزنده وعليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هي ، والكف طرية كأنهما قريبة عهد باقطع ، ثم سمعت البناة يقولون في همس إن هذا شيء لا ينبغي كشفه ولكنني لم أعرف ما الذي فعلوه باليد المقطوعة هل أعادوها إلى تضـاعيف البنيان أم دفنـوها في الأرض ، ربمـا لأنني انشغلت بحادث آخـر إذ وقعت من أحد الجدران قطعة حجر كبيرة منقوشة عليها هذه الأبيات نقشاً شبـه سري : « إن الذي أسررت مكنون اسمه . . وكتمته كيما افوز بوصله . . مال له جذر تساوى في الهجا . . طرفاه بضرب بعضه في مثله . . فيصير ذاك المال إلا أنه . . في النصف منه تصاب أحرفه كله . وإذا نطقت بربعه متكلماً . . من بعد أوله نطقت بكله . . لا نقط فيه إذا تكامل عده . . فيصيـر منقوطـاً بجملة شكله» .

فلم يفهم أحد هذه الأبيات اللغز في الحجر الكريم . نظرت في ساعتي فوجدتنا في سنة إحدى وستين وسبعمائة ، ورأيت جنوداً من المماليك يهجمون على دار أنيقة جداً في مواجهة الجامع الأنور قالوا أنها دار « محمد الهرمـاس » المكلف بالأشراف على تـرميم الجامـع الأنور ، وكـانت ساعتي تشيـر إلى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة حين رأيت الجنود يسحبون الهرماس وولده وينهالون عليهما ضرباً بالمقـارع والعصي حتى سقطا مغشياً عليهما . ثم ينصرف الآخرون إلى الدار فيعملون فيها الهدم . فقلت ماذا حدث لهذا الرجل ـ أقصد ما الذنب الذي جنـاه هذا الهـرماس ؟ قـالوا لقـد : أختلس من أمـوال وقـف الجامـع وأثرى على حسـابـه ، فقلت من قـرف وغيظ : « إذن فالتلاعب في أموال الوقف قـديم وعريق ! » . فلم يـرد على أحد ولكنني أعجبت بأسلوب العقاب ومدحته قائلاً أن أمثاله يجب ألا تـأخذنـا بهم شفقة ، فقال أحد الجنود أن الهرماس وولده يستعرضان بعد ذلك لا عجب محاكمة في

الدنيا ثم أنهم انصرفوا جميعاً ولم يبق في الشارع سواي وبعض السابلة فجلست على دكة خشبية خرجت من دار الهرماس سليمة لأنها دكة خشبية فحسب ، ورحت ارقب الجامع الأنور وهو يستقبل طبقات الصدأ والغبار وتتراكم عليه الأزمنة في قسوة ودون رحمة ، رأيت الميغاة الصغيرة تتحول إلى مخزن تعلوه طبقة ويجلس أمامه واحد من الباعة تقدمت منه وسألته أسمه فقال : « ابن كرسون المراحل وشغلتي بائع غلال » ، قلت له : « كيف تستولي على ميغاة الجامع ؟». قال : « سوف أبتني بدلاً منها ، ولي زميل سوف يجدد المئذنة بأعلى الباب المجاور للمنبر ». تركته وانصرفت فظللت ارفع القدم من أكوام التراب لأضعها بين قطع الحجارة واتساند من فرط الأعياء على بعض المارة وما أن خرجت من الركام حتى فوجئت بالباسكتانيين يواصلون العمل في جد ومثابرة يحسدون عليها . .

أتخذت طريقي في شارع المعز وقد بلغ بي القرف أقصى مداه وأنا أقول لنفسي كم من الأبنية العظيمة والمنشآت التاريخية فيك أيتها القاهرة تنتظر من يرفع عنها حيف الأيام وقسوة الأبناء وجهلهم بها ؟ ترى هل تنتظر أقواماً آخرين يحضرون لاحيائها ؟ بصقت في الشارع الملآن بتجار الانفتاح ، عربات الهوندا والنقل الكبيرة والكارو والمرسيدس تفرغ رجالاً ذا كروش وهيئات لا جمال فيها ترتدي الملابس الأمريكانية والنظارات البرسول ولا تعرف القراءة ولا الكتابة ولكنها تحسب المكاسب ببراعة ، سوق الليمون يتلاشى ورائي لتقبل الجمالية بمقاهيها وغرزها وأراني مدفوعاً إلى الجلوس في أحد هذه المقاهي وأجلس بالفعل لأرى الزبائن يدخنون الحشيش في نظام دقيق وترتيب أدق، وأرى أمناء الشرطة ومعاون مباحث القسم يمشون يقتادون رجالاً منكسي الرؤوس قيل إنهم كانوا يشترون قطع الحشيش أو يبيعونها ! . . فقمت من فوري واستأنفت السير حتى وصلت إلى عطفة بيت القاضي وإذا بي أصطدم وجهاً لوجه بالأمير خزعل يسير مطارداً لأمرأة ملفوفة في ملاءة سوداء . فصاح قائلاً : « كنت فين يا جدع ؟». قلت له : « كنت بأوصل السلطان أحمد » قال : « تعال تعال ». وسحبني من ذراعي ومضينا ندخل زمن السلطان أحمد بن قلاوون من جديد .

الفصل العشرون

ليل القلعة . . وقلعة الليل

يعلق الزمن بأطراف الذاكرة الإنسانية كالعسل كالجراثيم كالصمغ كالوباء ، أحياناً يصعب على الذاكرة التخلص من لزوجته ، وأحياناً يصعب عليها ايجاد هذه اللزوجة ! أسير بجوار الأمير خزعل أمير الحبس في خزانة البنود ورئيس دولتها في الواقع ، نجتاز كل الحواري الفرعية وهو يرى خزانة البنود مقبلة عليه وأنا أرى بدلاً منها جامع الحسين بن علي الكائن بميدان المشهد الحسيني ، هو مقبل على دولته وأنا مقبل على دولتي ، فإذا كانت خزانة البنود هي دولة خزعل التي تأتمر بأمره وتعبث في الديار المصرية فساداً بأمره ولحسابه ، فإن جامع الحسين بن علي الذي بنى فوق هذه الخزانة في زمن تال بعد أن تطهرت البقعة برأس الحسين تعتبر دولتي التي تأثر هي الأخرى بأمري ، أياً كان شكلي أو حالتي المادية أو ظروفي النفسية فإن المشهد الحسيني سوف يستقبلني فاتحاً ذراعيه ، وإن تخبطت بعربتي في الميدان ملخوماً أو مذهولاً فإن عشرات المئات من عامة الحاضرين سوف يشاركونني في القيادة وهم جلوس في أماكنهم ، أكثر من واحد يتطوع قائلاً لي : « هات ورا هات . . هات كمان » وطفل صغير تتلبسه روح استاذ حكيم فيقول لي بحنو عظيم : « اكسر كله يا بيه . . لالا . . اكسر هناك يمين . . ايوه كده . . اتكل على الله » . . وهكذا تتحول لحظة لخمتي إلى مظاهرة شعبية كبيرة لا يمكن أن يكون لها مثيل في أي بقعة في العالم ، أركن عربتي في أي مكان وأهبط إلى ميدان المشهد الحسيني لأجلس في إحدى مقاهي الميدان اتكلم مع الجالسين فكأننا أخوة تلاقوا بعد

غياب ، أرى هذا كله وأرى ضجيج شارع الأزهر رغم أن جدران خزانة البنـود تقف وسط بـؤرة صورة المشهد الحسيني ، ثمة معالم قليلة قد تغيرت ، وثمة أبنية قد أزيلت فيما بين العصرين فخلفت حواري ضيقة وشوارع ناشئة تتعثر فيها أقدامي وتبعد جسدي عن جسد الأمير خزعل الذي يمضي خلال زمنه في سهولة ويسـر ، الواقـع تعبت وتمنيت أن تتخلص جدران الـذاكرة من بصمـات أحـد الزمانين ، ولكن سرعان ما كانت الأبنية التي بنيت فيما بين الـزمانين وتفصلني عن خزعل السائر بجواري تختفي إلى الوراء فإذا بأبنية كانت قد أنهدمت فيمـا بين الزمانين فيحاذيني خزعـل من جديـد . اجتذبني الضـوء الخفي فانـدفعت داخلاً وقد وفر في ذهني لحظتها أنني أدخل جامع الحسين بـدليل أنني خلعت حذائي وأمسكته تحت أبطي ، إذ بخزعل ينفجر في ضحك تهتز منه الأرض ، فلمـا أفقت من ذهلتي فوجئت بـأنني خرمت في أجسـاد بعض أهـل الخـزانـة الجالسين أو النائمين في حالهم ظنا بأني متوجه إلى أيوان القبلة ، في حين ليس فيه ايوان ولا قبلة . قلت لمن دست في أحشائهم : « عفواً يا أسيادي فقد ظننت أنني أمشي في صحن مسجد الحسين !». قال أهل الخزانة لما عرفوني : « ماذا دهاك يا مسكين ». قلت : « عذراً يا أخواني فقد كنت أظن أن الإنسان يحمل بيئته معه اينما ذهب والآن أتضح لي أنه يحمل زمنه أيضاً بنفس القدر إن لم يكن أكبر ». قال خزعل بحذق فيلسوف متوحش : « العادة أننـا نعير الإنسـان بسوء بيئته فهل نعيره كذلك بسوء زمنه ؟». قلت : « طبعاً يـا أميري . . صحيـح أنه يصعب عليّ معرفة ما إذا كانت البيئة أبنة للزمن أو كان الزمن أبناً للبيئة ولكنني على يقين بأن الزمن هو المعبرة الكبرى حين يسوء مناخه وتكثر هزائمه وخفافيشه ومصاصو دمائه . . وعلى فكرة يا أميري . . من وجهة نـظري أن سوء البيئـة لا يجب أن يكون معبرة للإنسان لأنه في العادة ليس مسؤولاً عنها تماماً ، وكذلك الزمن ». لحظتئـذٍ كانت يد خزعل قد رفعتني من الأرض والقت بي على كرسي في مقصورته . .

قال فيما يجلس أمامي : « ما الذي تعلمته من تجربتك كمملوك سلطاني لدى السلطان أحمد بن قلاوون ؟». قلت : « والله يا أميري لا أستطيع الإجابة

الآن ، فلعلني قد تعلمت الكثير ولكنني لم أكتشف ذلك بعد ولا بد أنني سأكتشفه في حينه » قال خزعل : « هل بلغتك آخر أنباء سلطانك ؟». قلت : « منذ ودعته عند بوابة النصر في طريقه إلى الكرك لم أعرف عنه شيئاً . . وعموماً فهي كلها مجرد لحظات ». وقال خزعل : « كيف يا رجل . . أنك تغيبت عن زماننا أياماً طويلة وقد بحثنا عنك خلالها في القلعة وفي كل مكان فلم نجدك فعرفنا أنك لا بد سقطت في بئر الزمن ». قلت : « يبدو أنني اختطفت بعض ليالي قضيتها بين زوجتي وأولادي أثناء حضوري افتتاح الجامع الأنور ». قال خزعل : « ولكن مخالطة الزوجة والأولاد أمر لا بد أن يكون مؤكداً ولا تناسبه صيغة كهذه ». قلت : « قد تدهش إذا قلت لك يبدو أنني متزوج ولدي أطفال الشيء الوحيد الذي أستطيع تأكيده والجزم به هو أنني أعول أسرة كبيرة ». قال : « هو زمن يليق به السب » قلت : « فلا تعيرني به وإلا فإن زمنك هذا يكون معيرة لأبناء الديار المصرية قاطبة وفي جميع الأزمنة ». قال بلهجة حاسمة وفي محاولة للانتقام : « ولكن كيف لا تكون لديك آخر الأخبار . . أنك لا بد أن تكون مزوداً على الدوام بآخر الأخبار وإلا فأنت لا تصلح لما وضعت نفسك فيه ». قلت : « إهدأ يا أميري فأنا مهما كان استطيع تزويدك ببعض الأخبار الطازجة ». قال في شوق المتلهف على كأس خمر : « هات ما عندك ». قلت : « هل علمت أن السلطان المرح أحمد قد نكل بقطلوبغا الفخري وحرض عليه العامة فأهانوه إهانة زائدة ، وكذلك أهانوا حريمه وأخذ أهل الكرك جميع ما معهن حتى ثيابهن وبالغوا في الإساءة إليهن ؟ . . وهل تعلم أن قطلوبغا الفخري وحمص أخضر مسجونان الآن بقلعة الكرك ؟ . . وأن السلطان قد انعكف على اللهو واحتجب عن الناس إلا الكركيين ؟». ضحك ساخراً وقال : « هذا كل ما تعرفه عن خارج الديار؟ فماذا تعرفه إذن عن أمر الديار المصرية بعد غيبة السلطان ؟». قلت : « مبلغ علمي أن أكابر الأمراء صار عندهم تشويش كثير ، وأن آق سنقر نائب الغيبة بالديار المصرية أوقع الحوطة على موجود طشتمر حمص أخضر وقطلوبغا الفخري وبعث به إلى السلطان في الكرك وإن آق سنقر ترك الركوب في أيام المواكب العامة نتيجة وقوعه في تخوف عظيم

حيث بلغه أن جماعة من المماليك الذين قبض على استاذهم قد باطنوا بعض الأمراء على الركوب عليه ، فلم يدايله الخوف حتى اجتمع الأمراء عنده وحلقوا له ثم كتبوا للسلطان يبلغونه بأن الأمور واقفة في غيبته كما قد نافق غالب عربان الصعيد وطمع أرباب الفساد وخيفت السبل وفسدت الأحوال وكان كتابهم في خامس محرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . . وبالإمارة ارسلوا الكتاب على يد الأمير طقشتمر الصلاحي وهو أحد المماليك الناصرية الذي كان قد تأمر وناب في حمص . . وقد استطعت بأمر الله أنا الطرشجي الحلوجي أن أعرف جواب السلطان الذي عاد به الأمير طقشتمر الصلاحيّ إلى الديار المصرية . . لقد قال السلطان في جوابه : أنني قاعد في موضع اشتهي وأي وقت أردت حضرت إليكم . . وقد أدلى طقشتمر بتصريح اعترف فيه بأن السلطان لم يمكنه الاجتماع به وأنه يبعث من أخذ منه الكتاب ثم أرسل إليه الجواب » . .

أكتفى « خزعل » بالنظر إلى الذين تحلقونا فانطلقوا ضاحكين ساخرين من تخلف أخباري وعطانتها ، في تأنيب وتقريع أشار خزعل إلى أحد الموشومين وقال له : « قل لسموه ـ يعني أنا ـ ما تعرفه من أخر الأخبار التي تعد طازجة في هذه اللحظة » . قال الموشوم : « آخر الأخبار أن السلطان بالأمس قتل الأمير طشتمر الساقي حمص أخضر والأمير قطلوبغا الفخري » . قلت محاولاً انقاذ ماء وجهي : « ولكن أين التفاصيل . . في قاهرة القرن الخامس عشر الهجري يعلمون طلبة كلية الإعلام أن الخبر الصحفي لا بد أن يكون حافلاً بالتفاصيل التي تجعل منه خبراً متكاملاً » . قال خزعل : « كلية إعلام أيه وبتاع أيه يا عم خليها على الله . . إحنا هنا كلية لوحدنا . . إن أردت التفاصيل فهاك شاهد عيان قادم لتوه من الكرك ممتطياً صهوة جواد نافر . . تعال يا ولد » ، فلما قدم الولد إذا به رجل على درجة كبيرة من الأناقة والاحترام ، ابن ناس كما يبدو فكيف ينادى كما ينادى الدهماء ؟ . قدمه لي خزعل قائلاً أنه أحد مماليك السلطان الأب وكان السلطان الأب قد نفاه إلى الكرك ليسهر على خدمة أولاده هناك وحمل له السلطان أحمد كثيراً من البغضاء واستطاع أن يهرب في زحمة المشهد الذي رآه ، وباعتباره هارباً فإن من الطبيعي أن يلجأ إلى الخزانة لتحميه من عسس

السلطان وجنوده وقد أعطته الخزانة حق اللجوء وفرضت عليه الحماية ومن غد سوف يمارس التجوال في الديار المصرية بكل حرية ولا تجرؤ قوة في الأرض حتى السلطان نفسه أن تنغص عيشه أو تنكل به. . هيه. . كمِّل يا أخ ما شاهدته بمبنى رأسك في الكرك ». اعتدل المملوك السلطاني ولم تظهر عليه علائم الضيق وقال : « كنت مسجوناً بقلعة الكرك حينما انفتحت بوابتها والقى فيها بالأميرين الكبيرين حمص أخضر والفخري . . ولم يمض سوى وجبة واحدة أو وجبتين حتى عرفت أن السلطان يهدف إلى قتلهما بالجوع . فكنت أتنازل لهما عن كسرة مما يخصني في الوجبات . لكنهما بعد يومين بلياليهما لا يطعمان شيئاً كسرا قيدهما وخلعا باب السجن بالقوة العجيبة فتدفق الليل الخارجي فوق ليل السجن، ثم خرجا إلى الحارس فوجداه نائماً فأخذا سيفه وهو نائم، فلما أحسّ بهما قام يصرخ ويصيح حتى لحقه أصحابه وقبضوا على الأميرين الهاربين وارسلوا بخبرهما إلى السلطان . . لحظتها كان السلطان قد خرج للصيد . . فما أن سمع الخبر حتى أقبل في زي العربان ووقف على الخندق واحضرهما وقد كثرت بهما الجراحات والكدمات . . فلما وقفا أمامه لم يقبلا الأرض بين يديه كالعادة بل كانت البجاحة والنطاعة على وجهيهما . . راح السلطان ينظر إليهما في احتقار من فوق لتحت لفوق ثم قال : « ما هذا الذي فعلتماه . . انطق أنت وهو . . انتفض حمص ورد على السلطان شتائمه لم يهتز السلطان بل هتف بكل هدوء : « يا يوسف . . يعني الحارس ـ أمرتك بضرب عنقيهما ، ثم استدار وابتعد ، واستدار يوسف أيضاً وابتعد قليلاً قوس السيف خارجاً في جرابه ثم انبرم يوسف حول نفسه كراقص باليه درجة أولى ، فإذا بالرأسين المبجلين يطيران وخلفهما نوافير من الدم القاني تصبغ الأرض ووجه السلطان ووجهي ووجوه الجميع . . فاندفعت أجري كالمجنون ولم يعرفني أحد لأن الدم كان قد صبغني تماماً واخفى معالمي الحقيقية ، فلما وجدتني قرب الأسطبل اقتحمته واختطفت فرساً أعرفه واختطفت ما صادفني من أشياء ولم اتوقف إلا هنا في هذه الخزانة !». قلت بهدوء : « كيف إذن نعرف بأمر الخزانة وأنت في سجن الكرك ». قال باسماً : « ومن في المنطقة لا يعرف أمر الخزانة !!». .

نهضت واقفاً في حركة مسرحية ناظراً في ساعتي كأنني تأخرت عن موعد شديد الأهمية . قال خزعل : « إلى أين ؟ ». قلت : « إلى القلعة طبعاً . . لا بد أن أكون حاضراً هناك الآن لأقدم تقريراً عن فترة غيبتي وإلّا ظنوا أنني تسربت في ركاب السلطان إلى الكرك » قال خزعل : « فمتى أراك ؟ ». قلت : « سوف اتصل بك في أقرب فرصة » قال : « توكل على الله ». أحنيت رأسي بالتحية وانطلقت أجري في أتجاه القلعة كان أول شيء فعلته أن طرقت قصر « آق سنقر » نائب الغيبة بالديار المصرية . كنت أظن أنه سيعاملني بإهمال فإذا به يرحب بي أيما ترحيب ويسألني عن اخبار وعما إذا كنت على صلة بالسلطان لا أزال ، فقلت له أنني بخير ، وقلت له أيضاً أنني وأن كنت محظياً لدى السلطان المرح إلا أنني فقدت طريق الاتصال به تماماً إذ هو لا يخلص في صلاته أو علاقاته إلا لأهل الكرك من غلمانه . فسألني إن كنت أطلب منه أي خدمات يقدمها لي فشكرته وقلت له أنني على العكس جئت أضع نفسي تحت تصرفاته ، فشكرني بدوره ، وطمأني بأنني يحق لي أن أعتبر نفسي صديقاً له بدلاً من السلطان . قلت : « فهل تمنحني من الأريحية مثلما كان يفعل السلطان ؟ ». قال : « وأكثر . . إحنا خدامينك يا أبو شلبي ». قلت : « على خيرة الله الآن يحق لي أن أفرح ؟ وكان الغداء قد وصل بالصدفة فقمت بدوري على المائدة كمملوك سلطاني مدرب على خدمة سيده وأستاذه وفتح نفسه للأكل . فلما انتهينا من الطعام شربنا بعض كؤوس العرق ورمرمنا باطباق الفالوذج ـ المهلبية ثم أن « آق سنقر » نائب الغيبة بالديار المصرية نهض واقفاً بعدل في ثيابه فنهضت أنا الآخر أعدل في ثيابي . قال : « أظنك لا تمانع في المجيء معي » قلت : « إلى أين ؟». قال : « اجتماع الأمراء . . لسوف يعقد الآن في القلعة للنظر في أمر السلطان : « بقائه أو خلعه ». قلت : « هذه مناسبة هامة ولا مانع لدي من حضورها ». ثم مضيت خلفه إلى حيث يجتمع الأمراء في القلعة . .

هزني بالفعل منظرهم المهيب وهم جلوس يتشاورون حتى أنني من لخمتي وانبهاري بكثرتهم وضخامة ثروتهم لم انتبه إلى كيفية بداية الحديث ولا خط سير الحديث ، كنت بالاختصار قد انخرطت في دور المتفرج دون أن أرى،

فعرفت أن مثلي لا ينبغي أن يوضع في مقام كهذا كمسؤول وإن مثلي لا ينبغي أن يتولى مهمة سفير في دولة أجنبية كبيرة متفوقة لأن ما فيه من حرمان وقلة دراية بالمجتمعات الراقية يؤهله فقط لدور المتفرج. لكنني أفقت بعد برهة فسمعتهم يتحدثون عن «عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون، كان أحد الأمراء يقول عنه: « أيام نفاه قوصون إلى قوص مع أخوته كان يصوم يومي الإثنين والخميس». وقال آخر: « وكان يشغل أوقاته بالصلاة وقراءة القرآن». وقال ثالث: « وكان هذا يصون نفسه مما يرمي به الشباب من اللهو واللعب». وقال آق سنقر: « أنه بالفعل أطيب أولاد الناصر محمد قلبا وأكثرهم مروءة». فقالوا جميعاً في نفس واحد: « على بركة الله». قال آق سنقر « هل نسلطنه ؟». فترددوا قليلاً وبدأ أن كلا منهم ينتظر حتى يهتف الآخر بالجواب، لكنهم في النهاية أطلقوا الكلمة واضحة: « ليكن . . فلنسلطنه» ثم نهض آق سنقر ليستدعي الأمير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل. فلما عاد به نهض الأمراء وانحنوا له فأحنى لهم قامته انحناءة رمزية خفيفة فكادت الدماء التي في وجهه تتدفق على الأرض من كثرة احتقانها. ثم أنه جلس فجلسوا، وكان أحد الأمراء قد استدعى العسكر فوقفوا خارج القلعة في الإنتظار. تولى آق سنقر إبلاغ إسماعيل نبأ سلطنتهم له بموافقة الأمراء واجماعهم، فشكرهم إسماعيل، فنهضوا من جديد وقدموه فمشى أمامهم حتى غرفة السلطان وجلس على الأريكة وجلسوا بجواره وحواليه، ثم حلفوا له اليمين بصوت عال، فإنطلق صوت العسكر يحلفون اليمين أيضاً، وبعد ذلك وقف إسماعيل وحلف ألا يؤذي أحداً وإلا يقبض على أمير بغير ذنب . . وبذلك تم أمره وسئل عن اللقب الذي يختاره لنفسه فقال أنه اختار لقب الملك الصالح، فدقت البشائر في الحال ونادى آق سنقر بزينة القاهرة وعلى ذلك أصبح الملك الصالح عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون هو السلطان السادس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والرابع من بني محمد بن قلاوون. نظرت في ساعتي فوجدتنا في يوم الخميس ثاني عشرين المحرم سنة

ثلاث وأربعين وسبعمائة بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد بإتفاق الأمراء .

انصـرف بعض الأمراء ليشـاركوا في مـوكب ويشرفـوا على اقامتهـا ، ثم انصرف الآخرون واحداً وراء الآخر ولم يبق سـوى السلطان وآق سنقر والعبـد لله ، فلما أردت الاستئذان قال الملك الصالـح إسماعيـل : « لا والله . . أنت مش غـريب . . خليك قـاعد معـانا » فبقيت جـالساً . فـرأيت الملك الصالـح إسمـاعيل وهـو يرسم بـالإفراج عن المسجـونين بثغـر الإسكنـدريـة ، ويكتب بالإفراج أيضاً إلى الوجـه القبلي والبحري وألا يتـرك بالسجـون إلا من استحق عليه القتل . . فوافق آق سنقر على هذا . فقال الملك الصـالح إسمـاعيل لآق سنقــر : « مـا رأيــك في زوج أمي ؟». قـال آق سنقــر : « الأميــر أرغــون العلاني !» . . قال الملك الصالح إسماعيل : « وهل لأمي زوج سواه ؟». قال آق سنقـر باسمـاً : « رجـل طيب مـا في ذلـك شـك ». قـال الملك الصـالـح إسماعيل : « لقد عينته رأس نوبة » : قال آق سنقر : « خيراً فعلت ». فقلت : « ما معنى رأس نوبة أن سمحتما لي ؟». قال آق سنقر : « رأس نوبه هـو لقب الذي يتحدث على مماليك السلطان ـ أو الأميـر ، وتنفيذ أمـره فيهم ، والمراد بالرأس هنـا الأعلى أخذا من رأس الإنسـان لأنه أعـلاه». قلت : « أفادك الله ». قال الملك الصالح إسماعيل : « ويكون زوج أمي رأس المشورة ومدبر السلطنة وكـافل السلطان . قـال آق سنقر : « حسنـاً ما فعلت ». قـال الملك الصـالـح إسماعيل : وما رأيك في نفسك يا آق سنقر ؟». قال آق سنقر كأنه يتحدث عن شخص آخـر سواه : « رجـل طيب ما في ذلـك شك ». قـال الملك الصـالـح إسماعيل : « إذن لتستقر نائب السلطنة بالديار المصرية ». فأخذ آق سنقر ينحني تبجيلاً وامتناناً ، فأضاف الملك الصالح إسماعيل : « أكتب للأمراء ببلاد الشام والنـواب بـاستمـرارهم ومن غـد نـوسـل إليهم الخلع على يـد الأميـر طقتمـر الصلاحي . . وأن يتقلد الأمير ايدغمش نائب حلب نيابة الشام ويستقر عـوضه في نيابة حلب الأمير طقز دمر الحموي نائب حماة ويستقر في نيابة حماة عوضاً عن طقزدمر الأمير علم الدين سنقر الجاولي ». قال آق سنقر وهو يهز رأسه في تسليم : « حسناً ما فعلت »، فقال الملك الصالح إسماعيل : « ايتوني بـالأمير

قبلاي والأمير بيفرا ». فنهض آق سنقر وغاب قليلاً ثم عاد وأكد أن الأميرين المطلوبين في الطريق إلى مجلس السلطنة بعد قليل . .

ثم أن الملك الصالح إسماعيل طلب الورق والقلم لي ، فلما جيء بهما قال لي : « أكتب ». قلت : « ماذا أكتب يا مولاي ؟». قال : « أكتب رسالة إلى أخي الملك الناصر أحمد ». قلت : « فماذا أكتب له ». قال : سلم عليه وقل له أن الأمراء لما علموا بعدم رغبته في ملك مصر وحبه بلاد الكرك والشوبك فأنهم قد أقاموا إسماعيل بدلاً منه في السلطنة ، ونبه عليه يا سيد طرشجي أن يرسل القبة والطير والنمجاة » وقلت : « تحت أمرك يا مولاي » وأخذت أكتب ما قاله السلطان ، فما أن انتهيت من الكتابة وقرأت على السلطان ما كتبت حتى دخل الأمير قبلاي والأمير بيفرا ، فقبلا الأرض بين يدي السلطان فنظر السلطان إلى الأمير قبلاً قائلاً: « يا قبلاي . . خذا هذا الكتاب وتوجه به إلى الكرك وسلمه لأخي السلطان المخلوع أحمد ». فإنحنى قبلاي علامة الامتثال للأمر ثم أخذ الكتاب وصار يطويه كالإسطوانة ويلفه في قطع من الحرير الخالص ونظر السلطان إلى الأمير بيفرا قائلاً : « وأنت يا بيفرا . . خذ عدة من اللوجاقية لجر الخيول السلطانية من الكرك ». فإنحنى بيفرا علامة الإمتثال للأمر . فلما حان موعد إنصراف الجميع استبقاني السلطان قائلاً لآق سنقر : « أترك لي الطرشجي الحلوجي فأنني أريده لأمر ما ». ويبدو أن التشكك قد ظهر على وجهي ، فأبتسم آق سنقر ابتسامة ذكية وأفهمني أن الملك الصالح إسماعيل يختلف عن الملك الناصر أحمد ومن ثم تختلف الأمور التي يطلب الناس فيها ثم أنه انصرف . .

فلما إنفردت بالملك الصالح إسماعيل اعتدل في جسلته ونسي أنه سلطان وأنني مملوك ، وقال : « هيه » قلت : « هيه » . قال : « حدثني عن السلطان المخلوع أحمد قلت : « كيف أحدثك عن أخيك ؟» قال : « ربما كنت تعرفه أكثر مني ؟». قلت : « كيف بحق الله ؟ . . أخوك وأعرفه أكثر منك ؟؟» قال : « لقد تربى في الكرك منذ مولده حيث أرسله أبي إلى هناك مع والدته ولم نكن نلتقي به إلا لماماً وعلى عجل . . ولكنني أحب أن أعرف الكثير عنه من رجل

مثلك خالطة عن قرب وخبر صفاته وسماته الخلقية . . أننا نسمع الكثير فهل تستطيع نقل صورة واضحة لي عنه ؟». قلت : « بكل سرور يا مولاي » ثم رحت اتحدث عن السلطان المخلوع أحمد وأحاذر من الخوض في سلوكه الأخلاقي وأتحفظ في كل قول أقول عنه حتى أوحى للسلطان الصالح إسماعيل بالثقة ويعرف أنني لست ممن يبادرون بالهجوم على المخلوعين فور خلعهم ـ تحوط كانت أمي رحمها الله دائمة التنبيه عليّ بشأنه . ويبدو أنني من فرط التحفظ قد حسنت صورة السلطان أحمد بشكل غير واقعي فاشمأنط السلطان الصالح اسماعيل ولكنه أخفى اشمئناطه بابتسامة فيما يقول : « الواضح أنك لم تعرفه على الحقيقة ولكن لا بأس ». كانت الجلسة قد طالت أياماً فلما نظرت في ساعتي وجدتنا في يوم السبت أول صفر من السنة المذكورة وإذا بالحاجب يدخل ويهمس في إذن السلطان فتبدو عليه الدهشة الممزوجة بالفرح وهو يقول للحاجب : « فليدخلوا ». غلما دخلوا إذا بهم الأمير قماري أمير شكار والأمير أبو بكر بن أرغون النائب والأمير ملكتمر الحجازي وصحبتهم الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد ومقدم المماليك الطواشي عنبر السحرتي والمماليك السلطانية فسلموا وجلسوا فعرفت أنهم فارقوا السلطان وجاؤوا من غزة. فمكثنا وقتاً طويلاً نستمع إلى نوادر السلطان المخلوع يحكيها كل منهم ويتفنن الحاكي في جعلنا أنا والسلطان نضحك ضحكاً صاعقاً . وكنا قد تلقينا دعوة كريمة من السلطان للغداء على شرف الزيارة غير المتوقعة ، فلما انتهينا من الطعام استأنفنا الجلوس للسمر من جديد فلما نظرت في ساعتي وجدتنا في يوم الثلاثاء خامس عشرينه وهنا دخل الحاجب من جديد وهمس في إذن السلطان الذي اتسمت ابتسامته وكاد يهب واقفاً من فرط الفرح فيما يقول : « ادخلوهم » فدخل القاضي علاء الدين علي بن فضل الله كاتب السر وجمال الكفاة ناظر الجيش . وقال جمال الكفاة أنه دبر حيلة للهروب من الكرك بعد أن بلغه أن الملك الناصر أحمد يريد قتلهم خوفاً من حضورهم إلى مصر ونقلهم لما هو عليه من سوء السيرة وأنه ـ جمال الكفاة ـ بذل أولاً ليوسف الباز دار حتى مكنهم من الخروج . وهنا كان الأمراء جميعهم قد وصلوا بعد ما بلغهم الخبر . ووسط فرحة الأمراء بعودتهم

خلع السلطان عليهم باستمرارهم على وظائفهم .

في نهاية هذه الجلسة المتشعبة أخبرني السلطان أنني صاحب بيت واستطيع أن انصرف كما يحلو لي فشكرته على ذلك وبقيت اتجول في القلعة بكل حرية وعرف الجميع أنني مستشار السلطان الصالح إسماعيل وأنني من أصفيائه . وذات يوم بينما كنت أتجول في شرفات القلعة وأطلق صفيراً منغماً إذا برسول جاء يطلب السلطان فسألت عن السلطان فلم أعثر على جواب مؤكد فانفردت بالرسول وسألته عن سر قدومه فقال أنه قادم من طرف « شطي » أمير العرب وأنه جاء يخبر السلطان بأن الملك الناصر أحمد قرر مع بعض الكركيين أن يدخل إلى مصر ويقتل السلطان . فصرت أبحث عن السلطان من جديد وأكاد أطرق باب حجرة نومه ولكن بعض الوصفاء كانوا يردونني في رفق قائلين مرة أنه في مأمورية سرية وأخرى أنه نائم وثالثة أنه في رحلة صيد ، فأبلغت الأمراء بالخبر الذي جاء به رسول شطي أمير العرب فتوشوشوا لذلك ووقع الإتفاق على تجريد العساكر لقتال الملك الناصر وأخذه من الكرك . وفي صبيحة الخميس ثالث شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة توجهت التجريدة إلى الكرك صحبة الأمير بيفرا ، وبقيت أحاول معرفة المكان الذي اختفى فيه السلطان فجأة وصرت أتحاشى نظرات بعض الأمراء حتى لا يسألوني عن سر اختفاء السلطان . وبينما أنا سائر في أروقة القلعة سمعت صياحاً وصراخاً حاداً ناحية بيت أم السلطان الأشرف كجك « خوند أردو » فاقتحمت البيت فإذا ببعض جواريها يخرجن حاسرات ملطخات الوجه بالدم وقد ازرفت عيونهن وأمتلأت وجوههن بالكدمات ، مما يوحي بأنهن كن في معركة حامية الوطيس . دخلت بكل صفاقه الخصيان فوجدت أم السلطان الصالح إسماعيل ممسكة بأم السلطان الأشرف كجك خوند أردو ، وكانت تنهال على أم السلطان الأشرف كجك ضرباً بالروسية وبالرجل ، فخلصتها منها بصعوبة وهي تقول : « سيبني أنا لازم أقتلها . قلت لها « خير يا مولاتي ؟» . قالت صائحة : « أوقعوا الحوطة على موجودها» . قلت لها: «سوف نوقع الحوطة على موجودها ولكن ما السر؟» . قالت أم السلطان الصالح إسماعيل: «هذه المخلوقة الشريرة سحرت ابني السلطان

الصالح إسماعيل ». أصابني الذهول : « كيف يا مولاتي ؟! سحرته كيف ؟». قالت : « لقد أصابه رعاف مستمر منذ بضعة أيام ». قلت : « واين هو ؟». قالت : « في سريره ولا أحد يدخل عليه ». فانطلقت أجري واقتحمت غرفة نوم السلطان فإذا به يرتعش بشدة ، تحسست رأسه فعرفت أنه يعاني من وعكة برد ، ووصفت له وصفه جيء بها في الحال فشربها السلطان فكف الرعاف ، فانطلقت أمه تزغرد وأمرت بتزيين القاهرة ثم صحبتني إلى المشهد النفيس حيث حملنا إليه قنديل ذهب زنته رطلان وسبع أوقيات ونصف أوقية . .

الفصل الحادي والعشرون

أبو الفداء . . لا يفتدي أحداً

لم تستطع كتب الطب أن تنبىء أم السلطان لماذا هو مصاب بالرعاف ، صحيح أن الأطباء الحكماء لا يكفون عن زيارة السلطان الملك الصالح أبو الفدا إسماعيل ويمكثون معه أوقاتاً لا بأس في السر ودون أن يتطرق الخبر إلى الرعية إلا أن لأم السلطان وجهة نظر لا تحب التنازل عنها ببساطة ، ورأيها أننا لكي نعرف مرض السلطان لا نبحث في جسمه إنما نبحث في كتب السحر والشبشبة ، ومحترفو السحر فئات كذلك ، فهناك من يليق بأم السلطان مثلما هناك من يليق بطالبي الزار ، وأم السلطان ما صدقت أن تحقق أمل عمرها وجاءت لها السلطنة لحد عندها فكيف تسمح لفرصة العمر أن تفلت من حجرها ؟ أنها لا بد أن تحاصر السلطنة حصاراً تستخدم فيه كل الأسلحة ، ذلك أنها بقدر ما كانت تشعر في أوابد السنين بأن أبنها لا بد مبارك من السماء كانت تحس من أعماقها البعيدة بشيء كثير من الخوف الغامض العميق ، ربما لأن اسم ابنها « أبو الفداء إسماعيل »، وهي تذكر أن زوجها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين اختار لأبنها هذا الاسم كان يعبر عن شعوره الحقيقي للإنتماء إلى قبيلة السماء ، وقبيلة السماء هذه هي قبيلة الأنبياء من ابناء العرب ، إبراهيم وإسماعيل ومحمد وأحمد واسماء أهل بيت رسول الله ، تشعر أن زوجها وأباه وجده لم ينتصروا في حروبهم وفي غزواتهم إلا بكونهم قاموا بها في سبيل الإسلام دين الله وسبحانه حين أنعم عليهم بالسلطنة على ديار الإسلام ومهد الأديان قاطبة كان ـ لا بد ـ يختبرهم ويضع حسن نواياهم في امتحان وهي لا

تزال تذكر يوم ولدته وكيف انبسطت ملامح الملك الناصر محمد بن قلاوون وقال أنه الفداء في سبيل الله ، ليكن أبا الفداء إسماعيل ، صحيح أنه الملك الناصر لن يقدمه فداء لأحد أو لشيء ولكنه فيما قاله لها يومها . مجرد رمز ، مجرد تحية لله سبحانه ليعرف أننا على استعداد للفداء في سبيله ، ليلتها ضحكت في عبها وقالت للسلطان بدلال: « هل تضحك على الله يا مولاي أم تنافقه ؟» . ضحك بدوره وقال في ارتباك لطيف أن الله يعرف نوايا الخلق جيداً ولذا فهو لا يمانع في أن يتخابث عليه أبناؤه الأذكياء الأقوياء ، السنا ابناءه يا إمرأة ، السنا نبتسم حين نكشف أن ولداً من أولادنا كذب علينا كذبة بيضاء لطيفة ؟ هو الله سبحانه وضع فينا كل هذا وعموماً اللهم فاجعل ابنك فداء للإسلام وديار الإسلام ، ارتج قلبها يومها واهتزت الأرض من تحتها ، فرغم يقينها أن السلطان قال هذه الجملة لينقذ بها ـ أو يدافع عن صدق نيته كمن يرمي يمين الطلاق في لحظة تهور فأنها أحست كما لو أن السماء انفتحت في هذه اللحظة واستجابت لدعاء زوجها على الأقل ليضعه الله أمام نفسه في الموقف الذي طلبه كاذباً ويقول له في تحد : طلبت الفداء وأنت تكذب فيها نفذ ما تقول وصحيح أيضاً أنها مثل زوجها صارت تؤمن بالله وبرسله وانبيائه أيماناً قاطعاً لكنها حتى الآن لا تعرف أن كانت ستوافق على تقديم ابنها فداء لأي شيء أم لا ؟ ذلك أمر لم تناقشه مع نفسها بعد . .

وكانت قد دوختني معها في شوارع القاهرة والقلعة وابحائها وتدخل بي في أماكن سرية يصحبنا بعض الخصيان ويتقدمنا بعض الجواري ، حتى أنني تعرفت على علماء أفاضل وشيوخ أجلاء يملكون من المخطوطات والمجلدات ما يلقي المهابة في النفس ويجعلها تصدق كل ما يقال ، ما بنى الواحد منهم يفتح الكتاب لدى كل سؤال وعند كل استفسار ثم يقرأ في السر تارة وفي العلن تارة أخرى لكنه في كل مرة يعود لتفسير ما قد قرأ . وأنه ما يثير العجب حقاً أن يكون هناك ما يشبه العلم المدون بعالم النفس البشرية . والواقع لقد رحبت بهذه الصعلكة مع أم السلطان لأن عالم السحرة عالم ساحر بالضرورة وقد اتضح لي هذا بالفعل لأنه في الحقيقة فن خالص ، والذين برعوا في السحر وقابلتهم

مع أم السلطان لم يكونوا أبداً مشعوذين ولا دجالين ولا نصابين كأولئك الذين يتواجدون في كل العصور ويتعيشون عيالاً على سمعة المهنة التي كونها أذكياؤها وأكفاؤها ، لقد اتضح لي أنهم برعوا في حقيقة الأمر في استخدام الوسائل الفنية الصائبة التي يفتحون بها عالم النفس البشرية وبها أيضاً يعالجون الجروح والأدواء النفسية ، إن الساحر من خلال تجاربه الطويلة وغوصه في عالم النفس يعرف كل الأدواء ومكانها بل أنه يظل يسأل المريض هل يحدث لك كذا ؟ هل تفعل كيت ؟ هل تلاحظ كذا ؟ ويتلقى الإجابة بنعم على طول الخط ، وعندئذ يضع العلاج ، وما العلاج إلا حركات يفعلها الإنسان وعادات تغير من سلوكه وأقوال حكيمة تضيء جوانياته الظلماء . قلت لأم السلطان أننا لم يعد أمامنا ساحر نذهب إليه خاصة وأن صحة السلطان ليست بالسوء الذي تتصوره ، أنه فقط يعاني من وعكة وأننا في عصرنا نصاب بما يسمى الأنفلونزا فنرقد في الفراش أيام نعطس ونكح ونلم جسدنا المنهار على الفراش فلا نذهب لطبيب أو غيره . لكن أم السلطان لم تقتنع بل كانت تطلب رأيي في مسائل عجيبة للغاية فإن ترددت في الجواب عليها عنفتني قائلة الست مستشار السلطان إذن فلا بد من إجابتي وتقديم المشورة دون تردد ، من ذلك مثلاً أن هذا الساحر أو ذاك قد ظهرت منه بوادر تدل على حبه الكبير للسلطان ولذا فهو صادق في تشخيصه أليس كذلك ؟ أو أنه لم يكن يبدي حماساً وكان يظهر سخريته من بعض حديثي فلا بد أنه مدفوع من خوند أم السلطان الأسبق كجك ويعمل لحسابها ضد صحة السلطان أبي الفداء أليس كذلك يا طرشجي يا حلوجي ؟ . فأقول لها يا ست الكل يا أم السلطان هذا شيء بعيد عن القصور ، فتلمع في عينها نظرة تكاد تتهمني بأنني أنا الآخر ضد صحة السلطان ، الأمر الذي أضطرني أن أجاريها بعض الشيء فيما تذهب إليه ظنونها ثم أعود فأصلح من الوضع في هدوء وترو بعدما أكون قد وافقتها ، فتبدي هي الأخرى أنها اقتنعت بوجهة نظري ولكنها في الواقع تكون تجاريني مثلما أجاريها ! لذلك ما أن وصلنا إلى القلعة واقتحمنا غرفة نوم السلطان حتى رميت بنفسي فوق سريره وجلست بجواره أسليه وأخفف عنه ألم الرعاف .

وفيما نجلس على السرير جاء الساقي « اياز » وأبلغ السلطان نبأ موت الأمير « ايدغمش » نائب الشام فجأة . فطلب السلطان « آق سنقر » نائب السلطنة وأوصاه بأن يستقر الأمير « طقزدمر » الحموي نائب حلب نائباً للشام ، وأن يستقر الأمير « الطنبغا المارداني » عوضاً عن « طقزدمر » في نيابة حلب ، وأن يستقر الأمير «يلبغا اليحياوي» في نيابة حماه عوضاً عن « المارداني » . . وفي نفس الجلسة أنعم السلطان على « أرغون العلاني » بأقطاع الأمير « قماري » بعد موته ، وكتب السلطان لنائب صفد وغزة بالنجدة للأمير « بيفرا » لحصار الملك ناصر بالكرك . ثم إذا بالبشارة العظمى تجيء من عند « شطى » أمير العرب ، وفيها أن ركب مع العسكر على مدينة الكرك فقاتلوا أهل الكرك وهزموهم إلى القلعة وأن الملك الناصر أذعن وسأل أن يمهل حتى يكتب إلى السلطان ليرسل من يتسلم منه قلعة الكرك . وحدث هرج في القلعة تعبيراً عن الفرج ، وتسللت أنا من جوار السلطان زاعماً أنني سأشخط في هؤلاء الذين يثيرون الصخب ، وخرجت أسمع السلطان صوتي في الخلاء ببضع شخطات مسرحية ما لبثت أن اختفيت على أثرها بين الجند والعامة تحت القلعة . فإذا بي أرى الكآبة تعلو الوجوه من جديد والجميع يسبون ديك الكرك وما يجيء من الكرك ومن خيبة أبناء السلاطين ، فلما تساءلت عن السبب قالوا أن السلطان السابق أحمد خدع جنود « شطى » ريثما يسترد أنفاسه ويستأنف قتالهم من جديد وما كاد السلطان إسماعيل يعلم بخبر هزيمة أحمد حتى كان أحمد قد بدأ القتال من جديد بالفعل والجميع يريد أخفاء الخبر عن السلطان خوف الصدمة القاسية ، فصرخت فيهم قائلاً إن هذا عيب وإن السلطان يجب أن يعرف كل شيء ، ثم وعدت بأن أتولى أنا أبلاغه الخبر بشكل لطيف محتمل ، ورجعت أجري إلى السلطان من جديد أمني النفس بالنجاح في مهمتي ، فلما دخلت عليه طيب خاطره وقذفت بالخبر في أذنه دفعة واحدة وبشكل مباشر حتى أنه ظل برهة طويلة يستوعب الخبر ثم إذا به ينهض واقفاً فانزعجت وصحت فيه قائلاً : « أوعى تخرج في الهوا يا أبو السباع يا مجنون . . نام واتغطى أحسن أروح أنده لامك »، ولكنه لم يعبأ بصياحي بل صاح قائلاً : « قم معي ». وقع قلبي في

قدمي فقد ظننت أنه يدعوني إلى الحرب فوراً ، قلت له : « أقوم معاك فين ؟» . قال : « سنسافر إلى بلدة قريبة ها هنا لكي استريح فيها قليلاً » . قلت : « أي بلد هي ؟»، قال : « سرياقوس »، فقلت لا بأس ، فسرياقوس من القرى القديمة في مصر وهي تتبع مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية وتقع على الشاطىء الشرقي لترعة الإسماعيلية في شمال القاهرة وعلى بعد ثماني عشرة كيلو مترات منها ، نظرت في ساعتي فوجدتها في يوم الأربعاء رابع شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . وكان السلطان قد انتهى من ارتداء ثيابه السلطانية المخففة ووقف ينتظرني حتى انتهيت من تغيير ملابسي بملابس جديدة كان قد أنعم بها على « ونزلنا ، وكان الأمراء على علم بهذه السفرة فجاء معظمهم وتخلف بعضهم ، وتقدمت بصحبة السلطان فتعرفت على الأمير « رمضان »، أنه شقيق السلطان ، شاب صغير السن حلو التقاطيع خيل إليّ أنه زميل دراسة حديث وأنني قد عدت من جديد تلميذاً مراهقاً يحب المغامرات ، وكان السلطان قد أنعم عليه بتقدمه ألف ، أي أنه يتقدم ألفاً من المماليك والأمراء .
فلما عرفني السلطان بأخيه رمضان وحدث بيننا ما يشبه الحب المفاجىء وضع رمضان يده على كتفي في تحفظ وهمس بأنه سعيد بي وبمعرفتي ولذا فهو يطمع في دقائق من وقتي والآن ، قلت : « بكل سرور يا رمضان » فغمزني في يدي أن أنتظر حتى يبتعد السلطان ، فقلت له أنني لا بد أن أرافق السلطان في خطوة ، قال : سآخذ لك الأذن منه »، قلت : « لا بأس »، فتقدم « رمضان » خطوات من أخيه السلطان وقال له : « أستأذنك في أن يبقى الطرشجي الحلوجي معي لبعض الوقت »، قال السلطان في تردد : « ولكني لا أستغني عنه »، قال رمضان : « دقائق لا ستشيره في بعض الأمور ، قال السلطان : « هو لا يفهم في أمورك يا رمضان ـ ثم بلهجة ذات معنى ـ ليس له خبرة بشؤون البنات والخطابات الغرامية الساخنة » ضحكت أنا وأمنت على كلام السلطان وضحك رمضان وقال أنه لن يستبقيني أكثر من دقائق ، فقال السلطان : « طيب . . أبقى حصلني في السكة »، ثم ركب ومضى وخلفه الأمراء والأجناد على الترتيب السلطاني المعهود . ثم أنني لاحظت أن « رمضان » يتلكأ في الركوب وفي

المسير ويتلكأ معه بعض الأمراء ، وأشار إلى الأمراء الذين جاملوه بالتلكؤ فأنصرفوا يلحقون بركب السلطان وبقي رمضان وسط رهط كبير من المماليك ، داخلني شعور من مشاعر المهنة الصحفية ، فخيل إليّ أن « رمضان » سيجري أمامي بعض الملاعيب الفنية أو الرياضية لكي تعجبني فأكتب عنه في الجرنان ، لكن « رمضان » ما لبث أن أشار لي قائلاً : « اتفضل يا أستاذ طرشجي » فتقدمت منه فقدمني بدوره للمماليك فيما يشبه التفاخر قائلاً أنني مستشار أخيه السلطان سيادة الطرشجي الحلوجي على سن ورمح ، فهتف لي المماليك هتافاً أرعبني وجعل شبابيك القلعة تنفتح وتطل منها رؤوس مستطلعة ، ثم أن « رمضان » سحبني من أبطي وأنزوى بي بعيداً وقال : « سمعت أنك يا أستاذ طرشجي رجل حكيم مثل الشعب المصري تماماً . . وسمعت أنك لهذا نافذ الرأي والحجة . . وسمعت كذلك أنك ـ لهذا أيضاً ـ طيب القلب ويمكن أن تضيع في شربة ماء ». قلت له : « أدخل في الموضوع يا رمضان ». قال رمضان : « إن أخي السلطان الملك الصالح أبي الفداء إسماعيل رجل مريض كما ترى وليس أهلاً للسلطنة ثم أنه متهور وغير مثقف ». أندهشت وكدت يح فيه : « عيب يا ولد . . كيف تتجرأ على أخيك السلطان بمثل هذا الكلام ». ولكنني استلطفت الموقف فتبسمت قائلاً : « ربنا يعطيه الصحة ويمنحنا الهداية ». قال رمضان بكل جرأة : « وأنا الآن أدعوك للهداية »، قلت : « كيف يا رمضان ؟»، قال : « إن ساعدتني وانتميت إليّ تكون هذه هي الهداية وتكون قد نجحنا من أجل خدمة الناس والشعب ! »، شعرت بأنني قد وضعت في مأزق لا منجاة منه فأخذت أدبر للفرار ، قلت لرمضان : « كيف أساعدهم وفيم ؟» قال رمضان : « أريد أن أكون أنا السلطان ». . « كيف ؟». . قال رمضان : « هذا ما سوف يكون بإذن الله . . لقد اتفقت مع بعض المماليك والأمراء ووافقوني وبعد قليل سوف تحين ساعة الصفر لتنفيذ خطتنا . . فهيا أركب معنا ولا تكن من الهاربين ، ورأيت الجواد أمامي فركبت وركب السلطان وظن المماليك أنه قد نجح في مساعيه نحوي فاندفعوا خلفنا وسبقني الأمير رمضان بخطوتين وظللنا نسير وإذا بالركب ينحرف قليلاً عن اتجاه ركب السلطان فلما صرنا في بركة

الحبش رأيت عدداً هائلاً من الخيول والهجن يمتطيها رجال كثار ، ورأيت قرية أثر النبي في الخليفة يحدها شاطىء النيل ، وقرية دير الطين والبساتين والمعادي حيث اسكن فقلت لنفسي أن الهرب سهل لغاية فما على سوى الإنحراف قليلاً إلى اليمين لاصبح في منزلي بين المعـادي والبساتين . غيـر أنني فوجئت بـأن الخيول الهجين تندفع نافرة ثم تهـدىء من خطوها سائرة في اتجاه القلعة والأمير « رمضان » يصيح في رجاله أن هاتوا خيولكم إلى الطريق الصحيـح ، وأن هي إلا دقائق حتى تبينت أن « آق سنقر » أمير أخور كان يعلم بخبر تحركات الأمير رمضان من خلال بعض العربان الذين سلطهم عليه وأنه لف خلف القلعة وصنع كميناً للخيول والهجن قوامه عشرات المئات من الجند المسلحين ، وإذا بنا ـ أنا والأميـر رمضان » ـ نسـاق سوق الأبـل نحو الإسـطبـل السلطاني وإذا بـالجنـد يجمعون كل الأسلحة من رجال رمضان ، فلما صرنا أمـام الأسطبـل السلطاني نزلنا وتركنا الخيـول تدخـل ، وأقتادنـا الجند إلى داخـل القلعة وإذا بـالسلطان جالس في انتظارنا وعرفت بالفهلوة أن السلطان وصله الخبر فرجع في التو إلى القلعـة ، فما أن اقتـربت من باب غـرفته حتى كـان « رمضـان » قـد اختفى ، فدخلت فوجدت « آق سنقر » نائب السلطنة وبعض الأمراء الكبار يجلسـون مع السلطان ، قـال السلطان لما رآني : « دي آخـرة عشمي فيك يـا طـرشجي يـا حلوجي ؟ » . قلت له : « مظلوم والله يـا أبو السبـاع » . قال : « معلهش » . ثم أمرني بالجلوس في تسامح الذي يعرف أنني تورطت رغماً عني .

وكـان الليل قـد إزداد عمقـاً وظلمـة والجميـع واجمـون وجـومـاً تتخلله ابتسامات ساخرة متهكمة ، أخيراً وقع السلطان رأسه نحـو « أرغون العـلاني » قـائلاً لـه : « أقبض على كل اخـوتي يـا أرغـون . . نعم اقبض عليهم جميعـاً كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وانثاهم . . حتى أمي هي الأخـرى اقبض عليها ! » ، امتثل أرغون العـلاني للأمـر في الحال ونهض متحفـزاً فصحت أنا رافعـاً يدي كالحاج سيد خليفة في قريتنا : « طول بالك يا جدع منك له . . يعني أيه يقبض على أمك ؟ . . استنى شويه . . دي مهما كـان أمك حملتـك تسعة أشهـر في بـطنها وأرضعتـك وتحملت مصائبـك ثم أنها داخت على مـرضك الأخيـر بين

السحرة وقارئي الفنجان ». اكفهر السلطان وجحظت عيناه وصاح : « لهذا أنا الآن مصر على القبض عليها . . قلت له : « لمؤاخذة تبقى غلطان » صاح السلطان في حسم: «يا أرغون اقبض على الطرشجي الحلوجي هو الآخر»، فجلست من ذعر صائحاً: «لا يا عم . . أنا غلطان . . أنا قليل الأدب . . روح يا عم ارغون اقبض على أي حد يعجبك مع السلامة ». وهنا نظر « أرغون العلاني » إلى السلطان نظرة ذات معنى فشوح له السلطان قائلاً : « خلاص . . المرة دي سماح . . روح يا طرشجي ساعده في القبض عليهم » فنهضت متحمساً وأنا أصيح : « حاضر يا مولاي . . هؤلاء ناس يجب القبض عليهم بالفعل حتى أم سعادتك . . نعم هي والجميع يجب القبض عليهم وايداعهم السجن مدى الحياة »، ثم خرجت مع « أرغون العلاني » فوصلنا بيت رمضان يحرسنا عدد غفير من الجند المسلحين ، وقفنا إلى بعيد وأرسلنا بعض المماليك والخدام يطلبون « رمضان »، فعادوا إلينا بوجوه مكفهرة عرفنا منها أن « رمضان » شتمهم وامتنع عن المجيء ، فصرخ فيهم « أرغون العلاني » أن جروه بالقوة وهاتوه ، فما أن اتم كلامه حتى أطلت أم رمضان وبصوتها الحياني شتمت « ارغون العلاني » شتيمة مفزعة فرد عليها الشتائم ولكن بقليل من التحفظ ولكنها ردت على رده وظل الإثنان يتبادلان الردح بالصوت الحياني مدة طويلة عبر النوافذ، إلى أن تعب « أرغون » من الردح فبعث جماعة إضافية من المماليك والخدام يجرون رمضان من ثيابه أو من رقبته وإذا برمضان يخرج إليه في عشرين مملوكاً يحملون السيوف المصلة ، وسأل من على بعد عن النائب فقيل له أنه عند السلطان مع الأمراء ، فمضى نحو باب القلعة وسيوف صحابه مصلته . ركب على خيول الأمراء ، ومر بمن معه إلى سوق الخيل تحت القلعة فلم يجد أحداً من الأمراء فتوجه إلى جهة قبة النصر وتوجهت خلفه لأرى ماذا سيفعل وكان « أرغون العلاني » يتصور أنه ذاهب إلى السلطان من تلقاء نفسه فأعطاه هذا الحق ، لكنني فوجئت بالأمير « رمضان » يتجاوز قبة النصر خارج القاهرة ويقف هناك ومعه الأمير « تكا الخضري » وقد اجتمع الناس عليهم ، فعدت أجري إلى القلعة فوجدت السلطان يخرج محمولاً بين أربعة لما به من الإسترخاء . وركب

النائب وأميراخور وقماري وجماعة أخرى ، وأقام أكابر الأمراء عند السلطان وقمت أطلبهم تحت القلعة ، وضربت الكوسات حربياً فقلت يا للمصيبة ها هي ذي نذر الحرب قد دقت فكيف يفعلها الصغار ويقع فيها الكبار أمثالنا ؟ هذا ولد صغير وراسه ناشف حقاً وربنا يستر ، نزلت النقباء في طلب الأجناد ، تماماً كما يحدث لدى أي شروع في الحرب ، وتوجه النائب في اجناده والمسلحين بكامل عدتهم وعتادهم وتوجهت معهم . كمستشار أيضاً ـ إلى قبة النصر . . وقف بنا النائب تجاه رمضان الذي فوجئنا بأنه قد جمع حوله طائفة كبيرة جداً من أجناد الحسينية ومن مماليك تكاو العامة . . الحق لله انزعج النائب وأيقن أنها الحرب لا محالة ، فقال : « ما رأي الطرشجي الحلوجي »، قلت كأي مستشار مركون على الرف في أي جهة حكومية « الرأي لكم » ، قال : « عد إلى السلطان وأخبره بما رأينا عليه الحال » فعدت في حراسه مشددة إلى السلطان تحت القلعة واخبرته بما رأينا عليه الحال ، فمن شدة ما انزعج نهضت قوته وقام قائماً على قدميه بعد ما كان ينسى من نفسه من عظم استرخاء اعضائه ، وأراد الركوب، فقام الأمراء وهنؤوه بالعافية وقبلوا له الأرض وهونوا عليه أمر أخيه رمضان ، ولا زالوا به حتى جلس مكانه وعدت أنا إلى النائب لابلغه برغبة السلطان في اللجوء إلى المفاوضة الذكية. فلما قلت للنائب هذا قال: «إذن فقم أنت بهذه المهمة»، فذهبت إلى «رمضان» من طرف النائب وقلت له إنه يلعب بالنار وأنه سوف يتسبب في اسالة الدماء تغرق الشوارع ، فلم يحد عن موقفه ، فعدت إلى النائب وأبلغته ، فأرسلني إليه من جديد لاعده بالجميل وعدم الغدر ، وصرت مثل « هنري كسنجر » في رحلة المكوك الشهيرة بيننا وبين دويلة إسرائيل ، ولكن « رمضان » لم يلتفت إلى أي وعد ولم يستمع إلى أي قول فعدت يائساً إلى النائب . فقال النائب : « إذن فلا مفر من الهجوم عليه . . "لهم أني قد بلغت . . اللهم فأشهد . ثم دق طبلة الحرب التي بعدها مباشرة يتم الهجوم الشرس ولكن العامة ما أن سمعوا دق الطبلة حتى ارتخت ركبهم وانفلتوا هاربين تاركين رمضان في جمع قليل من المماليك هو و « تكا الخضري »، فلما رأى « رمضان » هزيمته وشيكة انطلق يجري بمن معه في

البرية اندفع الأجناد خلفهم يطاردونهم بالنشاب ، وكانت ساعتي وقد قبضوا على « رمضان » و « تكا الخضري »، فأمر السلطان بالتحفظ على رمضان واخوته ويأن يوضع كل مماليكه في الحبس. . ونهض ليتناول العشاء ويدخل إلى السرير.

دلفت وراءه وكنت انتظر أن يصرفني بحجة أنه مرهق وفي حاجة إلى النوم ، ولكنه اعتدل جالساً واستبقاني قائلاً أنه لأول مرة يحس أن الدنيا غير سارة على الإطلاق ، وإن كل شيء فيها ما لم يكن نابعاً من أرض طيبة فلا معنى له ولا ضرورة ولا وجود على الإطلاق ، قلت له يا أبا السباع إن الشراسة عدم المؤخذة متأصلة في عائلتكم ، أقصد أن اخوتكم سرعان ما يتقاتلون . قال أنها السلطنة . قلت أنه الجنون بالسلطنة . قال أن أباه الناصر محمد لم يخرج من السنة التي اتبعها أبوه الملك المنصور حين تزوج بأكثر من واحدة ، وغيره كانوا يرتعون بين الجواري فيقذفون إلى الوجود ولداناً لا حصر لهم ولم يكن يحدث القتال بينهم هكذا ، أما نحن فالقتال ينشب بيننا بكل بساطة لماذا ؟ كانت السلطنة مثار خلاف بين الأخوة في كل العصور والدهور ولم يكن يصل الأمر إلى حد الغدر والقتل وسفك الدم بهذه الصورة . قلت له يا أبا السباع أما عن القتال فإنه حدث في كل العصور والدهور وبين كل الأخوة وابناء العمومة حول كرسي السلطنة ولكن القتال كان يحسم في النهاية لصالح جماعة كبيرة هي على التحديد تلك التي شاركت في القتال ضد جماعة أخرى ، أي أن القتال كان يتم جماعة ضد جماعة كل جماعة بتسلطن عليها سلطان وكل سلطان يمثل أحلاماً تنهض عليها بلاده أو جماعته ، أما القتال بينكم يا أبناء قلاوون فهو قتال شخصي فرد لفرد والغلبة لمن يستعفي على أخيه ويشتري الجند . هل تريد أن تعرف السبب يا أبا السباع يا مولاي؟ قال: نعم. قلت إذن فاعلم أنه لا سبب سوى أنكم في الأصل مماليك ، جدكم المملوك للملك الصالح نجم الدين أيوب انتزع السلطنة من أهل السلطنة فورث أبناءه، غريزة انتزاع السلطنة. وكان السلطان أبو الفداء ينظر لي في شراسة وأرى في عينيه نية القبض عليّ . وما انقذني من هذه اللحظة سوى دخول المرسال يبلغنا نبأ وقوع السلطان السابق أحمد في الأسر .

الفصل الثاني والعشرون

الجواري السود . . والعيون الزرق ! !

بعد إنصراف المرسال مال علي السلطان الملك الصالح أبو الفداء إسماعيل قائلاً : « لا تصدق ما سمعت . . أنهم يبلغونني هذا الخبر ظنا منهم أنه يساهم في اشفائي ». فسألته إن كان يظن القوة المطلقة في أخيه الناصر أحمد فأجاب أن الناصر أحمد ليس على شيء من القوة ولكنه على شيء من الثراء فقد نهب الخزانة وحملها معه إلى الكرك ـ يقصد طبعاً خزانة الدولة لا خزانة البنود . ثم أضاف جلالته بأن مهمته الآن هي استنزاف الملك الناصر أحمد حتى تنفذ كل مدخراته فيضطر إلى تسليم نفسه وحينئذ ربما حصل على العفو السلطاني . قلت له فما العفو السلطاني يا أبا السباع يا مولاي ؟ قال هو أن تعلن عفوك ـ وأنت سلطان ـ عن عدو أو مناوىء لك بعد أن تضعه في الحبس والقيود . قلت : ما أحلاه من عفو ، ثم أن السلطان الصالح ممدد ساقيه الرفيعتين كساقي العنز حمراوين مبذورتين بالشعر الأحمر والأسود والرمادي ، وكان ساكناً عاقلاً كما سمعت عنه وكما أكد لي صاحب السلوك المقريزي صاحب النجوم الأتابكي، كان بالفعل قليل الشر كثير الخير هيناً ليناً بشوشاً، وكان شكلاً حسناً حلو الوجه أبيض بصفرة وعلى خده شامة ، رتب دروساً بمدرسة جده المنصور قلاوون ـ أو القبة المنصورية ، وجدد جماعة من الخدام بالحرم النبوي كما أن له مآثر كثيرة بمكة واسمه مكتوب على رباط السدرة بحرم مكة . . وكان في العشرين من عمره لحظة كنا جالسين معاً تلك الجلسة حين وصل إليه خبر انتهاء العمل في قاعة الدهيشة بالقلعة التي كان قد أمر ببنائها

لتكون مجلسه الخاص . حينئذ كاد يطير من الفرح ونـظر لي نظرة ذات معنى قائلاً : « قدر لك يا طرشجي يا حلوجي أن تفتتح معنا قاعة الدهيشة ولولا فألها الحسن مـا نجوت من يـدي». قلت: «فلمـاذا سميت بـالـدهشـة أولاً؟» . قـال: « لأنها لا بد أن تدهشك فور رؤيتها . . هكذا طلبت أن تكون وهكذا كانت » . قلت : « فلماذا كنت تدبر لي شراً ؟» قال : « لأنك طرشجي حلوجي لا تحسن الكلام وأن ضمنته صدقاً ورأياً ذا موضوع . . أعلم يا طرشجي يا حلوجي أنك سوف تعيش تعسا مدى الحياة لقلة مـا تملك من المداهنـة والنفاق . . لسـوف يكـون عيشك نكـداً وعلاقـاتك مزقاً ولـربمـا فشلت في كـل العـلاقـات حتى بأبنائك . . لكنك مـع ذلك سـوف تبقى في الضمائـر ما بقيت لكلمـة الصدق رجاحة في الأذهان وما بقي للرأي الصريح تعزيز في المجتمع . . لك الله على كل حال . . هو لن يتخلى عنك فلا بد أن يكون هناك من يفهمك ويأخذك على راحتـك ». حقيقة لقـد انبسطت من كـلام السلطان وشعرت بخجـل عـظيم ، وتـأكدت من طيبـة قلبه وحسن إدراكـه للأمـور ، فقـد تعلمت من أهـل العلم والحكمة أن طيب القلب وليد لإتساع الأفق كلاهما صفتان أن وجدتا في شخص اتسع صدره لعديد من النماذج البشريـة المعقدة من امثـالنا ، لأنـه بطيب قلبـه واتساع افقه يستطيع فهم الشخص على حقيقته .

فما أن أتممت هذه المقولة حتى دخل من أبلغ السلطان خبر الانتهاء من أمر « تكا الخضري » . .

هو ماء من تحت تبن كما نقول في امثالنا العامية ، فحيث يبـدو أنه نقي السريرة بريء من العبث يتضح شيئاً فشيئاً أنه ولد « مقـطع السمكة وديلهـا » . ففي الصباح الباكر حين أعدت الأمتعة وأخذنا أهبتنا للسرحة رأيت حركة غيـر عادية حول غرفة نوم السلطان ، عشرات من الجواري السود لا مثيل لجمالهن بين البيض ، وجوه برونزية لأمعة كأنها تماثيل منحوته من خشب الصندل المعطر بإزميل بارع ، كن جميعاً في حالة زأطة وكن أيضاً يتحدثن في ود مسرحي وأن كانت الغيرة بارزة في العيون النجل ، وجاءت أم السلطان من الـداخل بثيـاب الأطـلسي الملون وعلى رأسهـا ـ مثلما على رؤوس كـل الجواري ـ الـطراطيـر

الجلد البرغالي أي أنـه من جلد الفرس المبـطن بجلد ذئب ، والطراطيـر كلها مـرصعة بـالجواهـر واللآلىء . وكنت قـد لبست ثيابي أنـا الآخر وجئت لأوقظ السلطان وأضع نفسي رهن مشورته ، فلما وجدت أن كل هاتيك الجواري جئن لإيقاظه زاحمتهن حتى وصلت إلى غرفته فـطرقت بابهـا فقال السلطان : « مين اللي بيخبط ؟». قلت له : « أنا يا أبو السبـاع ». قال : « حـالاً يا أبـو شلبي » وحسست من نبرته أنه في غاية الإنشغال فقلت لـه : « طب أنا حـاسبقك على تحت ». قال : « راحتك . . أنا جاي وراك حـالاً ». ونزلت أجـري إلى تحت القلعة . فرأيت ميدان صلاح الدين في حالة غير عادية ، تلون فجأة بألوان زاهية متعددة هي على التحديد ألوان ثياب الجواري وجواهرهن المتلألئة ، كن الورود المنتشرة هنا وهنـاك فعرفت أن لهن بيـوتاً خـارج القلعة يجئن منهـا في أوقات معلومـة غير أنني كنت أرى العجب منهن : رأيت أنـاساً من عليـة القـوم ذوي أشكال محترمة جداً يستوقفون بعض الجـواري ويقبلون أيديهن بسـرعة ويعـطيهن مظاريف مغلقة ، فسـألت واحداً من العـامة وقف بجـواري يتفـرج : « هـو هو (نقوط »؟» ضحك الحرفوش الأزعر وقال أن المظاريف المغلقة تحوي والعياذ بالله رشوة »، قلت : « رشوة للجواري ؟». قال : « نعم . . رشوة وقصة » . . . قلت : « كيف ؟» قال الحرفوش الأزعر : وكل من قدم مظروفاً لجارية وضع في المظروف قصة شكواه ووضع أيضاً مبلغاً من المال مقابل قيامها بالوساطة له في حـل مشكلتـه ». قلت : « هـل بلغت سلطة الجـواري هـذا الحـد ؟». قـال ضاحكاً : « الست تعيش في هذه الديار؟ . . إن الجواري هن أقوى حكومة في هذه الديار ». قلت : « فما رأيـك في السلطان ؟». قال : « طيب وابن حـلال ـ عيبه أنه يعشق الجواري السود إلى حد أكبر من عشقه للسلطنة وللديار ولكل شيء ». قلت : « كسبنـا صـلاة النبي . . أخـوه يعشق الكـركيين وهــو يعشق الجواري السود فـلا بأس ». ثم نـظرت فرأيت المـوكب على وشك الإكتمـال فجـريت نحوه لاهثـاً حيث وجـدت السلطان في انتـظاري واقفـاً . قلت لـه : « لمؤاخذة يا أبو السباع ». صاح : « كنت فين يا أستاذ ؟». قلت : « كنت أفك حصري ». قال : « أين ؟». قلت : ها هنا تحت جـدار بيت قديم ». أرتفعت

حواجبه من الدهشة وقال في كثير من الغضب : « تنزل من القلعة لتفك حصراً في الشارع ؟ أما صحيح طرشجي قليل الذوق ». قلت : «عفوك يا أبا السباع » وانحـزت إلى جواره في بـلاده ولوي شفتيـه في اشمئزاز ، ثم أن المـوكب بدأ بركوب بعض المماليك المقربين ومضوا في المقدمة . ثم ركب خلفهم أربعـة من كبار الأمراء يحوطهم رهط من الجند المدججين بالسيوف والخناجـر ، كل أمير يـتحوطه مجموعة من الفرسان ، ثم تقدمت سيدة سوداء أراها لأول مرة ، فلما حادت السلطان ارتعشت الأبتسامة النشوانة على ثغريها معاً وكدت أسمـع لقلب السلطان دقات نبض عالية فعرفت أن هذه هي محظيته الكبيرة وتعجبت من عدم وجود شيء في ظاهرها ما يمكن أن يكون سراً في تعلق السلطان بها اللهم إلا بقايا من جمال غابر ، لكن شيئاً غيـر طبيعي كان يبـدو على محياهـا ، ثمة شيء مجهول لي يقول أنها شخصية غير عادية . بكل ثقة واتزان وسرور ركبت الكديش وأحسنت الركوب. خلفها مبـاشرة ركبت مجمـوعة من الـرجال يحملون آلات موسيقية كالعود والكمـان والأرغول والـطبلة والدفـوف والقيثار، ثم ركبت أم السلطان الأكـاديشي في مـائتي إمـرأة بثيـاب الأطلس الملون وعلى رؤوسهن الطراطير المرصعة بـالجوهـر واللآلىء وبين أيـديهن الخدام الـطواشية. ثم ركب السلطان في رهط من الخدام والطواشية والمماليك كادوا يحجبونه عن الأبصار، ثم ركبت أنـا الآخر وانـطلقت في اثره ، ثم نـظرت خلفي فـإذا بي أرى نسـاء كلها ذات القشدة يـركبن الخيول العـربية بـالكامليـات الحريـر ويلعبن بالكـره في مرح ودريه يتقادفنها من فوق الخيول ، فلما استهزأ الحصان بي باعتباري غشيماً أخذ يتلكأ وأنا فرح به وأقول لعله يدخل بي في الكوكبة الأخيرة لأمتع انفى بشم هذه الروائح الشهية ، لكن الحصان الخبيث سرعان ما اعتدل وأستأنف السيـر النشيط فانتبهت إلى أن ثمة من استشاره وإذا برجل كبير الحجم يوحي بأنه كبير المـركز أيضـاً يمشي بحصانـه جـواري ويبتـدرني قـائـلاً : « صبـاح الخيـر يـا حلوجي ». نظرت في وجهه : « مين ؟». قال : « أنا عنبر . . مش عارفني ولا أيـه ؟». قلت : « لم يحصـل لي الشـرف بعـد ». قـال : « محسـوبـك عنبـر السحـرتي . . لالاة السلطان ». قلت : « أهـلاً وسهـلاً ولكن مـا معنى لالاة

هذه ؟». قال : « اللالا كلمة فارسية معنـاها المـربى الأول ». قلت صائحـاً : أ . . . ه . . دلوقت بس فهمت يعني سويقة اللالا » قال : « ماذا ؟». قلت : « لا شيء ولكن أهو أنت إذن ؟». قال : « ماذا تقصد ؟». قلت : « لقد سبقتك إلي اخبارك الطيبة السارة ». قال : « مثل ؟». قلت هامساً في لهجة ودود : « هنيئاً لك يا عم . . أنت كبير الخدام والطواشية ومطلق اليد في الحكم . . وبسببك صار للخدام والطواشية سلطان عظيم يحكمون به ». ابتسم « عنبر السحـرتي » في دهاء كبير وقال من بين أسنانه : « شف يا طرشجي يا حلوجي . . مسألة أن يحكم الخدم والطواشية هذه ليست جديدة . . وإلا فمن الذي كان يتسلطن على هذه الديـار منذ سنـوات ؟ أليس هو المنصـور قلاوون جـد السلطان أبي الفدا ومملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب ؟ . . الحكاية كلها خدم في خدم . . والسلطنة في الديار المصرية لا تسألك ما هو اصلك ولا ماذا ستقـدمه للشعب إنمـا تسألـك ما هي قـوتك لتحتفظ بـالأريكة إلى مـالا نهايـة ؟ . . نحن خـدم وطـواشية أي نعم ، ولنـا بعض القوة في الحكـومة أي نعم ولكن هـل يعترض الخدم على الخدم ؟ . . فدعك من هذا وكل ما سمعته غير ذلك عني ». قلت : « كـل خير طبعـاً . . من ذلك مثـلاً أنك تقتني البـزاة والسناقـر ، وتـركب إلى المطعم ، مطعم الطيور المخصصة للصيد ، ذلـك الذي ينـزل إليه السـلاطين حيث تطلق البازدارية طيوراً أعدوها لذلك ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها كنوع من التسلية والرياضة السلطانية . . وعلى فكرة هذا المطعم قد أصبح في عصرنا نحن جبانـة يسمونهـا الغفير . . وأنت تتصيـد بثياب الحـرير المزركشة وتتخذ لك كفاً من الصيد مرصعاً بالجوهر . . وتعمل لـك خاصكيـة وخداماً ومماليك في خدمتك ».

أوشك « عنبر السحرتي » على الغضب لكنه كظم غيظه صائحاً : « شغل تجسس هذا أم تخابر ؟». قلت : لا . . شغل عبط لا أزيد ولا أقل . . ولكنني أنصحك لله . . فقد ثقل أمرك ـ كما لاحظت ـ على أكابر امراء الدولة ». اكفهر وجهه ، تمتم : « هكذا ». قلت : « نعم . . لقد اكثرت من شـراء الاملاك يـا عنبر ومن التجارة في البضائع يا عنبر ، كـل ذلك لكـونك لالا السلطان . . ثم

أنك أفردت لنفسك ميداناً تلعب فيه الكرة . . وتصديت لقضاء الأشغال . . وقصدك الناس ، فصارت الاقطاعات والرزق والوظائف لا تقضي إلا بالخدام والنساء ». زام « عنبر السحرتي » في غيظ وهز رأسه قائلاً : « أنهم يحقدون على وهم أجرأ من رأيتهم فدعك منهم ». وكان الحوار قد شغلنا وبث النشاط في الحصانين فخرجا بنا عن إطار الموكب وصرنا نمشي بمحاذاته وإذا بنا فجأة في محاذاة السيدة السوداء التي استلفتت نظري والتي تبادلت الإبتسام مع السلطان ، فتمهل عنبر وغمز لي أن أتهمل أنا الآخر فتمهلت حتى تقدمت هي وسبقتنا من جديد فقلت له : « من هذه ؟» قال : « أنها إتفاق »، قلت : « ماذا ؟» قال : « إتفاق . . هذا هو اسمها . . وشغلتها عواده ، أي متخصصة في العزف على العود ». قلت : « يا للعجب . . أيحبها السلطان ؟». قال : « يعشقها إلى حد الوله ». قلت : « يعشقها كجارية أم كعوادة ؟». قال : « الله يعلم . . لعله يعشق الجانبين معاً . . ولكنه يجزل لها العطاء بلا حساب . . وإكراماً لخاطرها قرب منه أرباب الملاهي وخاصة المطربين ». قلت : « هو فنان إذن ». قال عنبر : « ولكنه ان جلس بين يدي اتفاق واستسلم لأنغامها وأصوات مطربيها فربما لا يقوم أبداً حتى لو اشتعلت الديار المصرية بالنار ». قلت : « آدي عيبة ». ثم قال عنبر : « ألم تعلم بأنها ولدت منه ولداً ذكراً ؟». قلت : « أمعقول يا راجل ؟». قال : « وفرح بها وعمل لها مهما بلغ الغاية التي لا توصف ». قلت : « ما شاء الله . ثم لذت بالصمت حتى وصلنا إلى الهرم فتركنا الخيول وانتشرنا في الخلاء قليلاً ثم عدنا فتجمعنا في جلسة كبيرة تحفها حوائط حريرية مزركشة ، وكان السلطان يتصدر الجلسة فوق الحشايا ، وإلى جواره « اتفاق » ومن حوله المحظيات وكانت أمه مشغولة بإعداد الطعام ، فلما أهلت أمتد السماط فوق الأرض حافلاً بالطيور المشوية والمقلية وبكل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب . وبدأنا الأكل وكان السلطان يمزق نسائر الطير المشوي . يلقى بها في فم « اتفاق » وهي تفعل أيضاً نفس الفعل ، فلما شبعنا رفع السماط بسرعة وجيء بالأكواب والقراير وبدأ العازفون يستخرجون آلاتهم ويقومون بما نسميه « بالدوزنة » أي ضبط الآلات وشدها ، وراقبت وجه

السلطان فوجدت علائم السرور والبهجة واضحة عليه والاصفرار الذي في بشرته البيضاء يختفي ليحل محله اللون الأحمر المنفعل ، ثم أن العزف بدأ جماعياً في أول الأمر ثم انفردت كل آلة بمعزوفة مستقلة تشاركها بقية الآلات مشاركة جانبية ، ثم تنحنح مطرب وبدأ يغني أشعاراً بالعربية الفصحى مصحوبة بأنغام كالبشارف التركية ، فلما انتهى من غناء مقطوعته بدأ مطرب آخر وثالث إلى أن سخنت « اتفاق » وقدمت فاصلاً من العزف على العود يشيب له رأس الطفل من فرط الإبتهاج حتى لقد خيل إلى أن السلطان يكاد يتلاشى . وكنت أنوي الجلوس أمامها إلى ما لا نهاية ولكن يبدو أن السلطان قد لحظ ذلك فحركته الغيرة فمال على أذني هامساً : « أريدك تقوم بمهمة فهل أنت مستعد ؟ . قلت : « طبعاً أنا تحت أمرك ولكن متى ؟» . قال : « الآن » . قلت : « اليس يمكن تأجيل الطلب السلطاني ؟» . قال : « وهل يعقل هذا ؟» قلت : « لك الأمر فماذا تطلب يا أبا السباع ؟» . اعتدل جلالته وانتحى بي جانباً وقال أن آق سنقر السلاري نائب السلطنة يفعل أشياء غير طبيعية ولذا فقد وجب مراقبته قبل أن يتخذ منه السلطان موقفاً وأنني ـ الطرشجي ـ مطلوب مني الأختلاط به منذ هذه اللحظة ومعرفة أمره عن قرب . أكبر عمل يصيبني بالغثيان هو التخابر أو التجسس بجميع أنواعهما حتى ولو كان ذلك في سبيل المصلحة العامة ولهذا قررت أن أستجيب لأمر السلطان في الظاهر فقط وأخذت أتلكأ حتى تنتهي « اتفاق » من العزف والغناء ، فإذا بأحد الطواشية يقبل ويميل على إذن السلطان هامساً بصوت مسموع أنهم قد نفذوا أمر السلطان وقبضوا على الأمير بيفرا أمير جاندار صهر آق سنقر المذكور والأمير « فراجا » الحاجب وأخيه « اولاجا » ,طنبغا الدوادار الصغير . لم يشعر الطواشي أنني قد سمعت الكلام ، وكذلك خيل للسلطان أن صوت العزف سيطغى على صوت الهمس فقال للطواشي أن عليه أن يؤجل القبض على بقية القائمة لحين صدور أوامر أخرى . فأنصرف لطواشي ولكزني السلطان وأمرني أن أقوم من فوري لأنهاء مهمتي على أن أعود ليه في الاستراحة من الغد حيث سيمكث هنا يومين بليلتين ، ورسم لي الخطة لبسيطة التي تتلخص في أنني موفد من قبل السلطان للسؤال عن صحته .

بهضت على مضض وطلبت ركوبه وبعض الخدم فأجبت طلبي في الحال ، وفي الحال أيضاً انطلقت إلى بيت آق سنقر نائب السلطنة .

لحظتها كان يتناول غداءه فنهض ليسلم عليَّ فقلت له : « لا سلام على أكل » فاستأنف الأكل وجلست بجواره أجيبه عن أخبار صحتي وصحة السلطان وحسن الأحوال . وطرق الباب طارق فأذن له بالدخول فلما دخل وجدته رجلاً من علية القوم بيده قصة مكتوبة ، نفض آق سنقر يده من الطعام لبرهة ثم فرد الورق وطلب قلماً فأعطيته فأستعد للتأشير ناظراً إلى الرجل قائلاً : « هيه . . طلباتك . . أقصد ما الذي في هذه القصة ؟». قال الرجل في حرج : « أقرأها يا سيدي ». وقال آق سنقر : « لا يهم . . قل بلسانك ». قال الرجل : « أبقاك الله لقد أنجبت زوجتي ثلاث توائم في بطن واحدة وأنا قليل الكسب واحتاج إلى بعض المساعدة ، فأشر آق سنقر على الورقة قائلاً : « يمنح قطعة أرض زراعية في اقليم الجيزة تقدر بعشرة فدادين لكل ولد ثلاثة وللأب فدان . . وعلى الجهة المسؤولة أن تدبرها وتسلمها له لتصبح ملكاً له إلى الأبد . . هه . . توكل على الله يا رجل ». فأخذ الرجل ورقته وأنصرف مبتسماً وقد أحسست من ابتسامته الصفراء أنه غير صادق فيما قال . فما أن خرج حتى طرق الباب طارق آخر فأذن بالدخول فدخل فسلم علينا فقال آق سنقر : « ما طلباتك ؟». قال الرجل الثاني وهو يحاول كتمان غضبه الهائل : « أنا يا سيدي ـ أعانك الله ـ صاحب القطاع الكبير في اقليم أمبابة ، وهذا الإقطاع ورثته عن أجدادي وأضفت عليه من كدى حتى وصل إلى ما يزيد عن مائة فدان وعزبة وقصر فخيم ». قال آق سنقر : « أهلاً بك فماذا تطلب ؟». قال الرجل الثاني : « أطلب أقطاعي ». قال آق سنقر : « وأين اقطاعك ؟». قال الرجل الثاني : « لقد جاءك رجل اثناء سفري وطلب منك أن تهديه له فأهديته له ولما عدت من سفري علمت ذلك ووجدت الرجل قد استولى عليه بالفعل ». قال آق سنقر : « وماذا تفعل الآن . . اقطاعك أخذه رجل غلبان . . على كل حال آختر لنفسك اقطاعاً غيره ونحن نأمر لك به ». قال الرجل : « إذا كان الأمر كذلك فإنني لا أجد أمامي سوى قطعة أرض تصل حوالي ثلاث مائة فدان وعليها عزبة وقصر ، صحيح أنه أقطاع أكبر من

اقطاعي ولكنني طمعت في كرمكم . . وهذه هذه قصتي فيها القطعة التي اخترتها » . . وقدم ورقة مكتوبة فتناولها آق سنقر وأشر عليها قائلاً : « أمرنا له بالإقطاع المذكور ». ثم أنصرف الرجل وأخذ آق سنقر يمسح يديه من لزوجة الأكل بفوطة على ركبتيه ، وإذا بصياح يرتفع خارج القاعة ورجل يطرق الباب فإذن له بالدخول فدخل يبكي ويشق الهدوم ، فقال آق سنقر : « لا تبك يا رجل هكذا كالنساء. . اجلس وقل لي ما هي مشكلتك فبعون الله نحلها لك. . فقال الرجل : « أنا صاحب الإقطاع الذي أمرتم به للرجل الذي كان هنا منذ برهة وقد تحاملت على نفسي من شدة المرض وجئت انقذ املاكي . . هذا الرجل يا سيدي هددني بأنه سيفعل هكذا نكاية فيَّ وها هو ذا قد فعل. . فربَّت آق سنقر على ظهره في حنان وقال : « لعنة الله عليه . . لكننا اعطيناه الأقطاع وانتهى الأمر فاختر لنفسك اقطاعاً يعجبك ونحن نأمر لك به . . ». قال الرجل وهو يبكي : « ليس في البلاد إقطاع يماثله ». قال آق سنقر : « إذن فبكم تبيعه لنا ؟». قال الرجل مندهشاً : « اتدفع ثمنه يا سيدي ؟». قال آق سنقر : « ليكن . . فما ثمنه الذي تريد؟ . . قال الرجل مبلغاً كبيراً فسحب آق سنقر ورقة وأشر عليها قائلاً : « يعطي الثمن الذي يراه مقابل اقطاعه » . . أخذ الرجل الورقة وانصرف . ودخل أحد مماليكه وقال أن أمرأة توفيت في الحارة البعيدة وتركت بضعة أولاد يتامى بلا عائل . قال آق سنقر: « أحضرها لتعيش هنا معنا وادخل أولادها مدرستنا وأصرف لهم كل ما يريدون على حسابنا ». وهنا كان العجب قد بلغ بي حداً كبيراً فقلت له أن ما يفعله وإن كان بدافع الطيبة وحب الخير إلا أنه يحتاج لمراجعة . فنظر لي غاضباً وقال : « ماذا تعني يا سيد طرشجي ؟». قلت : من أدراك أن هؤلاء الناس يفتعلون هذه المشاكل للحصول على هذه المكاسب الفاحشة . . أخشى أن أقول أن هذا سفه ». قال آق سنقر غاضباً : « ليه تقطع رزق الناس ؟!» قلت : هذه ليست ارزاق إنما هو نهب ونصب واحتيال ». قال آق سنقر بمزيد من الغضب : « هذا شيء لا شأن لك به »، فلزمت الصمت وقررت أن أدلي لتقرير صريح يتضمن عدم موافقتي على مثل هذه الفعال الهوجاء . لكنني فوجئت بثلاث رجال أشداء يدخلون علينا في

هيئة رجال غلابة بيدهم أوراق شكوى ، فلما أعطاهم آق سنقر ظهره انقض عليه أحدهم من الخلف فطوقه بذراعيه وانقض الثاني بحبال أخرجها من عبه وراح يكتف آق سنقر في حين وقف الثالث شاهراً خنجراً ونظرت فرأيت عدداً هائلاً من الطواشية واقفين بالسيوف والخناجر على أهبة الانقضاض لدى أقل مقاومة . ومن الحبل تم سحب آق سنقر إلى الخارج حيث وضع على حصان وانطلق يجري به مصحوباً بالحرس السلطاني ، ثم ركبت حصاني وانطلقت عائداً إلى السلطان في استراحته بالهرم ، ولحق بي أحدهم وسألني إن كنت مبسوطاً مما حدث فأجبته بأنني مبسوط ، فقال لي أن السلطان أمر القبض عليه منذ دقائق معدودة حيث بلغه أن سنقر مباطن مع الملك الناصر أحمد وأن كتبه تصل إليه فصمم ارغون العلاني على مسكه فاستجاب له السلطان . قلت في نفسي : « هذه هي التهمة الأزلية كفانا الله شرها »، ومضيت لا ألوي على شيء .

وصلت إلى استراحة الهرم فلم أجد للسلطان أثراً هناك وقيل لي أنه قد عاد إلى القلعة فجأة لأمور استجدت . فانطلقت أجري إلى القلعة وصعدت إلى مجلس السلطنة فوجدت السلطان جالساً على الأريكة ووجدت رجلاً يقف أمامه خيل إليّ أنني رأيته من قبل . فلما دققت في ملامحه اكتشفت أنه الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ، ذلك الرجل الفاضل الذي دخل في صراع مع سكان خزانة البنود واضطر إلى ترك الحي برمته والانتقال إلى بيت له في العباسية . وعرفت أن السلطان قد خلع عليه بالاستقرار في نيابة السلطنة عوضاً عن آق سنقر السلاري المذكور . وكان الأمير الجوكندار يقف ويبدو عليه الحرج فيما يقول للسلطان : « لقد تشرفت يا مولاي بثقتكم فيّ . . ولكن ليسمح لي مولاي بأن يكون لي بعض الشروط حتى أقبل النيابة ». قال السلطان : « تكلم يا أمير . . قل كل شروطك ». قال الأمير الجوكندار : « الخزانة يا مولاي . . خزانة البنود هذه التي صارت أسوأ بقعة في البلاد وصارت كالدمل الممتلىء بالصديد ». قال السلطان : « ماذا تبغى بشأنها ؟» قال الأمير الجوكندار : « نهدمها ونشرد من فيها ». قال السلطان : « لك ما تريد يا أمير ولكن هل تستطيع القيام بهذه

المهمة الخطيرة ؟» قال الأمير الجوكندار : « لسوف اتفق مع والي القاهرة وندبر للخلاص منها إذا وفقتم على ذلك » . قال السلطان : « اتكل على الله يا أمير » . فانحنى الأمير الجوكندار وسلم على السلطان وقبل يده في امتنان وبدت على وجهه علائم الراحة والسرور الشديدين ، أما أنا فقد اقشعر بدني من خوف لذيذ .

الفصل الثالث والعشرون

أعلان الحرب على خزانة البنود

لاحظت أن الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بالديار المصرية يرمقني بنظرات تكاد تكون شرسة وعدوانية ، ولولا بقية من احترامه للسلطان لوضع في عينيه بعض الأحتقار لشخصي الضعيف ، لكنه بعد أن قبل يد السلطان وجلس أخذ يلطف من نظراته ويكاد يقفز من عينيه سؤال : « أظن أنا شفتك قبل كده »، ويكاد يقفز من عيني الجواب : « أي نعم شفتني في خزانة البنود »، وأحسست أنه يضيق بجرأتي في التحرك ومخاطبة السلطان ولا يكاد يقبل منحى صفة الإنسانية ، فكرهته رغم يقيني بأنه رجل فاضل ، وعجبت كيف يمكن للإنسان أن يكره رجلاً فاضلاً ! وأجبت بنفسي على نفسي قائلاً : « إن الإنسان يكره بقدر ما في نفسه الداخلية من تلوث وحقد ، أنا مثلاً أضمر في نفسي الداخلية تلوثاً وحقداً نشأ من حساسيتي ضد الإحترام الطلق لمن يسمونهم بالفضلاء ، خاصة الفضلاء من نوع آل ملك على وجه التحديد ، لقد كان فاضلاً من وجهة نظر أن الأمور كلها مستريحة وفي غاية من الإستقرار ثم من وجهة نظر السلوك الديني فحسب ، ذلك أنه لم يكن يمانع في أن يعيش هؤلاء الأجانب ويستوطنوا الديار المصرية ويفعلوا ما يروق لهم فيما عدا شرب الخمر ولعلهم لو شربوا الخمر سراً وبعلمه لما تحرك أو انفعل ، أنه لم يكن أميراً فحسب ، ولا مجرد واحد من كبار الأمراء وإنما كان يمثل طبقة معينة من الأمراء ، لا يعنيها أمر السلطة ولذا لا تسعى إليها فأمنت بذلك نفسها من كل مفاجىء وخطر في دنيا السياسة ، وعرفت أن السلطة الحقيقية في الديار

المصرية هي سلطة الدرهم والدينار فأمنت بذلك من كل عقبة كأداء في حياتها ، وأيقنت أن مصر المحروسة موجودة طول عمرها ومنذ خلقها الله وقبل أن تتشرف البرية برسول الإسلام وهي تؤمن أن الله واحد ولا شريك له ولذا فإن الملك الديني الخاص هو ـ والمتيقن ـ جواز المرور الأعظم للسيطرة على قلوب المصريين. ولما نظرت في عيني الحاج آل ملك الجوكندار لمحت خلف بريق عينيه الذكي الوديع شراهة لالتهام الحياة وفالاً يجمع بين الخبث والبراءة . لحظتها كان السلطان ذو العشرين عاماً يجلس في شرود وقد ظهرت عليه لأول مرة وبشكل حاسم علائم الهزال والضعف الجسدي . وهنا اعتدل الجوكندار وقال مع ابتسامة لينة : « إذا سمع لي مولاي السلطان فإن لي شروطاً نسيت أن أذكرها » . من أعماق بئر بعيدة القرار جاء صوت السلطان » تفضل يا أمير . . قل كل ما تبقى » . لم تعجبني انتهازية الجوكندار ، بل لم يعجبني دخوله في الحديث هكذا وهو يرى أن السلطان يكاد يقع مغشياً عليه من فرط التعب ، فصممت على إبلاغه ، فقلت أن السلطان متعب لما بذله من جهود كبيرة في المفاوضات مع من عرض عليهم نيابة السلطنة ولم يوافقوا ، فنظر الجوكندار نحوي بغيظ فأضفت بسعادة خفية أن مولاي السلطان « اضطر » إلى الإستعانة بالجوكندار بعد أن تهرب الجميع من المنصب ، وأخذت أعيد وأزيد في هذه المعلومة في إطار إبداء الشفقة على السلطان حتى تصبب العرق من جبين الجوكندار ومع ذلك لم يتخل عن بقية شروطه بل إزداد ـ طبعاً ـ أصراراً عليها . قال : « من شروطي التي أشرطها على السلطان ألا يفعل شيء في المملكة إلا برأيي ، وأن يمنع الناس من شرب الخمر ، ويقام منار الشرع ، وإلا يعترض على أمر من الأمور » . فهز السلطان رأسه موافقاً ثم أضاف « لك ما طلبت يا أمير » .

ثم أن الجوكندار قرر الإنتقال إلى دار النيابة من فوره ولكنه تذكر أنه سوف يخسر بذلك مظهراً وأبهة لا يجب أن يخسرهما ، وفي صباح اليوم التالي أحضرت التشاريف فأفيضت عليه بالجامع من قلمة الجبل وكانت ساعتي تشير إلى يوم الجمعة الثاني عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة . وقد أديت

صلاة الجمعة بجواره ، فلما ختمت الصلاة نظرت خلفي نظرة تجاوزت حدود صف الأمراء وكبار رجال الدولة فرأيت بعض الأرمن والفرنجية من سكان الخزانة يؤدون الصلاة تعجبت كيف أتيح لهم دخول جامع القلعة . تهدمت بعض الصفوف الأمامية والخلفية بإنصراف ناس مسرعين واختلطت بعض الصفوف ببعضها ووجدتني فجأة بجوار أحد الأرمن سكان خزانة البنود الذي همس في أذني قائلاً : « الأمير خزعل يطلبك على وجه السرعة وقد جئت لأداء الصلاة حتى القاك ». فقلت به وأنا اقشعر : « ولماذا جاء معك هؤلاء ؟». قال : «جاؤوا لأغراض أخرى وربما لطلب ناس آخرين المهم أن أحداً منا لا يعرف لماذا جاء الآخر بل لم يكن يعرف أن آخر سيجيء ؟» فملت عليه هامساً راجياً أن يبلغ تحيتي للأمير خزعل ويخبره أنني في موقف حرج بعض الشيء وأنني ـ حرصاً على مصلحة الخزانة ـ سوف أضطر إلى البقاء بجوار الحاج الكوكندار في هذه الأونة على الأقل . فقال أن الأمر لن يكلفني أدنى تعب ، فقلت له أن مسألة ذهابي إلى الخزانة أمر محفوف بالمخاطرة والأشواك . قال : « ولماذا تذهب إلى الخزانة ؟ إن الأمير خزعل ينتظرك في الصف الأخير في هذا الجامع الذي تجلس فيه الآن !». أصابني الدوار والذهول ، كيف أتيح لخزعل أن يدخل هذا الجامع الخاص وهو معروف وشكله مدموغ . وكان الجوكندار قد اندمج في ختام الصلاة وقراءة بعض الأوراد حين تسللت من جواره حافياً أركض نحو الصف الأخير ، ولفت انتباهي يد ترتفع في الهواء كأنها تدعو وفي نفس الوقت تشير إلى ، كان صاحبها شيخاً مسناً ذا لحية مستطيلة كثيفة ، فلما تقدمت منه مستفسراً أنبأتني الدماء التي في خديه وجبهته والنظرة التي في عينيه أنه الأمير خزعل بنفسه فأرتعشت أطرافي وجلست جواره هامساً في أذنه : « كيف اتيح لك الدخول ؟ ». فقال كما ترى تنكرت في زي رجل متدين من علية القوم ». قلت : « لماذا . . ما الذي تنوي فعله ؟». قال : « نطلب منك طلباً واحداً تعبر به عن ولائك لوطنك ـ أقصد الخزانة ». قلت متجاوزاً من مسألة وطني هذه : « ماذا تطلب ؟». قال : خطة الحاج آل ملك وتحركاته في الأيام القليلة القادمة . . لقد علمنا أنه شرع في الإنتقام منا ورسم بعض الأولاد خطة لأغتياله

ولكنني منعتهم من هذه الحماقات وقررت قتله بشكل آخر ». قلت والرعشة تكبل لساني : « وكيف ذاك ؟». قال : « لا شأن لك ». قلت في إلحاح : « لا بد أن أعرف بإعتباري مواطناً خزانياً من الدرجة الأولى ، وبإعتباري سيكون لي دور في محاربة العدو ». قال خزعل : « سوف نستخدم في ضربه نفس السلاح الذي يضربنا به . . أنه يحارب الخمر ، وسوف نترك الخمر ترد عن نفسها العدوان . . سوف يتضح لكل أفراد الشعب ولكافة المسؤولين أنه رجل خمري مثلنا يشرب ويسكر ويفقد الوعي على الدوام . . ولسوف يتضح ما هو أكثر من ذلك . . سوف يتضح أنه المصدر الرئيسي لكل ما في المنطقة العربية من خمور متنوعة الأصناف . . سوف يتضح هذا بالدليل القاطع وإذا لم ينجح هذا السلاح في ضربه في مقتل فأننا سوف نجهز عليه نهائياً ! . الواقع لقد أحسست بالخوف يسري في كياني ، فإذا كان خزعل يستطيع أن يفعل هذا في نائب السلطنة بالديار المصرية فما الذي يستطيع أن يفعله في رجل مثلي ؟ لذلك قررت ألا أعترض ووافقته على كلامه قائلاً أنني سوف أمدهم بما طلبوه مني خلال الساعات القليلة القادمة ، ثم وقفت واستدرت عائداً لأرى الحاج الجوكندار لا يزال يتركع ويمسح على وجهه في خشوع وتبتل غريبين كأن الله بذاته يحدثه في هذه اللحظة : ايمان لا شك فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ، عجباً لحضاة الإسلام تقصف الأظافر الدامية في البشر إذا بلغتهم بذرة الايمان ولم تحتجزها صخور النفس الدنيوية ، وهؤلاء قوم اشتهروا بصلفهم وغلظة أكبادهم وتضخم ذواتهم قد غزوا بلادنا وتملكوها وبلغتهم الرسالة السماوية من خلالنا ، كنا نحن المصريين العرب معبراً شفافياً وصافياً إلى السماء ولكن لما كانت بذرة الأيمان كغيرها من سائر البذور الأصيلة تحتاج أرضاً صالحة كما تحتاج رعاية خاصة ورياً خاصاً فأنها ـ بذرة الايمان ـ فإن قلوب الغزاة بالضرورة ليست أبداً هذه الأرض الصالحة ولذا فقلما تجد قلباً يتعرض للشمس بإستمرار وتسري أشعتها في جوفه ، بذرة الايمان تجد مع ذلك بعض الأرضيين وتكون بالكاد قد نمت في شخص وثبتت لها فروع في شخص آخر وازدهرت في شخص ثالث واتت ثمارها العظيمة وأكلها في شخص رابع وهكذا ، الجوكندار تطل من أعماقه

روائح طيبة من شجر هذه البذرة لكنه فوق الأفق يهدم باليسار ما يبنيه بـاليمين ، يعترض وبقوة وصلابة ولكن على المسألة الثانوية ولو كان اعتراضـه هذا بقـوته هذه وصلابته هذه على الجوهر الأصيل للداء لكان له ولنا وللديار شأن آخر ، ثم أنه ينازل القوى الشريرة هابطاً عليها من السطح فهو أما يصيبه الـرذاذ أو يهوى إلى القاع فيكون من المغرقين . .

كانت نظراتـه ترمقني بسـرعة خـاطفة فـلا أرى فيها سـوى التوجس مني يختلط بأنفه وغطرسة تثير سر هذا الحجر ، هو صحيح يسجد لله خاشعاً فما سر هذا الكره لي وللصفوف الخلفية قاطبة ! هو صحيح يسجـد لله خاشعـةً لا عن عبودية أصيلة بل للإرتفاع بنفسه إلى مستوى الذروة ، أنه هو والله أصدقاء فهل يا ترى يتدنى ليصادق شخصاً حقيراً مثلك في الصفوف الخلفية من البشر ! . الحق لقد تحيرت لحظتها وواجهتني المشكلة الكبرى : لصف من أنحاز وقـد صرت كالحاجز الزجاجي الذي يفصل بين الدرجة الأولى والدرجة الثانيـة في اتوبيس من اتوبيسات قاهرة القـرن الخامس عشـر الهجري مـزدحم ولزج وكـريه كـريه كـريه . سـألت نفسي بوضـوح : هل أضـع نفسي في خدمـة الخزانـة واوقـع بالجوكندار في الفخ لحسابهم ؟ أم أضع نفسي في خدمة الجوكندار واوقع بأهل الخزانة في الفخ لحساب الحكومة حقنـا للدماء ومنعـاً للإضـطراب ؟ كنت في الـواقع أملك القـدرة على لعب أي من الدورين وليس في استـطاعتي أبـداً أن ألعب الدورين معاً مع أن الكثيرين من أقاربي أبناء شلبي يلعبونه بنجاح وبقدر ما فيهم من اخـلاقيات الأنبيـاء فيهم من أخـلاقيـات العميـل الـزذدوج ، أمـا أنـا فباعتباري طرشجياً حلوجياً كاتبـاً فأنني أرى وجـودي الحقيقي يتمثل دائمـاً في الأنحياز لشيء أعتز به وأقتنع بعدالته . وهنـا أطل بـرأسه خـاطر حـاد الملامـح والتقاطيع يصيح بي في نبرة ساخنة لاهية : كن مع الخزانة يـا عبيط فهي التي تستطيع ـ بانعدام مبادئها ـ أن تحميك من حملة المبادىء وبفضلها قد صعدت شخصيتك ولمعت في المجتمع فصرت مملوكاً سلطانيـاً وقدر لـك أن تجالس كبار رجال الدولة وأن تصلي الآن بجوار نائب السلطنة كتفاً لكتف وهي إن كانت قد منحت حمايتها لقطاع الطرق واللصوص فأنها منحت حمايتها أيضاً لكثير من

الغلابة والمظلومين وفاقدي الحول والطول والواقعين بين فكاك الذئاب ولذا فمن المفيد أن تظل قوة غاشمة كهذه تناهض استبداد الحكومات المملوكية وتهد من جبروتها . ولكن خاطراً أشد سخونة وأقسى ملامح أرتفع رأسه بأعماقي صائحاً : « يا رجل عيب اختشي ، هؤلاء سفلة لا أخلاق لهم وبؤرة صديد تشفى بالدود والجراثيم ساهم في تطهير المجتمع منها ، ساهم يا مؤمن في بناء بيت من بيوت الله ، بيت تقام فيه الصلاة ، وطردت من ذهني صوراً عديدة لحاملي هذه الصناديق في قاهرة القرن الخامس عشر الهجري واستجبت للخاطر الذي راح يؤكد لي أن هؤلاء سفلة فوق أنهم سفلة استحلوا الديار المصرية ـ وهي ديارك ومضارب أهلك ـ وعاثوا فيها فساداً وهم مهما أعطوك من حماية يظلون أعداءك الحقيقيين . قلت لهذا الخاطر ورذاذ التفتفة يتناثر على لساني : كلاهما عدو لي ، كلاهما لا يتورع عن ضربي بالرصاص كلما وجد أن ضربي بالحذاء يجد مني قبولاً حسناً ، كلاهما أباح لنفسه أن يستذلني ويستعبدني ويتاجر في مصيري ويبيعني من أجل ليلة هنية ، وطالما أن كليهما يملك القوة ويملك من ثم القدرة على البطش بي إن خالفت اتجاهه فأنني ـ شأن أبناء الديار المصرية ـ سأتجنبهما معاً ولا أؤازر أياً منهما وأن أعطيته ريقاً حلواً ، سأكون سلبياً وأترك أحدى القوتين تبطش بالأخرى ، أنني أكرههما معاً واحتقرهما معاً ولا نفس لي في مؤازرة أحد . انبثق خاطر دافىء طغى على كل الخواطر كمطرب قديم حريف الصوت قال لي اسمع يا طرشجي يا حلوجي أنك لا يصح أن تضع نفسك في القطيع وإلا فسحقاً لكل الثقافات التي ابتدعها الإنسان بل أنك بوضعك نفسك في القطيع تمتهن الثقافة الإسلامية نفسها لأنها تحضك على أن تكون ذا موقف مستنير وعادل . قلت والطرب يستخف بأعطافي : فلمن أنحاز وليس في الطرفين من يجدر بالإنحياز ؟ قال الخاطر بصوته الشجي الدافىء : أذكر قوله طارق بن زياد تجد نفسك في موقفه وحينئذ تصرف كما تصرف هو ، لقد كان بين طرفين كلاهما مر ، العدو من أمامه والبحر من خلفه وكان لا بد أن ينحاز لينقذ حياته وحياة فيلقه ولما كانت حياته مهددة من الطرفين فأنه أنحاز للمبدأ الذي يؤمن به ، وأنت أيضاً يجب أن تنحاز للمبدأ وإن لم يكن

ثمة مبدأ في الأمر فعلى الأقل يكون موجوداً فيك وحدك ، المبدأ أن بين عدويك عدواً يمثل شخصية الديار ويقف باسمها ، المبدأ أن تقف في صف الديار حتى وأن كـان ممثلها فـظاً غليظ القلب دخيلاً مغتصب سلطة، أنت إذن تـدافع عن ديارك لا عنه شخصياً، أن التزامك بالمبـدأ سوف يعفيـك من العذاب الأبـدي. . فقوة شريرة واحدة « أفضل » من قوتين ! أتق الله يا طرشجي ولا تساهم في أن يحكم الديار قوتان شريرتان . استخفني الطرب إلى أقصى حـد ورأيتني أنهض مـع الجوكنـدار وأنضم إليه في المسيـر وفي داخلي قـوة مجهـولـة تبعث على الإنتشاء ، ومررنا في طريق الخروج من المسجد بخزعل فـرميته بنـظرة أحتقار وتشف .

تناولت الغداء ثم العشاء على مائـدة الجوكنـدار وفي رهط من أصدقـائه المقربين من بينهم أمام مسجده الخاص الذي ابتناه في الحسينية . ولم يكن لنا من حديث طوال الليل سوى أهل الخزانة المارقين وما يهرقـونه من خمـور في شوارع المدينة وما يجاهرون به من مسخرة . وسخنت الدماء في عروقي والحق يقال ، وعجبت كيف أنني أقشعر هكذا لمجرد الاستماع إلى اخبارهـا مع أنني كنت أراها رؤية العين ولا تهزني؟! قلت لنفسي أننا في قلب الـوحل وبمـا نفقد الشعور بأننا في الوحل ونازح الكنيف لو شمر لحـظة بعمله لعاش طـول العمر قرفان ، نعم لقد فقدت الإحساس بغرابـة ما كـانت تفعله الخزانـة كسلوك عام وكواقع قائم ، ولكنني كنت أحس ببعض الأشمئزاز إذا ابتعدت قليلاً واندمجت في نظافة الشعب ، أما في مجلس الجوكندار فأنني أحس بالأشمئزاز منها حتى النخاع ، ورأيتني مدفوعاً إلى تنوير الجـوكندار بـمـا يدبـر له في الخفـاء ، إن المبدأ يقتضي إذا انحزت لمـوقفه أن اخلص لـه كل الإخـلاص ولا أخفي عنه خطراً يمكن التحصن ضده ، وكان الجوكندار قد نهض مستأذناً لقضـاء حاجـة فأردت الخروج وراءه لكي أنفرد به وأبلغه ما أخشى عليه منه ولكنني ما أن قلت له : « عايزك في كلمة » ومضيت خطوات إلى الردهـة حتى وجدتني محـاصراً بـرهط من العسكـر المتنـكـريـن في زي مـدني على أهبـة الأنقضـاض عليّ وتفتيتي ، فعرفت أن الجوكندار لم ولن يعطيني الأمان ولا الثقة أبداً مهما قربني

منه فأحسست بـألم شديـد وطفرت الـدموع من عيني ولكنني قمعتهـا بابتسـامة شاحبة خجلي وقلت للجوكندار مدارياً خجلي مما أنا فيه : « طيب بعدين أما تيجي »، وعدت إلى مجلسي كخرقـة باليـة . . وكانت مـوجات الحقـد غالبـة والبحر هائج مضطرب ورأسي لا يؤتمن، فموجة تلطمه إلى أسفل فأقرر أن أمسك السـر منه تـاركاً إياه يقع في الفـخ وموجـة تلطمه إلى منحـدر فأقـرر أن أقوم من فوري متجهاً إلى الخزانة معتصماً بها ، وموجه ثالثة تلطمه بشدة إلى أعلى فأفيق لبرهة يتكشف لي خلالها أنني قد صرت غير قادر على إتخاذ أي موقف وأنه قد حكم عليّ بالشلل النفسي . من لحظتها لم يعد لي وجـود في المجلس ، ولم تهدأ موجات الحقد إلا في الهزيع الأخير من الليل حين مـال الجوكنـدار عليّ واعتـذر بقليـل من الـرقـة عن سلوك « الأولاد » تجـاهي حيث أنهم اختيـروا لجلافتهم ، ثم قال لي : « فيم كنت تريدني ؟» وسـالت اللزوجة من ابتسـامته وأحسست أن أعتذاره برقة مفتعلة ليس بدافع أصيل بـل بهدف الضحـك على ذقني لمعرفة ما عندي من الأسرار ، فقررت عدم الإفصاح عن الحقيقة نكاية فيه ولكنني في نفس الوقت قررت عـدم المشاركـة في ضربـه زهقت من الرد على الحاحه بقوله : « مفيش مفيش » وفي النهـاية قلت لـه أنني كنت أطلب خدمـة خـاصة بي تتعلق بمصيـري كمملوك سلطاني ، فهـز رأسـه بسخـريـة واضحـة وإنصرف إلى الآخرين وانصرفت أنا إلى الكآبة المنتظرة بداخلي على الدوام .
ولما انصرف الجميع ما عداي أبديت رغبتي في الإنصـراف للنوم في جنـاحي بالقلعة . فخشي أن يعزم عليّ بالبقاء للنوم في داره لئلا أتصور أنه قد سجنني ، لكنه كان ذكياً حينما نادى رهط العسكر وأمرهم بأن يعتذروا لي وأن يكفروا عن غلطتهم بتوصيلي حتى القلعة في حراسة مشددة ، فكادت تنفقـع مرارتي وأنـا أجدني مطالباً بالشكر على الإمعان في أهانتي . لكنني كتمت غيظي ولم أوجه كلمة شكر واحدة وإنما اكتفيت بالسلام عليه والإندفاع خارجـاً فما أن امتلكت قدماي الشارع صرت أجري مباعداً المسافة بيني وبين الحرس كـأنهم لا صلة لهم بي ، فلما وصلت إلى القلعة اكتفيت بالتلويح لهم من بعيد وفي سرعة ثم دفنت نفسي في مخدعي وقلت مرحباً بالأحلام المزعجة .

فلمـا أصبح يـوم السبت نهضت من الفـراش بـدعـوة عـاجلة من نـائب السلطنة . اغتسلت وخرجت لأرى رهط العسكر نفسه في انتظاري فأدركت أنهم لم يغادروا مكانهم منذ ليلة أمس . استقبلوني بابتسام لبق وقـالوا لي أنهم وفـد الحراسة المنوط بحراستي إلى دار النيابة. فشكرتهم وسألتهم مداعباً إن كانوا قـد عادوا إلى الحسينية أم ظلوا يحرسونني حتى الصباح ، فأنكروا بكل بجاحة وكل قوة أنهم تشرفوا برؤيتي من قبـل !. وكان في صـوتهم وسلوكهم صلف وخبث وغطرسة لا يمكن أن يحبها الإنسان مطلقاً ولا يمكن أن يحب من ينتمون إليه . وصلت إلى دار النيابة وكان الجوكندار يجلس في نفس المقعد الذي التقيت فيه بطشتمر الساقي حمص أخضر من قبل . سلمت عليه ووضعت نفسي تحت أمره فقال أنه يجب أن أبقى معه فربما يستشيرني في أمر يعن له ، فشكرته على هذه الثقة العظيمة وانصرفت إلى كآبتي. طرق البـاب ثم انفتح ودخـل والي القاهـرة، فقدم فروض الطاعة والولاء وانتظر حتى أمره الجوكندار بالجلوس فجلس ، فقال له الجوكندار في لهجة خطيرة وحاسمة : « بقاؤك مرهون بهزيمة الخزانـة فماذا قلت يا والي القاهرة ». اعتدل والي القاهرة في جلسته وتلبسته حالة من الشراسة أرعبتني ، قال : « خزانة ماذا يا سيدي . . ظننتـه مرهـوناً بهـزيمة الأعـداء من الفرنجة ». قال الجوكندار : « يعني هل أنت مستعد للدخول معها في حرب ؟» قال الوالي : « حرب »، قال الجوكندار : « نعم هي لا بد أن تكون حرباً بمعنى الكلمـة ، أنهم آلاف من المجرمين المسلحين ولن يتـورعوا عن القتـل وسفك الدم ». قال الوالي : « لست غافلاً عنهم . . أعرفهم جيداً ». قال الجوكندار : « ولماذا تركتهم حتى الآن حتى استفحل خطبهم !». قال الوالي : « أسمـع يا سيدي النائب . . كل شيء في الديار المصرية لا يمكن أن يستمر بالقوة الذاتية إلا أن يكون هناك من ينتفع بوجوده من المسؤولين ـ هل تحب صراحة أكثر ؟ إن في خزانة البنود من نصب من نفسه أميراً حاكماً وأقام دولة ، وحتى وقت قريب جداً كانت المرتبات الشهرية تصل إلى عدد هائل من المسؤولين . . إن حكومتنا يا سيدي كانت مجرد حكومة في الظل تعمل لحماية الحكومة الحقيقية التي هي خزانة البنود ». أخذت أرمق الوالي بمنتهى القدرة على الاحتقار ، ذلك أنني

أعلم علم اليقين أنه كان ولا يزال من بين أولئك الذين زعم أنهم يتلقون مرتبات شهرية من منهوبات أهل الخزانة . وقال الجوكندار : « ما يهمني الآن هل أنت مستعد لها ؟». قال الوالي : « بكل قوة . . أعرف من قديم أنكم ضدها ، فما أن علمت باستقراركم نائباً للسلطنة حتى اتخذت أهبتي للدخول في صراع مع الخزانة . . وأنا لها ». قال الجوكندار : « على خيرة الله . . لا بد أن تهدم كل ما فيها من خمور وتشرد سكانها تشريداً ». قال الوالي : « اطمئن . . سوف تسمع ما يسرك ». قال الجوكندار : « إذن فاتكل على الله ». نهض الوالي قائلاً فيما ينظر إليّ : « اسمح لي بالسيد الطرشجي الحلوجي لأستدل منه على بعض المعلومات ». أشار الجوكندار نحوي قائلاً : « قم مع الوالي شف ماذا يريد ». . فنهضت وانحزت إلى الوالي الذي سلم في انحناء وخرج وخرجت خلفه . تجاوزنا دار النيابة وهو صامت مقطب الجبين شاحب الوجه من فرط الحرج. أخذت أبحث لحرجه عن سبب واضح فرأيت ميدان القلعة حافلاً بأمراء الخزانة وموشوميها. وفجأة تقدم منا أحد أمراء الخزانة بوجه باش واتخذ طريقه مباشرة نحو الوالي فألقى بنفسه بين أحضانه في شوق وهو يردد أهلاً وسهلاً كيف الحال ، مما يدل على أن ثمة صداقة بين الإثنين من قديم ، تأملت هذا المشهد ولاحظت بمتعة عظيمة معاناة الوالي وهو يحاول نفي صلته بأمير الخزانة والادعاء بأنه لا يعرفه وكان الأمير يتكلم ويفعل كل شيء بتلقائية ويذكر للوالي أنه ذهب للسؤال عنه مرة في المكتب ومرات في المنزل ومرات في كذا ـ وذكر أماكن أخرى لم يفصح عنها بغير الرمز ـ كل ذلك والوالي يحاول شد جلد وجهه كالطبلة ويحاول خنق الإبتسام على شفتيه فيما يقول بنبرة مرتعشة للأمير : « مين حضرتك . . حضرتك تعرفني قبل كده ؟!». وهنا رشقه أمير الخزانة بنظرة شرسة كاد الوالي يقع لها من طوله . وكرر الوالي في صفاقه واضحة : « لمؤاخذة مش واخد بالي منك »، ثم تركه وانصرف ، ويبدو أنه فوجيء بوجودي وبأنني لحظت هربه فشخط في دون سبب : « بلاوي أيه دي !» فقلت له بسخرية واضحة : « حد عارف أيه البلاوي دي ؟» فصرخ في : « اتكلم كويس »، فقلت له صائحاً : « اسمع . . أنا مستشار السلطان الصحفي . .

فاهم يعني أيه ؟ . ثم أنك ما لكش عندي استشارات. مع السلامة » واستدرت عائداً في احتجاج وشعرت أنه استراح لإنصرافي . فحولت طريقي وتسللت إلى ميدان بين العصرين فصعدت سطح أحد القصور التي لم تعد زاهرة وظللت واقفاً فوقه حتى الصباح لأرى أطناناً من الخمور يهرقها أهل الخزانة في الشوارع وأرى أغرب نوع من أنواع أسلحة المقاومة ، ذلك أن الدنيا فجأة قد امطرت ناساً من كل لون ومن يخوضون في أنهر الخمر ، ورأيتهم يجتازون الطريق ويوسعون نهراً يمر منه عشرات من الجنود المسلحين بالسيوف والخناجر والفؤوس، وفي الجانب المقابل وقف جسر من الدهماء ينتمي إلى الخزانة ويقذف مقذوفات رمادية اللون ترتعش وتنتفض فما أن تستقر على وجه الجندي حتى ينتفض مذعوراً فيقع أو يرتبك فيفقد في الحال سلاحه ، ولم يضع وقت طويل حتى تأكدت أن المقذوفات هي فئران حية عجبت كيف تم جمعها بهذه الكميات الهائلة وكيف احتفظوا بها في جحورهم وجيوبهم وزنابيلهم الخفية .

الفصل الرابع والعشرون

الفجر الذي لبس عباءة الله

كان يوماً مشهوداً بحق ، خلائق تضرب في بعضها مستخدمة أشد أنواع القسوة والخسة بدرجة يستحيل تفسيرها على الحقيقة لا بـد أن تحر وأنت في موقفي فوق السطح تنظر من عل : من في هؤلاء عدو من ؟ إن الجميع يرتدون ثياباً متجانسة فيما عدا الجند بملابسهم المميـزة ، أهل خـزانة البنـود يتقلدون الـزي المصري وطـائفة كبيـرة من أهل الـديار المصـرية أصبحت تتقلد الـزي الخزاني الذين جاؤوا به معهم فقلدهم الأثرياء ثم أقتدى بالأثرياء أبنـاء أنصاف الأثـرياء ثم اقتـدى بهؤلاء أبناء يتـطلعـون إلى الثـراء ، كـرنفـال من المـلابس المصرية الهندية الرومية الفارسية العربية الأندلسية لا حدود لما يثيره في النفس من بهجـة ! تمتلىء بأجسـاد وركبتهـا الشيـاطين تتقـابـل بـالنبـابيت والسيـوف والسكاكين والدبش والفئران والقطط المشتعلة بـالنار حتى منظرهم أيضاً كـان مثيراً للبهجة من إحدى الزوايا أنها الجراثيم المستفحلة تأكل بعضها وغداً تأكل نفسها . أطرف ما في الأمر أن يكون للزعر والحـرافيش حماس كـأنهم أطراف معنية كان لهـا أصالـة في الموضـوع تتحدث بهـا عن نفسها !. نـظرت ورائي فوجدت السطح يمتلىء بالمتفرجين مثلي لا أعرف أن كانوا من أهل البيت أم من أهل الحي أم من المارة لكن أحداً لا يسأل أحداً عن هذه المسألة . قـال أزعر يرتدي زي التجار الكبار : « لماذا يهاجمون الناس في دورهم ؟ مـاذا يريـدون منهم ؟» ـ وقالها بلهجة ذات معنى . فرد حرفوش لا يرتدي أي زي سـوى زي الحكمة : «قل لكليهما لماذا يهاجموننا . ماذا يريدون منا !». وصرخت أمـرأة

بجوارنا ولطمت خديها مولولة : « يا خرابي يا خرابي » . . فأمعنا النظر فوجدنا نوافير الدماء تندفع لتصبغ الشبابيك والمشربيات المجاورة كلها . وثمة صوت آمراً في ثقة وقوة : « اهـدموا الخزانة يقول لكم نائب السلطنة . . اهدموها . . معنا أيها الناس أيها المسلمون من تبغون شرع الإسلام اهدموا موطن الخمر فوق صانعيها من الفسقة والفجرة . . إن الحاج آل ملك الجوكندار يشركم بهذا النبأ : من قتل واحداً منهم أو قبض عليه بخمرة يقبض مكافأة كبيرة » . عرفت أنه صوت المنادى الذي يحمل الكثير من نبرة السلطان . ثم أندفعت خلفه أصوات يده تردد نفس الكلام بصيغ متعددة فعرفت أنها أصوات العامة والعلماء والتجار ورؤساء الجند وأرباب الخلع . ونظرت فرأيت رجالاً يخرجون من الخزانة يحملون جثثاً عديدة مجندلة أو مكسوررة ، ويحملون براميل من الخمر يدلقونها في الشوارع حتى غدت شوارع المنطقة أبحراً صغيرة عميقة من الخمر . ورغم أنها اختلطت بالتراب بالدماء بروث الأقدام إلاّ أن كثيراً من المتلصصين صبياناً وشباناً وشيوخاً كانوا يحضرون بالأواني المنزلية يملؤونها من أبحر الخمر . . حتى هذا الغثاء له من يشربه ويجد فيه المتعة ! . .

ثم أن جموعاً هائلة وفدت تحمل الفؤوس والكريكات والآلات الحادة أتخذت طريقها إلى الخزانة مباشرة وأخذت تعمل فيها تقويضاً وتهديماً ، وعرفت أن مرئيات كثيرة قد حدثت من وراء الخزانة في الشوارع الخلفية غير المتاح رؤيتها لي . نزلت أجري ، وكان مظهري كمملوك سلطاني واضح للعيان يثير حولي نظرات الريبة الممزوجة بالتقدير والممالاة . كأننا في قاهرة القرن الخامس عشر الهجري حيث تتحول الشوارع إلى أبحر تسبح فيها الجراثيم الإنسانية بفعل قليل من المطر أو إنفجار ماسورة من مواسير المجاري كانت أبحر الخمر تمنع الخلائق من السير ، ومع ذلك يتبسم الحرافيش بمختلف أزيائهم وهم يشمرون ثيابهم ويفعلون حركات يعجز عن فعلها البهلونات لكي يخترعوا لأنفسهم طرقاً تجنبهم البلل والأوحال ، برغم ذلك يلقون النكات الحارقة يسخرون بها من أنفسهم ومن قدرهم ومن كل شيء في الوجود ! . . قال أحدهم أن الأرض قد سكرت من أبحر الخمر . . وقال آخر أنها لم تعد تحس بوقع

خطى الأعداء . . وقال ثالث أن ساعة الحظ سوف تطول بها إلى فجر بعيد يجيء ولا يجيء . . فقال رابع أنه ـ الفجر ـ وقد جاء منذ شرعنا في هدم خزانة البنود وطرد الخمور منها . وقال خامس أن كلام صاحبه صحيح وأننا لا نرى الفجر الذي رصدته أجهزة الحكومة . . فقال سادس أننا لا نرى الفجر لأنه يلبس زي الليل البهيم . . فقال سابع من آخر الشارع : الليل بهيم هو الآخر ؟ ظننت أننا وحدنا ننتمي إلى قطيع البهائم . . فقال واحد تمكن من صعود ربوة : بهيم يعني من فرط سواده صار مليئاً بالأسرار المبهمة . . فرد عليه آخر من شباك : أفهمت إذن يا بهيم ؟ . . وهكذا تضيع المأساة وتفتت في القلوب المصرية فكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا . .

أشم رائحة المكان وأعرفه وأن تغير شكله ، الست مصرياً ؟ الست دون شعوب الأرض قاطبة يمكن تسميتي بحيوان جغرافي ؟ أنا المصري أعلى درجة في المواطنة وليس في الأرض من يحس بالمواطنة مثلي . أنا مواطن ككلب ، فإذا كان الكلب سجين المكان لأنه لم يتمكن ـ كجنس ـ من هدم الفاصل الوهمي في ذهنه بين المكان والزمان فصار تبعاً لذلك سجين زمن بعينه فأنني وأبناء شلبي نتميز بقدرتنا العظيمة على تقديس المكان وتمثيله أي صنع تمثال له ، وهذا التمثال مصنوع من مادة الزمن ، والزمن مكون من عناصر كثيرة على رأسها البشر أشم الآن رائحة « أم الغلام » ـ أي المسجد الذي يضم ضريح أم الغلام خلف مسجد الحسين مباشرة ، أنه زمن بقدر ما هو مكان ، ورائحته في أنفي مجسدة في مرورنا حوله وأمامه في قاهرة القرن الخاس عشر الهجري ، وكنت لحظتذاك قد بدأت أخطو فوق هديم تخلف من خزانة البنود فعرفت أن مسجد أم الغلام قد بنى فوق هذه البقعة بعد ذلك ، العجيب أنني شممت أيضاً رائحة أزمنة أخرى لم أعشها ولم أرها ولم أسمع عنها من قبل ، وقديماً قال الحكماء الشعبيون : ما هو المكان الذي تحس أن له تاريخاً ؟ قالوا هو المكان الذي إن جلست فيه وقمت عنه أحسست أنك محتاج للرجوع إليه ثانية وثالثة ورابعة ! . .

عند كيمان الدراسة الواضحة عن قرب رأيت مجموعة تلتف حول بعضها

ويلتف حولهم جميعاً لفيف من العسكر المسلحين بالأسلحة الثقيلة فعرفت أن هؤلاء هم فريق نفد بجلده من خزانة البنود قبل تهديمها . خطفت الطريق البهم ، انطلق صفيرهم وجعيرهم بشكل هز كياني وأرعدني خاصة أنهم كانوا يشيرون إلى وإذا بهم يبرطمون بأقوال معناها ـ كما فهمت ـ أنني من بينهم وأنني يجب أن أنضم إليهم إذا أردت أن أحتفظ بحقي في البقاء في القاهرة ! تأملني العسكر بحذر وارتياب وتمهلوا قليلاً قبل أن يظهروا عدم الممانعة في أنضمامي إلى أهلي وعشيرتي ، فابتسمت لهم شاكراً وقلت لهم على استحياء أنني مملوك سلطاني من مماليك السلطان أبي الفداء إسماعيل وأنني المستشار الصحفي للحاج آل ملك الجوكندار . فقالوا لي ما معنى المستشار الصحفي ؟ فقلت لهم يعني أن يختار الحاج أو الشيخ أو الرأسمالي شخصاً سبق له أن اشتغل بالصحافة لكي يصطحبه معه في كل مكان استكمالاً للأبهة . فبدا عليهم أنهم لم يفهموا شيئاً من قولي وإن كانوا قد أزدادوا تقديراً لشخصي ، ثم أنني أرسلت البصر بين الأسرى فسابت ركبي من رعب غامض مجهول إذ اكتشفت أن معظم الناجين من الموشومين وبعض الأمراء ، وقلت لا بد أن خزعل قد كان أول الناجين ، لكن عيني لم تقع عليه ، فأمعنت النظر ، فرأيت ثمة من يقف في المواجهة متخذاً سمت القيادة بالنسبة لهؤلاء الأسرى ، كان التراب يعفر وجهه ووجوههم جميعاً حتى غلظت ملامحهم وصاروا أناساً ليس من السهل اكتشاف ملامحهم الأصلية إلا بالنسبة لي ، أستأذنت من العسكر في لباقة وحسن أدب يليق بمملوك سلطاني محترم ثم تقدمت بعض خطوات نحو الأسرى ، فإذا بمن أخذ سمة القيادة يتقدم نحوي مسلماً عليّ في نبرة ساخنة تحملني مسؤولية ما حدث لهم . قلت له : « هل نجا خزعل ؟». قال : « نعم ». قلت : « أين هو إذن ؟ لماذا لم يقف مطرحك الآن للتحدث باسمكم ؟». قال : « إنه يتحدث الآن في مقام أعلى !». قلت : « ماذا تقصد ؟» قال : « هو الآن يتحدث باسمنا مع آل ملك الجوكندار شخصياً ! قلت : « مشاء الله كيف يكون له ذلك ؟». قال : « هذا ما يحدث الآن ». ثم قال ليقطع دابر الشك من نفسي في قدرة خزعل : « إن لم ينفع آل ملك الجوكندار ، فسوف ينفع السلطان !» قلت : « كيف بحق

الله ؟». . قال : « يستطيع أميرنا خزعل أن يلتقي بالسلطان وبمن هو أجدع من السلطان !». . وكانت النبرة عالية أكثر مما ينبغي ففهمت بفهلوة خزانية أصيلة أن هذا الشخص لا يخاطبني بقدر ما يخاطب العسكر ليلقى الرعب في قلوبهم ويجعلهم يترفقون بهم ، وتأكدت كذلك أن خزعل لا يزال يتاجر بهم يوهمهم أنه أقوى مما يتصورون . وقال دون تمهيد : « وأنت . . أين جهودك ؟ أم أنك صرت مملوكاً سلطانياً وكبرت علينا . . على كل حال إذا لم تمد لنا يد المساعدة فأننا سننتزعك من الجنة ونلقي بك في أحضان الجحيم مرة أخرى !». فابتسمت ساخراً لأداري غضبي وارتعاش ساقي ، وكأنني ابن ناس هززت رأسي في هدوء وشكرته على حسن أدبه ووعدته بأن أمد لهم يد المساعدة . والتفت إلى العسكر وإذا بي أرى طلائع نائب السلطنة حصان فلوه يحمل شخصاً متغطرساً ، يتبعه حصانان فثلاثة فأربعة فمجموعة من الراجلين الفتوات ، ثم أخيراً ظهر موكب نائب السلطنة الحاج آل ملك الجوكندار . رأيت من اللائق أن أخف لأستقباله ، ففعلت ، فسلم عليّ بأطراف أصابعه وقال : ماذا يفعل الطرشجي الحلوجي ها ؟. فقلت : « مجرد استطلاع لشيء ربما يكون محل استشارة ذات لحظة ». قال : « احسنت ». ثم وقف وراح ينظر إلى الأسرى في تشف واضح وشديد القسوة ، وكانت بقية الحاشية قد وصلت والتفت حوله تتبادل المشورة في أمر هؤلاء الأسرى ماذا سنفعل بهم ؟. قال الجوكندار : « لقد نفذنا فيهم ما نبغى . . أهدرنا خمرهم كما أهدرنا قوتهم ولم يعد منهم كما أرى سوى شرذمة لو كانت ناراً فلن تحرق مطرحها . . لا بأس لا بأس . . ها أنذا قد فعلت كل ما أحلم به تجاه هؤلاء الفسقة الفجرة الكفرة . . وسوف أظل أبر بوعدي لكل من يجيئني بواحد سكران أو يحمل خمراً : سأعطيه مكافأة لا يحلم بها ». وكان ذلك الذي يأخذ سمت القيادة بدلاً من خزعل يقف في ذلة مسرحية يهرب من نظراتي التي قالت له : أين خزعل إذن ؟. وهنا ارتفع صوت من بين الحاشية يقول في ضراعة : « وهؤلاء يا سيدي . . ماذا نفعل بهم ؟ أنهم أمانة في عنقنا ! اليسوا غرباء ! أليس النبي عليه الصلاة والسلام قد أوصى بالغرباء ؟ إن الغريب في بلادنا مكروم لأجل النبي فماذا يأمر سيدي نائب

السلطنة في أمر هؤلاء المساكين الذين لم يعد لهم دار ولا نافخ نار ؟». تـورط الجوكندار برهة قفزت فيها نظرة ذلك الذي كان يأخذ سمت القيادة مركزاً إياها في عيني كأنماليقول : « هو هوذا خزعل يتكلم . . أرأيت ؟ . . إن خزعل أقوى من أن يتواجد بشخصه في مكان كهذا . . لكنه يتواجد كـأحسن ما يكـون !». وقلت لنفسي : « إن وافق الجـوكندار على هـذه النبـرة ـ أي إذا سمـح لهؤلاء الأسرى بالبقاء في القاهرة ومعاملتهم معـاملة المواطنين وهـم فلول العدو يكون خزعل قد تواجد بالفعل ». وتأملت الجوكندار وهو يتلقى صوتاً « خزعليـاً » من جميع الإتجاهات يهيب به أن يسامح وأن يعفوا وما أحلى العفو عند المقدرة ويا بخت من قدر وعفى والجنة تحت أقدام المتسامحين وهم خلاص تعلموا درساً لا ينسى . رقع الجوكنـدار رأسه بعـد تفكير ثم قـال : اسكنوهم بـواد غير ذي رفاهية أو علاقات . . ابحثوا لهم عن حارة ضيقة في حي القلعة ليكـونوا تحت سمعنا وبصرنا نرقبهم ونوقفهم عند حدهم إذا هيأت لهم نفوسهم الدنيئـة فعالاً أخرى ». تقدم واحد من الحاشية لعله المسؤول عن الأحكار أو الأوقاف ، وقال في إنفعـال : « ليس لدينـا متسع من الأمـاكن حتى نأوى فيـه طائفـة من سفلة القوم » قال الجوكندار في دبلوماسية حسدته عليها : « معك حق . . المفروض ألا نأوى مثل هؤلاء بين ظهرانينا من الأسـاس ولكن مولاي النـاصر محمـد بن قلاوون ، مولاي واستاذي ، هو الذي أباح لهم البقاء بين الديار . وإن ضميري ليؤذيني إذا أنـا خالفت رغبتـه بعد مـوتـه ، ولكنني التمس منـه عـذراً لي فيمـا فعلت ، حسن . . انتق منهم أحسنهم وأكثرهم حلماً وأدبـاً وأخلاقـاً ، ما كـان منهم أبن ناس خذه وما كان من الدهماء فألق به على كيمان الدراسة !». فصاح الرجل آمراً شخصاً آخر كان خلفه » خذهم إلى ذلك البيت الخرب بالقرب من المشهد النفيس . . أما أولاد الناس منهم فأبحث لهم عن أحد بيوت القلعة ». ثم أن الجوكندار استـدار في الناس صـائحاً : « يـا قوم . . من يـريد منكم أن يحتكر قطعة من أرض هذه الخزانة فليفعل . . من يريد أن يختط داراً أو طاحوناً فالأرض له وعليه أن يفعل حتى دون الرجوع إلينا » . .

وكان ثمة رجل قد بـرز من بين الحاشيـة وأشار إلى الحـاجب أن اتبعني

بهم . فتهيأ الحاجب وصاح بضع صيحات في جنده لم افهمها بالضبط ولكنني وجدت العسكر قد اتخذوا مرسومة مخططة في دقائق معدودة ، ثم يدفعون الأسرى أمامهم كالنعام . وإذا بالجوكندار يصيح في الحاجب : « انتظر ». فارتد الحاجب وتوقف السير دفعة واحدة وقال الحاجب : « خيراً ؟». قال الجوكندار وهو يشير إلي بإشمئناط : « خذا هذا معك ». نظرت إلى الجوكندار في غضب وصحت : « كيف يا أستاذ . . كيف ؟». قال الجوكندار : « ألست من أهل خزانة البنود ؟». كدت أبصق في وجهه على هذه النذالة النادرة قلت به : « كيف يا سيدي وأنت تعلم أنني مستشار السلطان . . أني في الأصل مملوك بدرجة مستشار صحفي ؟ . . هل تهينني أم تهين السلطان ؟». قال الجوكندار بصفاقة لا مثيل لها : « ما أعرفه أنك خزاني وكونك صرت مملوكاً سلطانياً هذه مسألة لا تعنيني ولا أعترف بها ، أنك التحقت بخدمة السلطان بشكل ثانوي ». أخذت أصفق كفاً على كف صائحاً : « لله يا زمري ؟! لله يا زمري لله يا زمري ؟» قال الجوكندار : « ماذا تقصد بـ لله يا زمري لله يا زمري ؟». قلت له : « لقد قدمت للسلطان أجل الخدمات . . قمت بالدعاية له دون أن يستحقها . . كتبت فيه رسائل مدح وتتويج وخلصت عليه من الأوصاف العلمية والفنية والتاريخية ما لا يستحق شيئاً منه . . وفي آخر المواخر أطلع من المولد بلا حمص ؟! قال الجوكندار : « هل طلب منك السلطان أن تفعل هذا أم قمت به متطوعاً من تلقاء نفسك ؟». قلت : « تطوعت طبعاً ولكن . . ولكن . . كان الثمن في خلفيتي بالطبع . على الأقل أن تكون لي بعض الأبهة . . أن أكون أحد مماليك السلطان مع ملاحظة انني رجل مؤهل لذلك وقد أحرزت الدرجات والشهادات مؤخراً ». قال الجوكندار : « ثمنك أخذته يا حلو . . لقد تمتعت ببعض الأبهة . . وجمعت بعض أموال لا تستحقها من جهات تخاف السلطان وتغدق على اتباعه . . ثم أنك على حس السلطان أحرزت ما تدعى أنك أحرزته . . كفاك هذا وعد إلى خزانتك فهي أولى بك وأنت أولى بها ». قلت صائحاً من خوف : « فلنحتكم إلى السلطان . . هذه مسألة خطيرة ولا يجب أن تنفرد بالحكم فيها هكذا ». قال بصوت جهوري : لا

أمر في هذه المسألة سوى أمري . . لقد أخذت الوعد بتنفيذ كل أوامري فيما يتعلق بالخزانة على وجه خاص ، وأنت أحد الأمور المتعلقة بالخزانة ». قلت : فلنحتكم إلى السلطان مع ذلك . . فأنا مصر ». قال « مصر ؟ . . هاها . . خذه يا حاجب بالقوة ». فما كدت أتهيأ للكلام حتى جذبني الحاجب رغم انفي وقذف بي في القطيع بغلظة وقسوة ، فكان خازوقاً مخيفاً اندب في أحشائي وصعد إلى نافوخي . .

أخذت أسير بينهم كاسف البال مقهوراً . ثم تذكرت أنني أملك ما لا يملكون املك الزمن الذي يعتبر النسبة لهم مستقبلاً ، عشت فيه ودرجت . وقد ارتفع في داخلي خاطر يهدىء من روعي قائلاً أن شيئاً لم يحدث وأن ثورة الجوكندار كأن لم تكن لأنها اعتمدت على شيء سطحي ، فتخيل أن يقوم رجل بثورة ليخلص الديار من صانعي الخمر وآكلي لحم الخنزير وبعد اراقة الدماء يكتفي بإعطاء الفسقة درساً حتى لا يكرروا صنع الخمر مرة أخرى ! وعلى هذا ـ قل لي ـ سوف يعود كل شيء إلى ما كان عليه بعد وقت قليل . ولكن فيما نحن نجتاز مبنى القلعة ونشرف على المشهد النفيس كان جمعهم بالنسبة لي ـ وأنا داخله ـ يتفاءل شيئاً فشيئاً ويطغى عليه ضجيج هائل واصطدمت بناس بزجروني فأعتذرت فاصطدمت بآخرين فصاروا يدفعونني بغلظة فلما دخت وتوقفت لاهثاً بعد وقت قصير فتحت عيني فإذا بي على محطة أتوبيس في ميدان القلعة ، وإذا بالأوتوبيس رقم ٧٢ الذي يأتي من ميدان التحرير إلى البساتين يقبل نحوي . فأسرعت على عجل وتسلقته . وكانت ساعة يدي قد تجمدت عقاربها عند يوم الجمعة الثاني عشر من محرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة . فلما انضغطت في الزحام بعنف وأيقنت أنني سأهبط في البساتين وأمشي على قدمي كالعادة حتى أطراف المعادي حيث أسكن سألني أحدهم عن الساعة فنظرت فيها فوجدت أن الأرقام الأولى قد زحفت إلى الداخل وحل محلها يوم الجمعة الخامس من صفر سنة خمسمائة بعد الألف من الهجرة .

تمت

الفهرس

الموضوع	الصفحة